

العقيدة الإسلامية

وربطها بشعب الإيمان (السلوك والعمل)

د. الصادق بن عبد الرحمن الغرياني

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً
غير مآذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري



عالم الأدب
العلمية والثقافية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً
غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

العقيدة الإسلامية
وربطها بشعب الإيمان

Title: Islamic faith
Editor: Dr. Sadeg Elgariani

Pages: 256
Year: 2018
Printed in: Beirut, Lebanon
Edition: 1

Exclusive rights by ©

مفوضية الكتاب للنشر - إدارة الشؤون الفنية / دار الكتب المصرية
القرويني، صادق
العقيدة الإسلامية وربيعها بضمب الإيمان / تأليف: صادق القرويني
الطبعة: عالم الأدب للبرصجات والنشر والتوزيع، ٢٠١٧ م
٢٥٦ ص، ٢٢×٢٧ سم
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٧٩-٧٣

ISBN: 978-977-6539-51-8

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً
غير مآنون بيطاعتها للاستخدام الشفهي أو التجاري



الكتاب: العقيدة الإسلامية وربيعها بضمب الإيمان
للؤلف: د. صادق بن عبد الرحمن القرويني

عدد الصفحات: ٢٥٦ صفحة
سنة الطباعة: ٢٠١٨ م
بلد الطباعة: بيروت / لبنان
الطبعة: الأولى

جميع حقوق الملكية الفكرية محفوظة

عالم الأدب للبرصجات والنشر والتوزيع

مؤسسة عربية تعطي بنشر النصوص لترجمة والعربية
في مجالات: الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية



الهاتف: 00201099938159
البريد الإلكتروني: info@aalamaladab.com
الموقع: www.aalamaladab.com
القاهرة - جمهورية مصر العربية

بمفروق الطبع بحقوق

يمنع طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة نشر أو توزيع الكتاب كاملاً أو في
جزء منه أو تسجيله على شريط كاسيت أو إخائه على الحاسب
أو نسخه على أسطوانات الريمي إلا بموافقة خطية من الناشر.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: في التوحيد وما يجب الإيمان به	١٥
الاعتقاد	١٧
معنى العقيدة والاعتقاد	١٧
تسمية كتب الأقدمين في علم العقيدة	١٧
حاجة الإنسان إلى العقيدة	١٨
إن الدين عند الله الإسلام	٢٠
الإيمان والإسلام	٢٢
أول ما يجب على المكلف	٢٢
الاكتفاء بالإيمان الإجمالي	٢٢
تعريف الإيمان والإسلام	٢٣
ما يجب الإيمان به	٢٥
الإيمان والإسلام ميناها التسليم	٢٦
الإيمان يزيد وينقص	٢٧
الإيمان قول وعمل	٢٨
توجيه حديث البطاقة	٣٠
القائلون بأن الإيمان الإقرار دون العمل	٣١
المعرفة وحدها دون إذعان لا تكفي	٣٣
حسن النية وحده لا يكفي	٣٤
قول الإنسان: أنا مؤمن - إن شاء الله -	٣٥
مرتكب المعصية ليس كافراً	٣٦

الموضوع	الصفحة
سلب الإيمان	٣٨
أمثلة لما يسلب الإيمان	٣٩
شروط تكفير المعين	٤٠
ما يترتب على الردة	٤٢
العتز بالجهل	٤٣
مصير المؤمنين ومصير الكافرين	٤٥
وجود الله	٤٨
وجود الشيء لا يتوقف على إدراكه	٤٨
الدليل على وجود الله -تعالى-	٤٩
١- نداء الفطرة	٥٠
٢- نداء العقل	٥١
المصنوعات تدل على صانعها	٥٢
الصدفة في خلق الكون لا يقبلها العقل	٥٢
التوحيد	٥٥
وحدة النظام تدل على وحدانية الخالق	٥٥
معنى توحيد الله	٥٥
معنى لا إله إلا الله	٥٦
توحيد الألوهية	٥٧
توحيد الربوبية	٥٨
وحدة الذات ووحدة الصفات	٦٠
أ- صفة الذات	٦١
الصفات الخيرية	٦١
ب- صفات الفعل	٦٣
الكف عن الخوض في الصفات	٦٦
دفع شبهة المؤولين	٦٧
ما ورد فيه من الصفات تأويل عن السلف	٦٨
صفة الكلام	٦٩
الكلمات التشريعية والكلمات الكونية	٧١
القرآن كلام الله	٧١
التفصيل في مقام التعليم	٧٣

٧٤	رؤية الباري ﷻ
٧٥	الأسماء الحسنی وإحصاؤها
٧٩	أسماء الله توفيقية وليست محصورة في هذا العدد
٨٠	أسماء الله لا تعرف إلا عن طريق الشرع
٨١	اسم الله الأعظم
٨٣	الإيمان بالملائكة
٨٣	صفات الملائكة
٨٥	وظيفة الملائكة
٨٧	ما يجب الإيمان به من الملائكة إجمالاً وتفصيلاً
٨٨	تفضيل المطيع من بني آدم على الملائكة
٩٠	الإيمان بالأنبياء والرسل
٩٠	وظيفة الرسل
٩٠	وجوب طاعتهم والإيمان بهم
٩١	الإسلام دين الأنبياء جميعاً
٩٢	الرسول والنبی
٩٢	عدد الرسل وما يجب الإيمان به إجمالاً وتفصيلاً
٩٣	أولو العزم
٩٣	الصفات الواجبة للرسل
٩٤	فضل نبينا محمد ﷺ
٩٥	صوم رساله ﷺ وأنه خاتم النبيين
٩٦	وجوب محبة وتلقيها على النفس والأهل
٩٨	المقياس الذي تعرف به محبة رسول الله ﷺ
٩٩	الإيمان بالكتب
٩٩	الكتب التي يجب الإيمان بها تفصيلاً
١٠٠	القرآن الكريم مهيم على ما قبله من الكتب
١٠١	الإيمان بالقضاء والقدر
١٠١	معنى القضاء والقدر
١٠١	الدليل على وجوب الإيمان بالقدر
١٠٢	معنى الإيمان بالقدر
١٠٢	ثمرة الإيمان بالقدر

الموضوع	الصفحة
الرضا بالقدر لا يتنافى بالأسياب	١٠٤
الإيمان بالقضاء لا يتنافى الدعاء برفع البلاء	١٠٦
الاحتجاج بالقدر	١٠٦
أفعال العباد والأخذ بالأسباب	١٠٨
من طلب الهداية هداه الله	١٠٩
الشر لا يُنسب إلى الله -تعالى-	١١٠
كراهية الخوض في القدر	١١١
علامات الساعة	١١٣
الساعة لا يعلم وقتها إلا الله	١١٣
العلامات الصغرى	١١٤
العلامات الكبرى	١١٥
١- خروج الدجال	١١٥
٢- نزول عيسى عليه السلام	١١٧
٣- خروج يأجوج ومأجوج	١١٨
٤- طلوع الشمس من مغربها	١١٩
٥- خروج الدابة	١١٩
٦- الريح التي تقبض أرواح المؤمنين	١٢٠
العالم الآخر	١٢٢
أحوال العالم الآخر لا تخضع للقياس	١٢٢
أحوال الموت والبرزخ	١٢٣
الموت	١٢٣
سؤال الملكين وعذاب القبر	١٢٥
ضغطة القبر	١٢٩
مستقر الأرواح بعد الموت	١٢٩
النفخ في الصور	١٣٢
الحياة الآخرة	١٣٥
١ - البعث	١٣٥
معنى البعث	١٣٥
الحكمة من البعث	١٣٥
إقامة الحجة على منكري البعث	١٣٦

الموضوع	الصفحة
٢ - الحشر	١٣٨
معنى الحشر	١٣٨
٣ - الشفاعة	١٤٠
الشفاعة	١٤٠
الشفاعة أنواع كما ذكرها العلماء ودلت عليها الأحاديث	١٤١
٤ - العرض والحساب	١٤٣
الفرق بين العرض والحساب	١٤٣
حساب الكافر	١٤٣
تمييز المؤمن من المنافق في المحشر	١٤٤
كيفية الحساب وإحصاء الأعمال	١٤٥
تفاوت المؤمنين عند الحساب	١٤٦
٥ - الميزان	١٤٨
٦ - الحوض	١٥٠
صفة الحوض	١٥١
٧ - الصراط	١٥٢
الإيمان به وصفته	١٥٢
القصاص من المظالم	١٥٣
الجنة والنار	١٥٥
٨ - النار	١٥٥
جهنم - أحاطنا الله منها -	١٥٥
النار لا تفتنى ولا يتقطع عذابها	١٥٦
صفة أهل الجنة وأهل النار	١٥٧
٩ - الجنة	١٥٩
الجنة لا تفتنى ولا يتقطع نعيمها	١٦٠
أولاد المسلمين وأولاد المشركين	١٦٢
أهل الفترة	١٦٣
الباب الثاني: في السلوك	١٦٥
الإيمان والمفاهيم الخاطئة	١٦٧
عزل الإيمان عن السلوك	١٦٧

الموضوع	الصفحة
التجارة والمكاسب	١٦٨
المال والتعامل	١٦٩
عدم الانضباط	١٧٠
١- الاستهتار بالوقت	١٧١
٢- المغالبة على الحقوق	١٧٣
استحلال المال العام	١٧٥
السفر والسياحة	١٧٧
الطب والمستشفيات	١٧٨
من هذه الممارسات	١٨٢
المصحات الخاصة	١٨٤
تسويق السلعة للمريض دون أن يستشار	١٨٤
الجامعات والمعاهد	١٨٧
الجامعات الخاصة	١٨٨
الموظفون والإداريون	١٨٨
فتن كقطع الليل	١٩٢
فتنة الاعتقاد	١٩٢
الافتتان بالأضرحة	١٩٣
فتنة اللسان	١٩٤
فتنة الانتقاد للشهوات	١٩٥
غربة الحق	١٩٧
التقليد الأعمى (زي الناس)!!	١٩٨
من شعب الإيمان	١٩٩
فرائض وسنن مضيئة	١٩٩
لا يجوز الإقدام على عمل حتى يعلم حكم الله فيه	١٩٩
النصح في الدين من الإيمان	٢٠٠
النصح لله	٢٠٠
النصح لرسول الله ﷺ	٢٠١
النصح لكتاب الله	٢٠١
التصبيحة الملقاة على كاهل العلماء	٢٠٢
تحري الفتوى بصحيح الأقوال	٢٠٤

٢٠٥	التصحية المطلوبة من عامة المسلمين
٢٠٥	الحب في الله والبص في الله
٢٠٧	هجران أهل البدع
٢٠٨	لهجر المبتدع شرطان
٢٠٩	بمطة الأدي عن الطريق
٢١١	الإفاد في السعة والبحل في التواجات
٢١١	الصبر من الإيمان
٢١٢	الصبر على العمل ابتداء ودواما
٢١٣	الصبر على المصيبة
٢١٤	الصبر ثلاثة أنواع
٢١٤	الابتلاء بالنعم أشد من الابتلاء بالنقم
٢١٦	جهدية التوحيد
٢١٦	سد درافع الانحراف في العقيدة
٢١٦	إخلاص العمل لله ومراته
٢١٨	التحذير من العلو
٢١٩	التحذير من العلو في رسول الله ﷺ
٢٢٠	العلو في الأولياء وتعارضه مع التوحيد
٢٢٤	تحريف الناس بالكرامات وإفساد العقائد
٢٢٥	الحلف بغير الله
٢٢٧	نسبة الاختراع والإبداع لغير الله
٢٢٨	تسمية المخلوق بالرب والمولى والسيد
٢٢٩	سب الدهر
٢٣٠	التألي على الله
٢٣١	التشريك في المشيئة والقدرة
٢٣٢	التوسل الجائر
٢٣٣	التوسل المختلف فيه
٢٣٤	التوسل المحظور
٢٣٦	الاستعانة بالمخلوق
٢٣٧	تشديد الأصححة وبراء القصور
٢٣٧	اتحاد القبور مساجد

٢٣٨	التدر للأصرحة والديج عندها
٢٤٠	من مظاهر ضعف الإيمان
٢٤٠	التطير والتأويل
٢٤٣	العدوى
٢٤٤	استطلاع العيب بالكهانة والأبراج وتزليل الحاتم
٢٤٨	(لو) تفتح عمل الشيطان
٢٤٩	لا يُقال هلك الناس
٢٥٠	تعليق الدعاء على المشيئة
٢٥١	دعاة الشيطان تتعبد ما يوسوس به
٢٥٢	أنوع الوسواس
٢٥٢	لوسوسة في العقيدة
٢٥٤	لوسوسة في المعادات
٢٥٤	الوقاية من الوسوسة
٢٥٥	علاج الوسواس بعد وقوعه

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً
غير مآذون ببطاعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله علم بالعلم، علم الإنسان ما لم يعلم، حملاً كثيراً طيباً مبارك فيه، لا تحصى ثناء عليه، كما أثنى على نفسه، والصلاة والسلام على سيد الأولين والأحرار، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه، وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد

فهذه كتاب في العقيدة، توجت به الوضوح والشمول، والتوثيق العلمي والتدليل، فصدت فيه ربط العقيدة بالسلوك، وفهمها على طريقة الأئمة المقتدى بهم من أئمة الدين، المتمثل في أمرين أساسيين هما:

الأول: ما أثبتته الوحي من القرآن أو السنة في أمر العقيدة أثبتوه، وما نقاه نفوه، وما سكب عنه سكتوا عنه، ولم يحوصوا فيه، فطلبوا السلامة لأنفسهم، ولم يتكلفوا عنه، ثم يكفهم الله ﷻ به، فكان طربعهم أسلم وأمنع، وأعلم وأحكم، فحراهم به عن الأمة خير الجراء.

كان أسماً؛ لأنه طريق العروة الساجية التي عليها رسول الله ﷺ وأصحابه، وكان أمنع؛ لأن مفهوم العقيدة عندهم كان منتهج حياة للمسلم، بما في هذه الكلمة من معنى

وكان أحكم وأعلم، لأنه ليس على وجه الأرض أحد أعلم بالله ﷻ وما يجب له من رسول له ﷺ، فيه أعلم الناس بربه، وأتقاهم وأخشاهم لله، بإجماع أهل الإسلام، وليس كما شاع عند المتأخرين ممن كتبوا في علم الكلام، من أن طريقة الحنف في تأويل الصفات، أعلم وأحكم، فإن هذا القول مؤداه أن المشتعين بعمم الكلام والباويل في القرون المتأخرة أعلم بالله ﷻ من رسول الله ﷺ وأصحابه، ولا يصح ذلك في اعتقاد مسلم

الثاني ربط العقيدة بعمل المسلم وسلوكه، فلم تكن مسائل العقيدة عنى عندهم مجرد نطق واعتقاد، بل جمعت مع الطق والاعتقاد السلوك والأعمال العقيدة بمفهومها عندهم ليس كلمة ترقد في الشفاء وتناقضها النيات والأقوال والأفعال العقيدة عندهم انصاف لسلوك الفرد المؤمن الموحد القائم بحق ربه وحق عباده، هذا هو مفهوم العقيدة عندهم، الذي صار غريباً بيننا هذا ما قصدت إليه، والعون من الله وحده لا شريك له، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وما توفيقي إلا بالله

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الصادق بن عبد الرحمن الغرياني

تاجوراء ليبيا

الباب الأول

في التوحيد وما يجب الإيمان به

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الاعتقاد

معنى العقيدة والاعتقاد:

الاعتقاد هو الحكم الذي لا يقل الشك لدى معتقده، وهو ما انطوى عليه قلب الإنسان من تصديقات يعييه تشأ معه، لحاحته إليها، مما يتعلق بأمور الدين، سواء كانت هذه التصديقات فطرة اضطرابية، كاعتقاد السوع الإنساني بأسره في وجود الحائق لمكون قبل معرفه الراهين الداله عليه، أو كانت المعروفة نتيجة عن إقامة الأدلة والبراهين.

لذا سُمي العلم لمتكلم بما يجب الإيمان به علم العقائد، وصار علم العقيدة غلماً على العلم الذي يتناول ما يجب الإيمان به في حق الله تعالى من صفات الكمال والأسماء الحسنی، وما يستحيل، وما يجور، وفي حق رسله، وما يتعلق باليوم الآخر، وما يجب الإيمان به من أمور العيب والاعتقاد ينقسم إلى صحيح وفاسد، فمن اعتقد الشيء على ما هو عليه مطابقاً للواقع، فاعتقاده صحيح، ومن اعتقد الشيء على غير ما هو عليه، مخالفاً لواقع الحال، فاعتقاده فاسد، ويسمونه جهلاً^(١).

تسمية كتب الأقدمين في علم العقيدة.

تسمية العلم الذي يتناول ما ذكر باسم العقيدة تسمية متأخرة، اشتهرت مع بداية القرن الخامس، وهلم جرّاً.

ومن الكتب التي وصلت إلينا مسماه بالعقيدة، كتاب (شرح أصول الاعتقاد) لئالكني (ت ٤١٨هـ)، و(الاعتقاد) لليهي (ت ٤٥٨هـ)، وكانت الكتب التي تتكلم

(١) الحدود للبجي ص ٢٨

على هذا العلم قبل ذلك تسمى بمسميات أخرى، منها

١ (لفقه لأكرم)، وأول من استعمل هذا الاسم الإمام أبو حنيفة،
(ب ١٥٠هـ)

٢ (السنة)، وسبب ذلك لأنها جمعت الأحاديث والنسب الواردة في الاعتقاد،
وممن نسب إليه كتاب بهذا الاسم أبو بكر بن أبي شيبة صاحب كتابي (المسند)
و(المصنف) (ت ٢٣٥هـ)، والإمام أحمد بن حنبل (ب ٢٤٠هـ)، وأبو داود
التحسني صاحب السنن (ت ٢٧٥هـ)، وابن أبي عاصم (ب ٢٨٧هـ)، والطبراني
(ت ٣٦٠هـ)، ومحمد بن نصر المروزي (ت ٤٣٤هـ)

٣ (الإيمان)، كالإيمان لأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، وابن مده (ب ٣٩٥هـ)
وأبي يعلى (ت ٤٥٨هـ)

٤ (التوحيد)، ككتاب التوحيد من صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن
إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، و(التوحيد) لاس خزيمة (ت ٣١١هـ)
٥ (الشريعة)، ككتاب الشريعة للأجري (ت ٣٦٠هـ)

٦ (أصول الدين)، ككتاب (الإمارة عن أصول الديانة) لأبي الحسن الأشعري
(ب ٣٢٤هـ)، و(لوصول إلى معرفة الأصول) لأبي عمر الطنمكي (ب ٤٢٩هـ)
وغيرهما^{١١}

والاعتقاد ينقسم إلى صحيح وفاسد، فمن اعتقد الشيء على ما هو عليه مطابقاً
للمواقع، واعتقاده صحيح، ومن اعتقد الشيء على غير ما هو عليه، مخالفًا لمواقع
الحال فاعتقاده فاسد، ويسمونه جهلاً^(٢).

حاجة الإنسان إلى العقيدة

الإنسان مخلوق ضعيف في هذا الكون الكبير، والحياة حضم واسع من الصراع
بين الخير والشر، والآلام والأمال، والضر والنعم، وقد يطغى الشر ويتصر الطم،
وقد تحيط بالإنسان الشدائد بأنواعها، فيصيبه الضر والفقر، والجوع والمرض،

١١ نظر محله بحكمة العدد أربع عشر من ٣٥ مقال (عود من درج)، ودائرة معارف نفرد لعدد ١ ٤٨٣.

والموسوعة العربية المصرة ١٢٢٢/٢

(٢) الحدود للباجي ٣٨

ويُصاب بفقد الأحباب وأنواع الابتلاءات، في النفس والأهل والمال، إلى غير ذلك من المكروهات التي لا يد للإسان على دفعها

لذلك كان الإنسان دائماً في حاجة إلى الاحتماء بقوة عظمى تُصممه إذا طُم، وتحصيه إذا أُرده أحد سوء، وتمّته بالنصر إذا قل بصره، وتدفع عنه الشدائد إذا حنت به مصاح إلى قوة تُعوّضه عما فقد، ويستعيت بها إذا مسه الضر، تُطعمه إذا جاع، وتشفيه إذا مرض، وتصرف عنه سوء إذا حافه، وتحيطه بالنظامية واستقرار النفس إن تطوّرت به الطموحات، وتكالت عليه مطالب الحياة

هذه القوة مصدرها الدين والعقيدة، لم يختلف على ذلك الناس قديماً ولا حديثاً، لا في المجتمعات البدائية، ولا في العالم المتقدم، فالاحتماء بالعقيدة شيء معرور في فطرة الناس لا بد لهم منه، شاء من شاء وكره من كره، حتى المنحد ومدعي الألوهية، إذ أحاط به الهلاك وشاهد مصرعه قال يا رب، قد يقول ذلك دون أن يفكر، استحادة للداء المعرور في فطرته، وقد يقوله اعترافاً بالحق بعد أن يرى برهانه، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَلْهَىٰ مِنَ الْإِنسَانِ مَا دَعَاهُ يُدْعَىٰ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حُوِّلَ يُعْمَدُ بِهِ سُبْحَانَ مَا كَانَ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَبَعَثَ اللَّهُ نَذِيرًا فَجَاءَ بِكُفْرِكَ قُبْلًا يُكَذِّبُكَ﴾ [الزمر: ٨]

هذه حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة على الجانب المادي في الحياة الدنيا، أما على الجانب الآخر في الحياة الآخرة، فإن حاجة الإنسان إليها أشد إلحاحاً وضرورة، لأن الحياة الآخرة هي الحياة الناقية التي لا تضي، والإنسان فيها يُوقى حراء أعماله، فيما يعيم مقيم لا ينقطع، إن آمن وكان معتقده صحيحاً، وإما عذاب أليم لا يطاق، إن أشرك وضل الطريق

وما يموت الإنسان في الدنيا من آمال، وما يصيبه فيها من حادثة أو حرمان، لا يؤلمه فقله كثيراً بالمقارنة إلى ما يرحوه في يوم الدين والنجاء من حير عظيم، فإن في ذلك اليوم تعويضاً رايحاً عما فات، وفي وعده بذلك تسلية نفسه، تحفف عنه وقع المصائب وقت برولها، فهو بالاعتقاد الصحيح رايح في الحالين، في السراء والضراء، قال ﷺ «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا

للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»^(١)

نظرًا لهذه الحاجة إلى الاحتواء بالعقيدة سواء في ما يتعلق بالجانب المادي المعامل في الحياة الدنيا، أو فيما يتعلق بالجانب الأخروي الآجل في الحياة الباقية كان الدين ولعقيدة على مر العصور في الماضي السحيق ولا يزال كذلك في الحاضر المعاصر جزءًا من كيان الناس لا ينفكون عنه، ولا بدّ لهم منه، حتى إهم إذ لم يهتدوا بهداية الله إلى الإيمان بالإله الحق، التفتوا إلى أديان أخرى باطلة، يعدون فيها الكواكب والأوثان، ويعبدون الإنسان والأنفار، ويجعلونها أندادًا لله، وهي لا تفي شيئًا، ولا تدفع صرا، ولكن حاجتهم إلى العقيدة جعلهم يعتقدون بأي معتقد

وهنا تبرز الحاجة الحقيقية إلى العقيدة الصحيحة والدين الحق، الذي يلبي حاجة الإنسان، ويعطيه الحماية الحقيقية، والسعادة التي يشدها في الدارين

إن الدين عند الله الإسلام

لا شك أن الإسلام هو الدين الحق، لأنه الدين الذي رصيه الله تعالى لهذه الأمة، وسح به جميع الشرائع السماوية، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخِصَّةٍ مِّنْ مَّتَجَرِبٍ إِلَيمَ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البائدة ٣]، وهو الدين الذي يقوم على عبادة إله الكون الذي لا شريك له، المهيمن على كل شيء، الذي وسع علمه كل شيء، وأحاطت قدرته بكل الكائنات، فكل موحود بأمره، وكل نعمة على الناس هي من عنده، فكان لذلك مسجعًا لعبادة لداته، وهي حقه على عباده، يعدونه لا يشركون به شيئًا

ولما كان الدين الإسلامي حاتم الأديان السماوية وأحرها، وكان دينًا ليس كدفة على محض أحاسيسهم وألوانهم وعصورهم، أحكم الله تعالى شريعته على لسان نبيه محمد ﷺ فجعلها صالحة لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة، فمستورها كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهدى نبيه محمد ﷺ

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٩٩

المؤيد بالوحي، فكان في هذا الدستور شفاء الصدور، فيه العقيدة الصحيحة، والعادة المثلى، والسلوك القويم

كان شريعة في حاسها الاعتقادي تقوم على الإيمان بالله، الذي يملأ النفس البشرية ثقة وقوة واعتزاز بالله تعالى وحده ويحررها التحرر الكامل من التبعية لغيره، فلا عبودية إلا لله وحده، وبذلك تتوجه التوجيه النافع في الحياة الذي يحمد على التضحية لتحقيق أسنى الأهداف وأسمى العايات

وفي حاسها التعدي تمثل هذه الشريعة مبع الإخلاص الذي تعكس أثره على الإنسان شعوراً بالمسئولية واستقامة وصلاح نفس

وفي حاسها السلوكي تعطي المثل الرائع في حسن التعامل والإنصاف والوفاء بالدمم، والعدل بين الناس

وهذه الحصائل التي هي حوامع الإيمان، ما اجتمعت في أمة إلا جمعت الخير من أطرافه، وكان لأهلها شأن عند الله وعند الناس، وكان لهم السمكين والفلاح، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْلُبَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ حَكَمًا مُّنتَظَفًا لَّا يَمَسُّ مِنْهُمْ فِيهِمْ وَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِمْ الْقَرِيبَ لَرَبِّهِمْ وَلَيُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا نَعَدُوهُمْ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْ ثَوْتٍ﴾ [الثورة ٥٥]

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الإيمان والإسلام

أول ما يجب على المكلف:

أول ما يجب على المكلف هو التوحيد، تطلقاً واعتقاداً وعملاً، وليس النظر ولا التفكير، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك لخصب الترهيب وإقامة الأدلة، كما هو مذكور في كثير من كتب علم الكلام، وهي مائة ذكر أبو الوليد السجستاني عن بعض شيوخه أنها من مسائل المعتزلة التي بقيت في كتب الأشاعرة، وكذلك قال أبو جعفر السبكي وهو من رؤوس الأشاعرة^(١)

الاكتفاء بالإيمان الإجمالي

يكفي عامة المسلمين الإيمان الحارم والتصديق المحمل بكل ما جاء به النبي ﷺ أما معرفة تفصيل مسائل الإيمان والحلافيات، والاستدلال ورد الشبهات، فهذا من فروض الكفاية، لا يجب إلا على من أعطاه الله تعالى قدرة عليه من أهل العلم، ولا يجب على عامة المسلمين

قال القرطبي في المفهم «الذي عليه أئمة الفتوى وبهم يقتدى، كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد، وغيرهم من أئمة السلف، أن أول الواجبات على المكلف الإيمان بالتصديقي الحرمي، الذي لا ريب معه في الله تعالى ورسوله وكتبه، وما جاءت به الرسل، كيف حصل ذلك الإيمان، وبأي طريق إليه بوصول»^(٢) وهذا الذي قاله القرطبي هو الذي دل عليه حديث جبريل في تعريف الإيمان «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله

(١) نظر الشهيد ١٥٢/٧، ومع الساري ١، ٧٧، ١١٦/١٧

(٢) المفهم ١٨٢/١

وملائكته وكُتبه ورُسُله واليُوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١)

ويدل له أيضًا أحاديث إسلام أصحاب رسول الله ﷺ كحديث إسلام الأعرابي، وإسلام أبي ذر، وحالد بن الوليد، وحديث بهر بن حكيم، وغيرهم من الصحابة، فقد روى بهر بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال: «قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حِفْضْتُ أَكْثَرَ مِنْ عِدْهِمْ لِأَصَاحِبِ يَدَيْهِ أَنْ لَا أَتِيكَ وَلَا أَتِي دَيْكَ، وَإِنِّي كُنْتُ أَمْرًا لَا أَغْفُلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ ﷻ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَحْيِ اللَّهِ، بِمَا نَعَيْتُكَ رُبُّكَ الْبُذَاءُ؟ قَالَ: بِالْإِسْلَامِ، قُلْتُ: وَمَا آيَاتُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: أَنْ تَقُولَ: أُسَلِّمُ وَجْهِي إِلَى اللَّهِ، وَتُحَيِّتُ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ»^(٢)

فمن يكرر اللفظ بطلب ممن يأتيه راعيًا في الإسلام إقامة السرايين والدلائل العقلية على إثبات ما يجب لله تعالى، وما يستحيل، وما يجوز، من يكتفي به بالتصديق والتسليم الإجمالي بما يجب الإيمان به، والنظر بالشهادتين، وتعيينه أركان الإسلام ليعمل بها.

قال ابن عبد البر: «إنه من نظر إلى إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعبي وطبيعة وسعد وعبد الرحمن وسائر المهاجرين والأنصار، وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجا، علم أن الله ﷻ لم يعرفه واحد منهم إلا بتصديق النبي بأعلام النبوة، ودلائل الرسالة، لا من قبل حركة، ولا من باب الكل والنقص، ولا من باب كذا ويكون، ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبا، وفي الجسم وفي بنيه، والتشبيه وفيه لادما، ما أصاعوه، ولو أصاعوا الواجب ما نطق القرون سركيتهم وتقديمهم، ولا أطب في مدحهم وتعظيمهم، ولو كان ذلك من عملهم مشهورا أو من أخلاقهم معروفا، لاستفاض عنهم، ولشهروا به، كما شهروا بالقران والروايات»^(٣)

تعريف الإيمان والإسلام

الإيمان في اللغة التصديق والإدعان، قال تعالى ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَاغِرِينَ﴾ (يوسف ١٧)، أي بمصدق والإسلام معناه الاستسلام والانقياد،

(١) مسلم حديث رقم ٨

(٢) سنن السائي حديث رقم ٢٤٣٦

(٣) التمهيد ١٥٢/٧

فهو إسلام الروح لله، وإيمانه بالنيات، والأعمال، والطاعات

والإيمان والإسلام المُتجيان عند الله تعالى يوم القيامة يردان في الشرع على شيء واحد، وهو الاستسلام لله تعالى، والخصوع له، والطاعة لأمره، وإن كان أحدهما وهو الإيمان أدخل في عمل القلب، والآخر، وهو الإسلام أدخل في السلق والعمل بالجوارح، فليس هناك إيمان منح لصاحبه في الآخرة من غير إسلام، ولا إسلام منح من غير إيمان، فهما متلازمان، هما كشجرة الإيمان، في القلب جذورها، والإسلام في الخارج فروعها، والجذور والقروء كلاهما جزءان لشيء واحد، لا يبغي واحد منهما عن غيره.

قد اسعد الله أكثر أصحاب مالك على أن الإسلام والإيمان شيء واحد^(١)، وهو قول جمهور أصحابنا وغيرهم من المالكيين والشافعيين، وهو قول داود وأصحابه، وأكثر أهل السنة والظهر، المتبعين للسلف والأثر، قال الله تعالى ﴿وَمِنَّا مَن يَخُفُّ بِهَا عِزَّ رَبِّهِ مِنَ الْغَيْبِ﴾ [الذاريات ٣٦]، أي غير بيت مسلم من المؤمنين، فسوى بين الإيمان والإسلام، وقال تعالى ﴿إِنَّ الْبَيْتَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران ١٩] وقد ثبت بات القرآن أن الإسلام دين الأشياء جميعاً، قال تعالى محاطة إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْغَيْبِ﴾ [البقرة ١٣١]، وس دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا فَبِئْسَ لَكَ مِنَ الدِّينِ أُنْفُسًا كُنَّا مِنْكَ وَارْتَمَيْنَا عَلَيْكَ أَلْمَامًا﴾ [يوسف ١٠١]، ولا شك أن الإسلام الذي عليه الأشياء وأحر القرآن بأنه الدين الحق، لا يكون مدلوله إلا شاملاً للإقرار بالوحيد باللسان، والإدعان لله والخصوع له بالتقرب والجدد، والعمل بالطاعات بالجوارح والأركان

ويجب على أن الإيمان والإسلام سواء، مجيء التعبير بأحدهما عن الآخر، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم «أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟» قَالَ «الْإِيمَانُ»^(٢)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَتُنْذِرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَخَدُّهُ؟» قَالُوا «نَعْلَمُ» قَالَ «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تَطُوعُوا

(١) صحيح ٢٤٧/٧ ٢٥٠

(٢) مسند أحمد حديث رقم ١٦٥٧٩

مِنَ الْمُفْتَنِّ الْعُمَى»^(١) وجاء التعبير بهذه الأركان في حديث جبريل عن الإسلام، فقد: «أَنَّ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»^(٢) وأما ما جاء من مثل قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ: إِنَّا عَلَى اللَّهِ قَوْمُونَ وَلَكِنَّ أَقْوَامًا أَتَوْا بِبُرْهَانٍ مِّنْ رَبِّهِمْ فَأَنُفَتِّنُكُمْ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَوْ تُسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ نهارًا وَلاَ لَيْلًا وَتَذَكَّرُونَ أَتَى بِهَذَا الْبَيِّنَاتِ لِقَوْمٍ أُوْفِيَينَ﴾ [الحجرات ١٤]، مما يقتضى المعايرة بين الإيمان والإسلام، فليس المراد به الحقيقة الشرعية للإسلام، وإنما المراد الحقيقة الملغوية، وهي الاستسلام ظاهراً، خوفاً من القتل؛ لأن من أظهر الاستسلام عصم دمه، لكنه لا يكون مؤمناً على دين الإسلام، الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ديناً في قوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣)

ما يجب الإيمان به

يكفي المسم في الإيمان أن يؤمن بالله وحده لا شريك له، وملائكته، وكتبه، ورسوله، وما جاء به الرسل، وباليوم الآخر، وبالقدر خير وشره، وبالبعث بعد الموت، وأن الله تعالى ليس كمثله شيء إيماناً عاماً مجعلاً، عني ما جاء في حديث جبريل ﷺ وهو قوله ﷺ في الجواب عن حقيقة الإسلام: «أَنَّ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، وقوله عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِهِ».

(١) سنن أبي داود، حديث رقم ٥٣

(٢) مسلم، حديث رقم ٨. ومثل ما ذهب إلى أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم ولا يمكن أن يكون مسلم غير مؤمن، وهو ما ذهب إليه في الحديث: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطَيْتَ فَلَانًا دِينَهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: سَيُؤْتِيهِ اللَّهُ دِينَهُ أَوْ يُؤْتِيهِ ثَلَاثًا، وَيُرَدُّهَا عَلَيَّ ثَلَاثًا» «أَوْ يُؤْتِيهِ» ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لأُعْطِي الرَّحْلَ، وَغَيْرَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ»، معناه أن يؤمن بالله في الآخرة، صحيح مسلم رقم ١٥٠، فقد فرغ مني ﷺ سبباً ما يفيد أن الإيمان أخص من الإسلام وهناك من المصنفين من يجعل الإيمان غير الإسلام فجعل الإيمان هو التصديق والإيمان الحق بالقلب لله تعالى. ولو كان صاحبه غير مقاد ولا مقر في الظاهر، وهذا يكون عند الله حجة ولا يمان في الدنيا معاملة نصيب، والإسلام هو الاعتقاد في الظاهر أني قد يكون صاحبه صادق في باطن وقد يكون صادقاً وهذا لا يكون ناجزاً عند الله لكن في الظاهر يعمل معاملة نصيب لقول النبي ﷺ =
في أم المؤمنين أم القلي عن رسول الله ﷺ ولا أشق بطوبهه صحيح البخاري رقم ٤٣٥١

(٣) البخاري مع فتح الباري ١/٨٦

وملائكته، وكُتبه، ورُسُله، والْيَوْم الآخر، وتؤمن بالقدر خيرَه وشَره ١١

والإيمان بالله معناه توحيدُه في ذاته وصفاته، وأنه متَّصف بكل كمال، ومُسَرَّه عن كل نقص، وأنه ليس كمثله شيء، وتصديقُ ذلك بالقلب واللسان، مع الخضوع لأمره والإيمان بالملائكة معناه التصديق بما سمى الله تعالى لنا منهم في القرآن عني العيس والتصديقُ بآفئهم إجمالاً، وذلك باعتقاد أن لله تعالى ملائكة غير المذكورين، لا يعلم أعدادهم وأسماءهم إلا هو

والإيمان بالكتب يعني الإيمان بما سماه الله لنا من الكتب، وهو القرآن، والنبوة، والإنجيل، والنبور، وصُحف إبراهيم وموسى، وكذلك الإيمان بأن لله كتباً أخرى أرسلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا هو

والإيمان بالرسول يعني التصديق بمن سماهم الله لنا منهم في القرآن، والإيمان كذلك بأن لله رسلاً آخرين لا يعلم أعدادهم وأسماءهم إلا هو، كما قال الله تعالى ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر ٧٨]

والإيمان باليوم الآخر معناه الإيمان بالبعث بعد الموت، وبكل ما في ذلك اليوم من الحساب، والجاء، والجنة، والنار، والميران، والصراف والإيمان بالقدر هو التسليم لقضاء الله تعالى وقدره، وأن نعم أن ما أصاب لم يكن ليخطئ، وما أخطأ ما لم يكن ليصيب، وأن برضى بذلك

الإيمان والإسلام مبنيان على التسليم

لا يصح للمؤمن إيمان ولا إسلام إلا بالتسليم المطلق، والإدعاء الكامل بالقبول واللسان لكل ما أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ دون اعتراض أو انقار فليس لمسلم أن يقول لم أمر الله تعالى بكذا؟ أو لم بهي عن كذا؟ أو لم قدر كذا؟ أو لم فعل كذا؟ ولم حكم كذا؟ فإن ذلك مناقض للإيمان، صاف لتسليم، قال الله تعالى ﴿لَا تَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْتَلَوْنَ﴾ [الأنبياء ٢٣]، وقال تعالى لرسوله ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِرُكَ حَتَّى يُحْكِمَكَ مِمَّا شِعَرَ لِيَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء ٦٥]

(١) مسلم حديث رقم ٨

والله ﷻ لا يُسأل عما يفعل، وذلك لكمال حكمته وعدله، لا لمجرد فهمه وسخطه. فالمسلم إذا سأل يقول: سم أمر ربنا؟ ولا يقول: لم أمر ربنا؟ ولا ضير من سؤال المستعلم، الرابع في العلم، الناحية عن حكمة ترتفع بها عن المنس الشبهة، أو يرتاح القلب عند الوقوف عليها في أمر من أمور الدين، فإنما شفاء الغي السؤال

والسؤال لمدوم هو سؤال المتعنت المسكر، الذي لا يريد المعرفة، وإنما يريد العدد، ومعرضة الحق والوحي برأيه^(١)

والصفة التي تميز السائل المعترض، عن السائل المستعلم المتعلم، أن الأول إذا لم يعرف الحكمة والعباية من الأمر، رفض الإيمان، وتشكك في صحة الأحكام أما المستعلم تعلمًا وتعقُّلاً، فهو على إيمانه وبقائه وتسليمه، عرف الحكمة أم لم يعرفها، فعدم معرفة الحكمة لا تسلب الإيمان، ولا تشككه فيما عده من يقين، ومعرفة تردده طمأنينة

الإيمان يزيد وينقص

الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، فهو مراتب بعضها فوق بعض فليس إيمان الأنبياء كإيمان غيرهم، وليس إيمان أبي بكر الصديق كإيمان سائر الناس، وليس إيمان المطيع كإيمان العاصي، قال تعالى: ﴿إِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَجِئَتْ قُلُوبُهُمْ وَدُتُّوا عَنْهُمْ أَسْتَمِعُوا إِيْمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأحقاف ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِإِنشَاء﴾ [المائدة ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ هُدًى﴾ [الكهف ١٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّسَالَاتِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْتَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِسْمِهِمْ﴾ [الفتح ٤]، والآيات صر في الدلالة على زيادة الإيمان، والزيادة تستلزم النقص لا محالة وقال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُهُمْ خَيْرُهُمْ لِنِسَائِهِمْ»^(٢)، ولا يكون من أنصف بهذه الصفة أكمل إلا إذا كان المتصف بصددها أنقص وقال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان

(١) انظر تفسير القرطبي ٣٠٩/٦ وشرح المفهدة المضاوية ص ٢٩٠

(٢) سنن الترمذي حديث ١١١٢

الحب في الله والبغض في الله»^(١)، فإنه يدل على أن عرى الإيمان بعضها أوثق من بعض وأكمل. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سَقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَمْلُؤَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرِّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ» ﴿كَلَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَاءٌ كَاوًا نَكِسًا﴾»^(٢)

وقد ﷺ «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارُهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٣)، وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه «هدموا برداء إيمانكم، فتذكرون الله ﷻ»^(٤)، وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»^(٥)

الإيمان قول وعمل

قال الشافعي رحمه الله تعالى «كان الإجماع من الصحابة والسابعين من بعدهم ومن أدركناهم بقولون. الإيمان قول وعمل ونية، ولا يعزى واحد من الثلاثة إلا بالآخر»^(٦) وقال الأوزاعي «كان من مصنى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل»^(٧) وقال ابن عبد البر: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، وذكر منهم مالك، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، وابن عينة، والأوزاعي، ومغمر بن راشد، وإسحاق بن عمار، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي، وأبو جعفر الطبري، فإنهم ومن سلك مسلكهم يقولون الإيمان قول وعمل»^(٨) قول باللسان وهو الإقرار لله بالوحدانية، ونسبه ﷺ بالرسالة، واعتقاد بالقلب، بتصديق ما جاء به الرسول ﷺ، مع التسليم والقول، وعمل

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٦ - ١٧٠

(٢) مسند ترمذي حديث ٣٣٢٤ و٥٠ - حرر صحيح

(٣) البحاري حديث رقم ٢٤٧٥

(٤) الشريعة ص ١١٢

(٥) الشريعة ص ١١٨

(٦) مجموع الفتاوى ٣٠٨/٧

(٧) المنهاج ٢٣٨/٩ و٢٥٣، والاستبصار ١٣٤/٢٦

بالحوارج، نكل ما بطاع الله ﷻ من الفرائض والنوافل واجتناب النواهي وهذا هو تعريف الإيمان الواجب، الجامع لشعب الإيمان كلها الذي وعد الله تعالى أهله دخول الجنة دون عذاب، وهو معنى الإيمان عند الإطلاق فالتعمل لأمر من لوازم الإيمان المسيحي في الآخرة، لا يتحقق بدونه

ومن فرط في شيء من الفرائض مع إدعائه وإقراره بالتوحيد، لا يكون بمجرد ذلك كافرًا عند جماعة المسلمين، ولكن لا يكون مؤمنًا بالإيمان الذي أوجبه الله تعالى على المؤمنين، ووعدهم عليه الجنة دون عذاب

والدليل على أن العمل من الإيمان قول الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ بِمُصِغِرِ بِمَنَاسِكُمْ﴾ [البقرة ١٤٣]. فإن أهل التفسير لم يختلفوا في أن المراد بالإيمان الصلاة إلى بيت المقدس^(١)، فسمى القرآن الصلاة إيمانًا، وقال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالسَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْسَاءِ وَالْبَاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ سَدَقُوا وَاللَّهُ هُمْ أَلْفُوفٌ﴾ [البقرة ١٧٧]

فجعل الله ﷻ في الآية إتياء المال، وإقامة الصلاة، والوفاء بالوعد، والصر، كل ذلك من وصف الإيمان وقال ﷻ لوفد بني عبد القيس «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَخِدَّتُهُ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَهْلَمَ، قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَنَاسِكِ الْخُمْسِ»^(٢)

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْيَهُ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارُهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٣) وقال ﷺ «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا

(١) سميد ٩ ٢٤٥

(٢) سحري حديث رقم ٥٣، المشكاة ١٧١/١

(٣) سحري حديث رقم ٢٤٧٥

إِمَاعَةُ الْأَدَى عَنِ الطَّرِيقِ^(١)، وقال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٢) فجعل النبي ﷺ كفَّ الأذى عن المسممين من الإيمان، وقد قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَعَابُوا أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَمْرٍ إِذَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَعَابَيْتُمْ، أَفَتُسَوَّى السَّلَامُ بَيْنَكُمْ»^(٣) وقال لمن طلب منه قولاً في الإسلام لا يسأل عنه غيره: «قُلْ أَمِنْتُ بِاللَّهِ وَاسْتَقَمْتُ»^(٤)، فأمره بالتوحيد مع الاستقامة، والطاعات بأنواعها مدرجة تحت الاستقامة. وذكر ﷺ: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ جُزْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ، من ذلك الحث في الله والحرص في الله، وإكرام الضيف، والصلاة، والصيام، والركعة، واتناع الحذر، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وغير ذلك كثير، وكله ثابت في الصحيح عن النبي ﷺ في البخاري وغيره.

قال الأحرسي في كتاب (الشرعة) إن الله ﷻ ذكر في ستة وحسين موصفاً في كنهه أنه لم يدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده حتى ضُمَّ إليه العمل الصالح الذي قد وفقهم له، فصار الإيمان لا يتم لأحد حتى يكون مصداقاً بقله، وناطقاً بلسانه، وعدملاً بحوارجه، وهذا من القوان ردُّ عليٍّ من قال: الإيمان المعرفة، وعليٍّ من قال المعرفة والقول، وإن لم يعمل^(٥)

توجيه حديث البطاقة

وهذا لا يعارض مع ما ورد في صحيح الحديث من نصوص ظاهرها الاعتماد على كلمة التوحيد وحدها في دخول الجنة، من مثل حديث أبي در ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قَالَ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى»^(٦)

(١) مسلم حديث رقم ٣٥

(٢) البخاري حديث رقم ١٠

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ٢٦٨٨ و٥٧ - حس صحيح

(٤) مسلم حديث رقم ٣٨

(٥) الشرعة ص ١٢٢

(٦) البخاري حديث رقم ٧٤٨٧

ومثل حديث الطاقة وهو ما رواه عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَسْرُ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ وَتُسَمَّى سِجْلًا كُلُّ سِجْلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمْتُكَ كُتِبَنِي الْخَاطِطُونَ؟ يَقُولُ لَا يَا رَبِّ، يَقُولُ أَفَلَاكَ هَذَا؟ يَقُولُ لَا يَا رَبِّ، يَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَقُولُ احْضُرْ وَرَتِّكْ، يَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السُّجَّلَاتِ، فَقَالَ إِنَّكَ لَا تُظَلَمُ، قَالَ: «تَوَضَّعُ السُّجَّلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفِّهِ، فَطَاشَتِ السُّجَّلَاتُ وَتَقَلَّتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَنْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْئًا»

مثل هذه المصوص فحواها التوبة بما لتوحيد الله تعالى من منزلة عظيمة، وما لمحاتمة على الإيمان من مكانة رفيعة عند الله تعالى، ولا تفهم على أن من قصر فيما كلفه الله تعالى به من الطاعات، واحتجاب المحرمات، ولقى الله ﷻ بكلمة التوحيد مجرّدة من كل عمل صالح لا يعذبه الله

في هذا المقام يتناقص مع سب وحسين اية في كتاب الله، رتب كنهها دحوال الجنة على الإيمان لمقرون بالعمل الصالح، والله ﷻ يفعل ما يشاء ويختار، لا معقب لحكمه، فلو أدخل أحدنا الجنة دون أن يعذبه مع تقصيره على ما جاء في حديث الطاقة، لكان ذلك من سانخ فصله، وهو أهل العفو وأهل المعصرة، لكن من الذي بضمن لنفسه أن يكون ذلك السعيد؟ من ترك العمل واتكل وخاطر بنفسه على هذا السجو، لا شك أنه عامر بالمصير، وهل يعنيه حيث يتدبر إن حتى عليه العذاب أن يقول يا ويلنا على ما فرطت في جنب الله! قال تعالى ﴿عَلَى مَا قَرَأْتَ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الرمر ٥٦]

القائلون بأن الإيمان الإقرار دون العمل

حالف قوم فقلوا: الإيمان الإقرار والتصديق، وأما الطاعات فلا تستحق إيماناً، كما أن المعاصي لا تسمى كفرًا، واحتجوا بما يأتي

١- إن من مات من الصحابة قبل مرور الفرائض كان مؤمناً لا محالة، فدل على أن

(١) من الترمذي حديث رقم ٢٦٣٩

الطاعات ليست من حقيقة الإيمان وأجيب بأنها من حقيقة الإيمان، وأن تركها نقص، لكن لا لوم عليهم فيه؛ لأنه لم يكن منهم باختيار، فإن اليوم سوجه بعد التكليف، لا قبله^(١)

٢ أحصوا حديث عثمان بن مالك في قصة مالك بن الدحشم، وقد تعيب عن الصلاة مع رسول الله ﷺ، حيث وصفه من حصر بالنفاق، فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(٢)، وأجيب عنه بأن ذلك كان قبل نزول الفرائض

قال الرهري أدركنا الفقهاء وهم يرون أن ذلك كان قبل أن تنزل موحبات الفرائض، فإن لم يقد أوجب على أهل هذه الكلمة التي ذكرها رسول الله ﷺ، وذكر المحادة بها فرائض في كتابه، فمن محشئ أن يكون الأمر قد صار إليها، فمن استطاع أن لا يعير فلا يعير ومثله مروي عن سفيان بن عيينة وأبي عبيد في كتابه الإيمان له^(٣)

وقد تحوف عمر رضي الله عنه لما أعطاه الله تعالى من العظمة وحضور الدهر، عني الأمة من هذا التطبيق القاصر للإيمان جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي هريرة «اذْهَبْ بِتَعْلِيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وِدَاءِ هَذَا الْحَاظِ بِشَهِدٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُسْتَقِيمًا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرُهُ بِالْجَنَّةِ»، فكان أوَّل من لَقِيتُ عُمرُ، فقال ما هاتان التعللان يا أبا هريرة؟ فقلتُ هاتان تعللان رسول الله ﷺ بعثنى بهما من لَقِيتُ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَقِيمًا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، فصر عُمر يده بين يدي، فحررت لاسي، فقال دُحج يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بكاء، وركبني عُمر فبدأ هو على أترفي، فقال لي رسول الله ﷺ: «يَا عُمَرُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، أَبْنَيْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِتَعْلِيكَ مَنْ لَقِيَ بِشَهِدٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَقِيمًا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرُهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ فَلَا تَقْمَلْ، فَإِنِّي أَخْشَى

(١) فتح الباري ١/ ١١١

(٢) البخاري حديث رقم ٥٤٠١

(٣) التمهيد ٧/ ٢٤٠، وفتح الباري ١/ ١١١

أَنْ يَتَكَلَّ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلَّاهُمْ يَتَعَمَلُونَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «فَخَلَّاهُمْ»^(١)، فكان هذا من عمر ﷺ تذكيراً، لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بما جاء عنه ﷺ في حديث معاذ أنه قال «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَتَّبِعُوكَ، قَالَ: إِنْ أَتَى يَتَكَلَّمُوا»^(٢)

المعرفة وحدها دون إذهاع لا تكفي

لا يكفي في صحة الإيمان مجرد العلم والمعرفة بالقرآن وأركان الإسلام، والعلم بوجوب الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، وأن الله هو الرازق الحالق، وأن من دونه لا يملكون صراً ولا نقراً، إذا لم يصحب ذلك استسلام لله تعالى وحضور وإقرار واعتقاد، فبن فرعون وحشوده، واليهود، والمشركيين القدامى كانوا يعرفون الله كذلك، قال تعالى عن قوم فرعون ﴿وَمَعَهُدُوا بِهَا وَانْبَقِثَتْهُنَّ عَنْهُمْ طَمَسًا وَعُتً﴾ [السل ١٤]، وقال تعالى عن اليهود: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [الأنعام ٢٠]، فقد كان اليهود يعرفون أن النبي ﷺ مرسل من عند الله، ومع ذلك لم تمنعهم هذه المعرفة الحالية من السليم والقبول والإذعان. قال عبد الله بن سلام لقد عرفت محمداً ﷺ حين رأيته كما أعرف ابني، ومعرفتي لمحمد أشد^(٣) فمجرد المعرفة لا تغني شيئاً في باب الإيمان، فهي كمعرفة إبليس، ومعرفة فرعون وحشوده، كان إبليس يعرف ربه، وكان فرعون يعرف ربه كما قال له تعالى على لسان موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ نَصَائِرُ﴾ [الإسراء ١٠٢]، ولكن معرفتهما كانت مصحوبة بالعلوي والتكبر، وعدم الإذعان والقبول، فكانا من الهالكين

وقال تعالى في محاجة المشركين: ﴿قُلْ مَنْ يَرْفُقُكُمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَبِّحُوا اللَّهَ فَقَدْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس ٣١]، فلم يصيروا مؤمنين مع أنهم أجابوا صراحة بأن الرارق في السماء والأرض، والمالك للأمر الله

وهل يُستفاد منه أن من يتجه إلى غير الله بطلب شيء لا يملكه إلا الله، كتفريح

(١) مسلم حديث رقم ٣١

(٢) البخاري حديث رقم ١٢٨

(٣) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١٤٠/١

كُزُب، أو كُشِفَ صر، أو إعطاء ولد أو ورق، أو بتقرب إليه بعبادة لا تكون لغير الله، كبدن ودعاء لا يعنى عنه بعد ذلك أن يقول لا يكشف الصر إلا الله، ولا يعطي المحابب إلا الله، فقد كان المشركون يقولون ذلك، ولم يفهم قولهم المحابب لعدمهم واعتقادهم، قال تعالى في محاببتهم ﴿أَمْ يَحْسَبُ الْمُضْطَرِّدُ دَعَاً وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَخْفِضُكُمْ خُلُقَاةَ الْأَرْضِ﴾ [المل ٦٢]

ويحد في العصر الحاضر كثيراً من اليهود والنصارى تخصصوا لبحث في دين الإسلام، ودرسوا القرآن والحديث والعلوم الشرعية، وربما منهم من إذا ناقشته اعترف بصدق القرآن وصحة الحديث وصدق النبي ﷺ ولكنه يجعل ذلك في نطاق البحث العلمي المجرد، بمعنى أن البحث العلمي يثبت له صحة القرآن، وأنه وحي من عند الله، دون أن يقبل الباحث ذلك، ويسلم به، ويحضع له، فلم يخرج عن دائرة مجرد العلم بصحة الإسلام، وذلك لا يستلزم الإيمان به، والإدعاء إليه، ومن لم يدعى له بما يجب الإيمان به لا يكون مسلماً، ولا ينفعه مجرد العلم

حسن النية وحده لا يكفي

عبادة الله تعالى هي العاية من خلق العباد، كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥٦]، والتقيّد فيها بما شرعه الله منها على الصورة التي شرعها، ضرورة لارمة لصحتها وقبولها عند الله تعالى، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا يَوْمَ الْقِيَامِ فَلْيَسْعَ سَعِيًّا وَلَا يَرْجُ الْبَرْقَ بَصَادَةً يُرِيدُ أَجْزَافًا﴾ [الكهف ١١٠]، قال الفصيح من عباد الله العمل الصالح لا يقبل، حتى يكون أحلص العمل وأصونه، قيل له فما أحلص العمل؟ قال: أن يكون لله، قيل: فما أصونه؟ قال: أن يكون عن السنة، أي على وفق ما شرعه الله تعالى^(١)

وكان من دعاء عمر رضي الله عنه «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً»، وتحليص الأعمال مما يفسدها أشق من الاجتهاد في العبادة

فلا بد لقبول العمل من تصحيح صورة العمل، بحيث يكون مشروعاً، مع إحلاص الوجهة به إلى الله تعالى، فلا يكفي حسن النية وإحلاص القصد إذا لم يصب إليه

(١) إعلام المومنين ١٢٤/٢

حسن العمل فلو كان حسن النية وحده كافياً لما كانت هناك حاجة إلى إرسال الرسل، وإبراز الشرائع والكتب، حتى المشركون يرفعون أن عبادتهم لله حادثة، وأنهم ما يعبدون غير الله إلا ليقرّبوهم إلى الله زلمى

ولا يكفي في مشروعية العمل أن يكون صاحبه يريد به الخير، فقد قال عبد الله بن مسعود للذي قال له: ما أردنا إلا الخير «وكم من مُريدٍ نُحْيِرُ لَنْ يُصِيَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِرُ تَرَاقِيهِمْ»^(١)

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه «كُلُّ عَادَةٍ لَمْ يَتَعَدَّهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَا تَعُدُّوْهَا، بَيْنَ الْأَوَّلِ لَمْ يَدْعِ لِأَخْرَ مَقَالًا»^(٢)

ومن المُجمَع عليه بين أهل العلم أن العمل لا يكون مقبولاً إلا بشرطين موافقته للشرع، وإحلاص النية فيه لله وحده، فما كان على خلاف الشرع من الأعمال فهو باطل، مهما كان القلب به طيباً، والقصد إليه صالحاً، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ حَقَّقْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّعَمَّا وَلَا تُنْجِعُ أَخْوَاءَ الَّذِينَ لَا يُصَلُّونَ﴾ [الحاثية ١٨]، ﴿قُلْ هَلْ يُنْفِكُ بِالْأَخْسَرِ أَعْمَلًا﴾ [الأنبياء ٢٤] الَّذِينَ هَدَىٰ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ غَشَوْنَ أَنفُسَهُمْ يُجْهِسُونَ ضُمًّا﴾ [الكهف ١٠٣، ١٠٤]، وقال ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ زِدٌّ»^(٣)

وما كان من الأعمال مقصود به غير الله، متوجّه به إلى من سواه، رياءً وظهوراً، فهو باطل مردود، ولو كان على وفق المشروع، لقول النبي ﷺ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَىٰ»^(٤)

قول الإنسان أنا مؤمن - إن شاء الله -

إذا قال الإنسان أنا مؤمن إن شاء الله، في جواب من سأله هل أنت مؤمن؟ فلا صرد في ذلك، وكان السلف الصالح يكرهون مثل هذا السؤال، فكان طائوس إذا سُئِلَ يقول: أصب بالله وكنته ورسله، وكان سفيان بن عيينة إذا سُئِلَ هذا السؤال

(١) مسند بدير ٢٠٤ وانظر الاعتصام ١/ ١٨١

(٢) حدود وندع ٢٩٧

(٣) مسند حديث رقم ١٧١٨

(٤) المعاري حديث رقم ١

لا يجيب، ويقول للسائل: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني، وقد الأوراعي للسائل: «إن المسألة عن ذلك بدعة، والشهادة عليه تعمق لم تُكَلِّفه في ديننا، ولم بشره بيب، لقول فيه حدل والمارة فيه حدث»^(١)

وتعيق الإيمان على المشيئة لا بصر، ولا يقدح في الحرم بالإيمان، إذا كانت المشيئة متجهة إلى واحد من الأمور الآتية

١ اتجه لشيئة إلى الخاتمة على الإيمان، لا للإيمان نفسه، فإن الإنسان لا يستطيع أن يجره بما يكون عليه حاله عند الخاتمة، وبذلك يكون قوله: إن شاء الله في محله

٢ اتجه لشيئة إلى العمل الذي هو فعل الطاعات وترك المحرمات، فإن الإيمان لا يتم إلا بالعمل، والإنسان لا يستطيع أن يجزم بأنه أكمل العمل الذي يطلبه الإيمان، فهو شاك في ذلك، ولو قال: أنا مؤمن قطعاً، دون تعيين على المشيئة في هذه الحالة، فكأنه قال: أنا في غاية الطاعة التي يطلها الإيمان الكامل، وهذا من تركية النص المهي عنها، قال ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَحْسَنَكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي»^(٢)، هكذا جاء الحديث في بعض الروايات على غير صيغة الحرم تواضع منه ﷺ، وجاء في بعضها بلفظ: «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْسَنُكُمْ لِلَّهِ وَأَتَّقَاكُمْ لَهُ»^(٣)، على الجزم ورسول الله ﷺ أهل لذلك.

٣ اتجه المشيئة إلى رجاء قبول الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَيْنَ مَوْثِقَ مَا تَرَىٰ وَقُلُوبُهُمْ رِجْلَهُ نَسَمَ إِلَىٰ رِيَّةٍ رَجْعُونَ﴾ [المؤمنون ٦٠]

مرتكب المعصية ليس كافراً

ارتكب المعاصي لا يُسلب المؤمن إيمانه، ولو كانت المعاصي من الكاثر، ما دام فعل المعصية يعتقد أنها معصية، فإن استحلها واعتقد أنها حلال وغير حكم الله، حرج عن الإيمان فالرأي واكل الربا لا يرتد عن الإسلام إذا ربي أو أكل الربا، وهو يعتقد حرمة ما ذكر، فإن فعل شيئاً من ذلك معتقداً أنه حلال، راداً على الله حكمه في

(١) سير أعلام النبلاء ٥٣٩/٨

(٢) مسند حديث رقم ١١١٠، والشرعة للأجري ص ١٣٨، ومجموع الفتاوى ٤٤٩/٧

(٣) المحاري حديث رقم ٥٠٦٣

الحريم، كان مرتدًا جاء في الصحيح عن أبي در رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «أُنْثَانِي جَبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُفْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟» قَالَ «وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى»^(١)

قال النووي في شرح صحيح مسلم «... ما عليه أهل الحق من السب واللعن، أن من مات مؤخرًا دخل الجنة قطعًا على كل حال، وإن كان سارقًا من المعاصي كالصغير والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ، والثائب توبة صحيحة من الشرك، أو غيره من المعاصي، إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفق الذي لم يُنْتَلِ بمعصية أصلًا، فكل هؤلاء يدخلون الجنة، ولا يدخلون النار أصلًا، لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورد، والصحيح أن المراد به المرور على الصراط وأما من كات له معصية كبيرة ومات من غير توبة، فهو في مشيئة الله تعالى، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أو لا، كالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذي يريد ﷻ، ثم يدخله الجنة، فلا يدخل في النار أحد مات على التوحيد، ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر، ولو عمل من أعمال البر ما عمل»^(٢)

وما ورد من المصوص في القرآن والسنة الدالة بظاهرها على الحكم على صاحب المعصية بالكفر، فمؤول عند جمهور العلماء على غير ظاهره، من ذلك قول الله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة ٤٤]، وقوله ﷻ «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَغْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٣)، وقوله ﷻ «سَيَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(٤)، وقوله «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(٥)

(١) سنن أبي داود رقم ٧٤٨٧

(٢) النووي على مسلم ٢١٧

(٣) مسلم حديث رقم ٥٧

(٤) مسلم حديث رقم ٦٤

(٥) مسلم حديث رقم ٦٥

وقوله ﷺ «اثنان في الناس هما بهم كفر. الظن في السب، والبإحاة على الميت»^(١)، وقوله ﷺ «أيما عبد أبى من مواله فقد كفر حتى يرجع إليهم»^(٢)، وقوله ﷺ «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى قوماً ليس له بهم فليتبوا مقعده من النار»^(٣)، وقوله ﷺ «أيما امرئ قال لأخيه يا كافراً، فقد بآء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»^(٤)

فقد روي عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه في حديث «يباب المسلم قُوفُ وقتلته كُفْرًا»، أنه قال ليس بالكفر الذي يقبل عن العلة، ثم تلا قول الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ أَهْلَ بَيْتِ آلِ أَبِي لَهَبٍ يَكُنْ مِثْلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٤٤]

وأظهر الأقوال في تأويل هذه النصوص لشتى مع باقي نصوص الشريعة، التي تقضى بعدم تكفير صاحب المعصية القول بأن من رنى، أو قتل، أو حكم بغير ما أمر الله، أو ادعى إلى غير أبيه، أو أبى من مواله، أو طعن في السب، أو رمى غيره بالكفر فقد فعل فعل الكفار، تعليظاً وتشديداً عليه، وتنفيراً من فعله، ولا يكون أحد كافراً بمجرد ذلك، إلا إذا استحلّه وأباحه لنفسه، وكذلك من حكم بغير ما أنزل الله يكون كافراً، إن استحل ذلك، أو لم يستحل، ولكن اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله وأصلح للعباد، فأما من حكم بغير ما أمر الله، وهو يعتقد أنه يرتكب حراماً، ويمعل معصية، وأن حكم غير الله ليس مثل حكم الله في إحقاق الحق، وتحقيق العدل، وإصلاح العباد، فهو فاسق، وأمره إلى الله، إن شاء عدله وإن شاء عفا عنه، كما ذكر ذلك القرطبي في التفسير^(٥)

سلب الإيمان

تبين مما تقدم في حقيقة الإيمان والإسلام، أن الداحل إلى الإسلام لا يحتاج إلى أكثر من الاعتراف بالشهادتين بلسانه، وتصديق ذلك بقلبه، ولا يحتاج إلى معرفة

(١) مسلم حديث رقم ٩٣٤

(٢) مسلم حديث رقم ٦٨

(٣) سنن أبي داود حديث رقم ٣٥٠٨

(٤) مسلم حديث رقم ٦٠

(٥) بصر حقهيم ١ ٢٥٣ والجامع لأحكام الفراء ١٨٠/٦

البراهين والدلائل والحجج على قضايا العقيدة فالدخول في الإسلام أمر سهل يسير
لن شرح لله تعالى صدره إليه، ولكن قد يسلب الإنسان إيمانه ويُعدّ مرتدًا في
عدد الكافرين مع إقراره بالشهادتين، وذلك إذا صدر منه فعل أو قول ناقص مضمون
الشهادتين، أو يثبت على عدم رضاء بالإسلام، بعد إقامة الحجة عليه، ولذا طُنق
بالشهادتين لا يكون مؤمنًا إلا إذا لم يصدر عنه ما يعارضهما

ولا يكفر المسلم إلا بنكار أمر مجمع عليه في الشريعة، معنوم شوته من الدين
بالضرورة، يعلمه الخاص والعام، والصغير والكبير

أمثلة لما يسلب الإيمان

الأمور التي تسلب الإيمان كثيرة، منها إنكار صفة من الصفات الواجبة لله تعالى ،
كالحق ولقدم والرحمة إلخ، وكأن يسند الإنسان إيجاد العالم إلى الطبيعة
أو إلى المصادفة، أو يقول الله تعالى غير رحيم، أو غير عليم، أو أنه لا نعم
الجزئيات وتفصيلات الأمور

ويسبب الإيمان كذلك إثبات صفة له تعالى لا تليق بكماله، كمن يصفه
تعالى بالظلم أو الاستبداد، أو بمشابهة الحوادث في علمه أو قدرته، أو في صفة
من الصفات الأخرى، كوصفه بالعجز وعدم القدرة على الثورة، تصريحًا أو صمتًا،
كمن يقول لخصمه (حلّ ريك ينفكك، أو يسمعك مني)، أو: (لو كان ريك هـ
لأصده ما أصابك)، أو يسبب لفظ الجلالة ويشتمه، تعالى الله عن ذلك

ويسبب الإيمان إنكار القرآن أو شيء منه، ولو كلمة واحدة اتفق المسلمون على
أنها من القرآن، أو تحقيره وعدم احترامه، أو إلقاء شيء مكتوب منه في مكان يُسهى،
كوطئه بالأقدام، أو في محل الأوساخ والنجاسات

ويسبب الإيمان الطعن في رسول الله محمد ﷺ، أو في نبي آخر من أنبياء الله
جميعًا، صلبوات الله وسلامه عليهم ، كالشخيرة والاستهزاء بواحد منهم أو تكديسه،
أو عدم الإدعاء بالتسليم لما حكم به، وثبت عنه، قال تعالى ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا
يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُعْزِمُوكَ بِمَا شَهِرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَفْسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَصَيْتَ
وَيُسَيِّمُوا سُبُحًا﴾ [النساء ٦٥]، أو يسببه إلى الظلم أو الجهل تصريحًا أو تعريضًا، كمن

يسمع الحديث عن النبي ﷺ فيقول هذا الكلام ظلم حتى لو كان من قول السي ﷺ،
أو هذا كلام جاهل إلح

ويسلب الإيمان الطعن في الشريعة الإسلامية، أو الاستحفاف شيء مسوب إليها، أو رد حكم من أحكامها التي أجمعت عليها الأمة، وعدم بالنسبة أنها من دين الله تعالى، كإنكار الصلاة، أو أنها ليست على الكيفية المعهودة بين المسلمين، كمن يجعل الصلاة كلها ركعتين ركعتين، أو أنه لا بشرط أن تكون بالكيفية الخاصة، بل تكفي الصلاة ولو من غير ركوع أو سجود، أو لا تشترط إقامة الصوت الخمس، بل يكفي منها ما تيسر ولو ركعتين في اليوم، أو أنها تصح من غير وضوء، أو يكر الصوم أو الحج، أو فرضية الركاة أو العسل من الجدة، أو تحريم الرب، أو تحريم الحمر والربا، أو يكر حلية البيع والشراء، إلى غير ذلك من كل حكم معلوم بالنسبة أنه من دين الله تعالى، يعرفه الكبير والصغير والعالم والجاهل، إلا أن يعتبر منكر ذلك بجهل، كأن يكون حديث عهد بالإسلام لا يعرف أحكامه وحدوده، فلا يعد إنكاره كفرًا^(١)

شروط تكفير المعين

لا يحكم على إنسان بعينه بالكفر إذا بدا منه ما يستوجب الكفر إلا بعد تحقق الشروط الآتية

١ - القصد إلى القول أو الفعل المكفر، فإن كان القائل ناسيًا، أو محطًا أو عاقلًا سبق لسان، فهو معذور، قال تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ مِمَّا أَعْطَاكُمْ بِهِ﴾ [الأحراب ٥]، وقال ﷺ «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ»^(٢)، وفي حديث مروح الرب تنويع العدد «لَلَّه أَشَدُّ قَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ جِيَن يُتَوَّبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلِهِ بِأَرْضٍ قَلَاةٍ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا ظَنَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَأَضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلِهِ، فَيَسَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةٌ حِنَّةً، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ

(١) نظر شرح سوي على سنة ٢٠٥١هـ والروايج ٢٩/١، ٣٠

(٢) سنن مسند حديث رقم ٢٠٤٣

عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»^(١)، يقول العبد ذلك حين يعمره الفرح براحمته بعد أن ينس منها

٢ عدم الإكراه لقول الله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَسَمُ الْمُطْمَئِنِّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [التحل ١٠٦]

٣ كون المتكلم عالمًا بمقتضى كلامه ولوازمه، غير معذور بالجهل، فهو لم يكن عالمًا بذلك لا يحكم عليه بالكفر، كما هو الحال في تلفظ العامة بالتلفظ شركية، كهو يهودي أو نصراني، أو خارج من دين الإسلام إن فعل كذا وبمعنه، وكذلك غير الله والمسالمة في الحوف من ذلك أكثر من الخوف من التحلف بالله العظيم وبدل عليه قول الله تعالى حكاية عن قوم موسى لموسى عليه السلام ﴿أَحْصَلْتَ إِلَهُهَا كَمَا لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَجْهُوُونَ﴾ [الأعراف ١٣٨]

ومنه قول النبي ﷺ لأصحابه عندما طلبوا منه أن يجعل لهم ذات أوطأ، كما كان أهل الجاهلية لهم ذات أوطأ، فقال ﷺ «مُبَحَّانَ اللَّهُ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ ثَنَةً مِنْ كَأَن قَبْلَكُمْ»^(٢)

فمن يحررهم قولهم عن العلة، وعذرهم النبي ﷺ لأنهم كانوا جاهلين، غير عالمين بمقتضى كلامهم ولوازمه، وكذلك كان أهل الجاهلية يحسمون بأدنانهم ويحسمون باللات والعزى، وحرى ذلك على ألسنة بعضهم بعد الإسلام، فيها هم النبي ﷺ عنه، وقد «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣)، ولم يكفرهم

فمن أكر شيئًا من دين الإسلام مدعيًا الجهل به، لا يسارع إلى تكفيره، حتى يبين له ذلك ويعرف به، وترون عنه الشهادة، فإن تعادى بعد ذلك على إكباره، حكم بكفره^(٤)

(١) مسلم حديث رقم ٢٧٤٧

(٢) الترمذي حديث رقم ٢١٨٠ وقال حسن صحيح

(٣) البخاري حديث رقم ٤٨٦٠

(٤) انظر المصنف ١٣٢/٨

17

وفي الصحيح قال ﷺ «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(١)، ولا يُدفع في مقدر المسمين، ولا تورث يمينه وبين قرائته المسلمين، كذلك لا يرثه قرائته من الكفار، وماله فيء لبيت المقدس، لأنه برده صار كالحربي، دمه وماله حلال^(٢)

والردة تحبط الأعمال، وصاحبها كافر، يُخلد في النار، قال تعالى ﴿يَنْ أَسْرَكَتَ لِيَحْطَرَّ عَنْكَ﴾ [الزمر ٦٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء ٤٨]، وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَسَبَّحْتَ وَهُوَ كَايُومٌ فَذُلَّتْ حِيلَتُكَ أَغْنَتْ عَنْكَ آلُوتُكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الدَّارِ هُمْ فِيهَا مُخَلَّدُونَ﴾ [النقرة ٢١٧]

العذر بالجهل

يرى القرافي أن الجاهل يُعذر بجهله في الفروع والأحكام العممية، ولا يعذر بجهله في الاعتقاد والمسائل العلمية^(٣)

وما قاله القرافي من عدم العذر في الاعتقاد والمسائل العممية غير مستقيم على إطلاقه عند العلماء، لأنه من التكليف بما لا يطاق، ومن التكليف بالحرص الذي رفعه الله عن هذه الأمة، ويدل على رده ما جاء في الصحيحين في الرجل الذي قال لبيه «إِذَا أُنْمِتَ فَأَحْرِقُونِي»، ثم استحقى ثم أُرْوِيَ في الرِّيح في الشجر، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذاباً ما عذب به أحداً، قال ففعلوا ذلك به، فقال بِلأَرْضٍ أَذْيَ مَا أَحْبَبْتُ، فإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ مَا حَمَلَكَ عَلَيَّ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ خَشِيتُكَ رُبَّمَا، أَوْ قَدْ حَدَّثْتُكَ، فَعَمِرَ لَهُ بِذَلِكَ^(٤)

والرجل شئت في قدرة الله، واعتقد أن الله تعالى لا يقدر على إعادته إذا دُرِيَ، وشئت في المعاد، وهذا كفر لا شك فيه، لكنه كان جاهلاً باعتقاده المصحوب بالخوف من الله، فعذر له

وقد قالت الجارية بين يدي رسول الله ﷺ «وَقِينَا نَبِيَّيْ بِغَلْمٍ مَا فِي عَدِي فَقَالَ

(١) صحري مع فتح ساري حديث رقم ٣٠١٧

(٢) بطر شرح كسر ٥٠٥

(٣) بروق ٢/ ١٥٠

(٤) صحري حديث رقم ٣٢١٩ ومسلم حديث رقم ٤٩٥٠، والمفرد لعمد

النَّبِيِّ ﷺ لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتَ تَقُولِينَ^(١)، فنهاها عن قولها وعتمها، ولم يكفرها، وعذرها بالجهل وذكر رجل للمسي ﷺ ما اعتاده الناس من قولهم ما شاء الله وشاء محمد، فما كفره بل عذره بالجهل، وعلمه أن يقول ما شاء الله ثم ما شاء محمد^(٢)

وفي الصحيح «أَنَّ رَجُلًا أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاوِيَةً خَمِيرًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟ قَالَ لَا، فَسَارَّ إِنْشَاكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَ سَارَرْتَهُ؟ فَقَالَ أَمَرْتُهُ بِبَيْعِهَا، فَقَالَ إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا، قَالَ فَصَحَّ الْمَرَادُ حَتَّى دَهَبَ مَا فِيهَا»^(٣)

قال ابن عبد البر في الحديث دليل على أن الإثم مرفوع عما لم يعلم، ومن أمكنه العلم ولم يتعلم أثم^(٤)

وقال يونس بن عبد الأعلى سمعت الشافعي يقول «لله تعالى أسماء وصعد لا يسع أحدا قامت عليه الحجة رثها، فإن حالف بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعدوم بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالروية والمكر»^(٥) وفي مجموع الفتاوى «فمن شرط الإيمان وجود العلم بالسم، ولهذا كان الصواب أن الجهل بعصر أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافرا، إذا كان موقفا بما جاء به الرسول ﷺ»^(٦) وفي موضع آخر يقول عمر أنكر عدم الله بكل شيء، وقدرته على كل شيء «إن هذا القول كفر، ولكن تكفير قائله لا يحكم به حتى يكون قائله قد بلغه من العلم ما تقوم عليه به الحجة التي يكفر تاركها» ثم يقول «على ذلك اتفاق سلف الأمة وأئمتها ومشايخها»^(٧) ويقول «وإني أقرر أن الله قد عفر لهذه الأمة خطأها وذلك بعدم الخطأ في المسائل الحسرية القولية، والمسائل

(١) البخاري حديث رقم ٢٧٠٠

(٢) سنن أبي داود حديث رقم ٢١١٨

(٣) مسلم حديث رقم ١٥٧٩

(٤) التمهيد ١٥٤/٤

(٥) مختصر الفتاوى للذهبي ص ١٧٧

(٦) مجموع الفتاوى ٥٣٨/٧

(٧) مجموع الفتاوى ٤١٣/١١

العملية»^(١)، وذكر الذهبي قول ابن حزيمة: «من لم يقر بأن الله على عرشه قد استوى فوق سبع سموات، فهو كافر حلال الدم، وكان ماله فينا» ثم علق عليه بقوله «من أقر بذلك تصديقاً لكتاب الله، ولأحاديث رسول الله ﷺ، ومن به مقوّص معناه إلى الله ورسوله، ولم يخص في التأويل، ولا علق فهو المسلم المتع، ومن أنكر ذلك، فم يدر بثبوت ذلك في الكتاب والسنة فهو مقصر، إذ لم يوجب الله على كل مسلم حفظ ما ورد في ذلك، ومن أنكر ذلك بعد العلم وفقاً غير سبيل السلف الصالح، وتمقل على النص، فأمره إلى الله، ويعود بالله من الضلال والهوى» ثم قال «وقد تأول من حريمة حديث الصورة، فليقدر من تأول بعض الصفات»^(٢)

مصير المؤمنين ومصير الكافرين

قال تعالى ﴿مَنْ حَيٍّ ۖ وَكَانَ لِقَاؤُهُ رَبَّهُ ۖ وَإِنْ لَتَبْلُغَنَّ فِي السَّوَاءِ ۖ وَأَنْ مَّنْ حَيٍّ مَقَامُهُ رَبَّهُ ۖ وَتَبْلُغَنَّ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النار: ٣٧-٤٠]، وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقد أجمع المفسرون على دخول المشركين النار وعلى حلولهم فيها، لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون فقد حكى الله عنهم أنهم يقولون ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، ويرد الله عليهم بقوله ﷻ ﴿قَالَ لَعَنُوا فِيهَا وَلَا يُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقال تعالى ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ كَفَرُوا﴾

(١) مجموع بخاري ٣/ ٢٣٩

(٢) وهو ما حرجه بخاري وغيره (حين الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً) وخرج مسلم من حديث أبي هريرة (د فأتى أحدكم أخاه فسلمت الوجه فإن الله خلق آدم على صورته)، رقم ٢٦١٢، قال في حريمة بعد أن أورد لأحاديث توهم بعض من لم يقر بالله أو فوله (على صورته يريد صورة الرحمن، غير ربنا وحل على أن يكون هذا معنى النحر. بل معنى فوله خلق آدم على صورته، لهذا في هذا الموضع كتابه عن سمعته وسموه أراد ﷻ أن الله خلق آدم على صورة هذا المصروب الذي أمر صارت بحسب وجهه فإن الحافظ في الصحيح «واختلف إلى ما يعود نصيبه»، فصل إلى آدم أي خلقه على صورته أي سمته، إلى أن أخط وإلى أن مات. وفي نصيبه وتمثل فأتى ذلك ما ورد في بعض حروفه (على صورة النحر) والفراد بالصورة الصفة، والنص إلى أنه خلقه على صفة من لعمري وجاهد وشمع وصبر وغير ذلك، وإذ كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء، فطرحنا في شرح حديث رقم ٦٢٢٧، وسير أعلام النبلاء مع حاشية المحقق ١٤/ ٣٧٥

لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا تَقْصِرُ عَلَيْهِمْ فَيَسْوُوْنَ وَلَا تَجْمَعُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ صَافٍ ﴿٣٦﴾ [فاطر ٣٦]، ﴿فَالَّذِينَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُنْقَصُونَ﴾ [الحاقة ٣٥]

وهذا عام في كل كافر، لا فرق بين اليهودي والنصراني، والنوشي والمذابي في العقيدة الربديين والمجوسى والملحد والشيوعى والهندوسى، ولا فرق بين الكافر عداً وغيروه، ولا بين الكافر أصلاً، والمرتد عن الإسلام، بأن حكم بكفره بعد اعتناقه الإسلام، لارتكابه ما يوجب الردة والإشراك بالله تعالى، فإن مصير جميع الكفار واحد، والكفر كله ملة واحدة، لكن بعض عذاب جهنم أشد من بعض، وأكثر هواناً ونكلاً، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نُصَيْرًا﴾ [النساء ١٤٥]، وقال ﷺ في عمه أبى طالب «لَعَنَهُ تَعْنَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَيُجْعَلُ فِي صَخَصَاحٍ مِنْ نَارٍ يَنْلُغُ كَعْنِهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاعُهُ»^(١)

وأجمع المسلمون كذلك على أن مصير المؤمنين الذين حسم الله لهم بالوحدانية الجنة، وأنهم حالدون فيها لا يُخرجون منها ولا يموتون قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ حَادَّ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَسَىٰ نَفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْفِتْنَةَ هِيَ الْهَوَىٰ﴾ [التارعات ٤٠]، وقال ﷺ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ بِمُتَحَرِّجِينَ﴾ [الحجر ٤٨]، وقال ﷺ في الحديث الذي فيه دبح الموت «فَيَنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»^(٢)

لكن إن كان من مات على التوحيد لم يمت مُصرّاً على كبيرة من الذنوب دخل الجنة أولاً، عند دخول المؤمنين الذين كمل إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وإن مات على كبيرة لم يقبل الله تعالى توبته منها، فهو تحت المشيئة، فإن عفا الله ﷻ عنه دخل الجنة أولاً مع المطيعين، وإلا عُذِّبَ على قدر ذنبه، ثم أُحْرَجَ من النار، وحُدِّدَ في الجنة^(٣)

ويذكر على أن أهل الكافر من الموحدين يدخلون الجنة وإن جرب لهم قبل ذلك

(١) مسلم حديث رقم ٢١٠

(٢) البخاري حديث رقم ٤٧٣٠

(٣) شرح الترمذي على مسلم ٩٢/١

أبواب من العذاب والمحر ما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة، قال
«أتاني جبريل عليه السلام، فقال مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ، لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، دَخَلَ الْحَقَّةَ،
قُلْتُ وَلَئِنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ نَعَمْ»^(١)

(١) البحاري حديث رقم ٣٣٨٨، العبد المجهل مجموع الفتاوى ٤٠٧/١١

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

وجود الله

وجود الشيء لا يتوقف على إدراكه:

وجود الأشياء لا يتوقف على إدراك العقل إياها وتصورها، هذه قضية لوضوحها لم تعد محل خلاف بين الناس فالروح والعمل موجودان في الإنسان، ولكن العقل لا يعرف عنهما شيئاً فلو سألت انعاماً أين عقلك؟ أو أين روحك؟ ما قدر أن يجيب، ولو قيل لأحر قل مائة سنة إنه لو وضعنا ورقة مكتوبة في آلة صغيرة، وصعطت على أرضها، فإن صورة طبق الأصل لتلك الكتابة تخرج في التو والحين مكتوبة في متناول من أرسلت إليه في اليابان أو في غيرها من أقطار الدنيا، لو أحر الإنسان بذلك كل مائة سنة، وعرض ذلك الحبر على عقله، لأحب العقل بأن ذلك مستحيل، ولا يمكن حصوله فعقل الإنسان محدود بقانون الزمان والمكان، فإذا خرج عن هذا القانون خبط في أحكامه وضل

وأمر لعب كلها خارجة عن هذا القانون، وخارجة عن موازين الحواس وقياساتها فإن الفكر في الشيء مسوق بتصوره، وتصور ما في الشيء على وجه صحيح غير ممكن، والواحد على المسلم إذا وردت على نفسه حوطة عن أمر من أمور لعب كذات الشاري ﷺ وصعته، أو عن أمر آخر لم يرد في الوحي ما يوضحه، فيدفع هذه الحوطة بما علم النبي ﷺ به أصحابه، فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسأوه: إنا نجد في أنفسنا نغاضم أحداً أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟، قالوا: نعم، قال: ذلك ضريح الإيمان^(١)، وعنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا

(١) مسلم حديث رقم ١٣٢

خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ»^(١) وفي رواية «إذا وجدت شيئًا من ذلك، فقل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»^(٢)

ومعنى «إِنَّا نَعِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ» أي نجد الشيء القبيح، نحو من خلق الله؟ وكيف هو؟ ومن أي شيء هو؟ ونحو ذلك مما يعظم على النفس الطائر به، فما حكم حريان ذلك على حواظربا؟ ومعنى «ذاك صريح الإيمان» أن تحرركم من ذلك وردكم لما يلقى الشيطان في نموسكم وكراهيتكم لذلك هو صريح الإيمان

وفي المثل الذي صرحه الله ﷻ لنفسه في قوله تعالى ﴿لَهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البور ٣٥]، لُقِّبَ إعجاري للعقول بأنه سبحانه لا تُدرَك، ولا يراه أحد بعينه في الدنيا بقطعة، فقد أعطى العلم الحديث بُعدًا جديدًا لمُدلول الآلة الكريمة، فالعلم بقوى إن البور لا يرى في ذاته، وإنما يرى بواسطة الأشياء إذا انعكس عليها، أو تحسنت، كأن يعكس على حائط، أو يتخلله عار أو ماء

لذا فإن الإنسان كلما صعد في الفضاء، واتعد عن الأجرام والمواد، وانعدم ما يحل الهواء من الأحسام، أظنق عليه الظلمة، مع أنه سياتي يكون أقرب إلى الشمس مصدر البور

بعد معرفة هذه الحقيقة كان الواجب أن يزداد العقل إيمانًا بالله واسيقاد قدرته، وتسييمًا بأمر العيب الذي جاء به الوحي من عنده، فكما أن البور الذي صرح الله به المثل لنفسه سبحانه لا يرى في ذاته، وإنما فيما يعكس عليه، فكذلك الأمر إليه سبحانه ، لا يرى في الدنيا في ذاته بقطعة، وإنما في عجائب مصوغاته

الدليل على وجود الله -تعالى-

يدل على وجود الله تعالى القطرة السليمة، والعقل الصحيح، وفيما سي بين ذلك

(١) مسلم حديث رقم ١٣٤

(٢) مسلم ١١٩/١

١ نداء الفطرة

الإيمان بوجود الله تعالى أمر فطري لا يحتاج من الإنسان إلى جهد وعناء لكي يشته ، لأنه يشعر به في إحساسه ، ويرتكر في فطرته ، يستوي في ذلك العالم والجاهل ، والمؤمن والكافر إلا أن الإحساس الفطري قد يحججه الضرور بسبب ما أوتيّه الإنسان من غم أو حزن ، أو سلطان ، أو مال ، أو نعمة بين يديه ، أو تحججه العصبية أو الأدبية والكبرياء ، أو تصلّله الشهوات والأهواء ، أو تقليد الآباء والأجداد ، فيحُث نداء الفطرة في النفس وسط إقبال الدنيا وقتتها ، بما فيها من حزن ومال وسخط ومذنب ، أو بسبب غمى القلب باتباع الأهواء ، ويرتفع في النفس وسط هذه الفتن والانتلاءات صوت العناد والإلحاد والاعتراض ، فإذا ما أحسّ الإنسان فجأة بروال ذلك كله وعابى الخطر ، استيقظ فيه الفطرة الإيمانية ، وانقشع ما ران عليها من عوامل الزيف والتضليل ، فيجد نفسه دون إرادة منه ينادي ربه ويدعأ إليه ، ويطلب النعمة مستغيثاً به ، وليس ذلك إلا فطرة الإيمان بالله تعالى المعرورة فيه وهذا ما أحبر به القرآن عن حال الملحدين وعلى رأسهم فرعون ، فقد تمادى فرعون العناد حتى قال كما أحبر عنه الناري ﷻ ﴿وَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلَيْتُمْ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الفصل ٢٨] ، وعندما أطبق عليه البحر وتيقّر الهلاك ، رجع إلى النداء الأول الذي استقر في نفسه ، مقتضى فطرته ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَقَهُ الْعُرْقُ قَالَ مَا مَتَّ عَمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنِي مَا مَتَّ بِهِ، نَوَّأ يَشْرِيكَ وَلَا مِنْ الْمُتَّبِعِينَ﴾ [يونس ٩٠]

فمن أن فرعون يعتقد أنه كان على حق في إلحاده ، ما تنصل منه وقت أن تيقّر الهلاك ، فيه أحوح ما يكون إليه في ذلك الوقت أن لو كان حقاً ، ولكنه كان يعرف أنه ريف وبهتان ، ولذلك رجع إلى نداء الفطرة ، وهو الاستغاثة بالله الواجب الوجود

وقد أحبر الله تعالى في أكثر من موضع أن الناس إذا متهم النضر دعوا إليه محبسين له الدين ، قال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صُرَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُمَا ضُكُّ إِلَىٰ تَبَرَّ أَهْمَهُمْ﴾ [يونس ٩٠] ، وقال تعالى ﴿وَيَا عِيسَىٰ مَوْجَّ كَالطُّبِّ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا عَنْهُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ فَيَنْتَهُمْ مُقْتَصِدًا وَمَا يَحْتَدُّ بِطَائِفَةٍ إِلَّا كُلُّ حَسَّارٍ كُفُّورٍ﴾ [لقمان ٣٢] فالمصطر يرجع إلى فطرته ينادي ربه ، والعدل الطر بسنن ربه وقت النعمة ، ويعرض عنه ، ولذلك فإن كلمة (يا رب) نجدتها تتردد عند الشدة والحيرة على شفاة الناس جميعاً ، المؤمن وغير المؤمن

والاعتراف بحلول الكون مُسلم به حتى عند المشركين ، فقد أحضر الله تعالى عن الكافرين بقوله ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَنَحَرَ الشَّجَرِ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان ٢٥] ، فهُم في قرارة أنفسهم يعرفون الخالق ، لأن فطرته تدلهم عليه ، إذ إن العاقل يستند بطبيعته السليم بالصحة على وجود الصانع ، وبالحكمة على وجود الحكيم ، وبأثر العلم على وجود العليم . وهذا الإحساس الفطري المعرور في الطبع في الاعتراف بوجود الخالق ، هو الذي تكلم به الأعرابي على سجيته في أسدود عفوي عندما قال : العبرة تدل على السعير والأثر يدل على المسير

٢ نداء العقل

علاوة على نداء الفطرة الذي يجده كل إنسان في نفسه يدعو إلى الإيمان بوجود الله تعالى ، هناك وسائل منحها الله تعالى للناس ليعرفوه بها ، فأعطاهم العقل والسمع والبصر ، وأمرهم بالاستدلال والظن ، والأخذ بأسباب العلم ، ثم أوحى لهم الدلائل ، لو نظروا فيها ، واستعملوا عقولهم ، دلتهم على وجود الله تعالى والاعتراف به ، قال تعالى ﴿وَتُزَيِّنُكُمْ لِكَلِمَةٍ أَكَلِمَةٍ فَاتَىٰ ءَايَتِ اللَّهِ يُكْرِوْنَهَا﴾ [عامر ٨١] ، وقال تعالى : ﴿سُبْحَنَهُ ءَايَتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت ٣٥]

وليس أقوى في التدليل على وجود الخالق ﷻ من الدليل العقلي ، فالمقدمات العقلية الصحيحة عُرفت صحة الإيمان ، وحقيقة التوحيد ؛ لأن العقل يستحيل وجود أثر من غير مؤثر ، ووجود مسبب من غير سبب ، فإنه من مسلمات العقول بدهة أنه لا توجد صفة من غير صانع ، ولا علم من غير عالم ، ولا حكمة من غير حكيم ، ولا قدرة من غير قادر . وقد أكد القرآن صحة المقدمات العقلية هذه ، حين طلب الاستدلال بالأمم السالفة ، ومن ساروا في الأرض وأثارهم ، وبالدليل العقلي عرف الإنسان المعجزة ، وميرها عن الشعوذة ، وحكم بصدق السوء ، وشهد بأن القرآن حق ، وشرعية الإسلام صدق .

إن العقل هو الذي شهد بصدق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وصدق ما جاء به من لتوحيد والإيمان بالله تعالى حين رأى من معجزاتهم الدهرة ، التي

أيدهم إليه تعالى بها، وأظهرها على أيديهم، كمعجزة موسى عليه الصلاة والسلام بانقلاب العصا حية تسعى، ومعجزة عيسى عليه الصلاة والسلام بإحياء الموتى، ومعجرات سيدنا محمد ﷺ، وأعظمها، معجزة القرآن في نظمه ومعناه، الذي تحدى الله تعالى به الإنس والعج كافة أن يأتوا بمثله فعجزوا، ومعجزة الإسراء والمعراج، ومعجزة إشفاق القمر إلى نصير، ورؤية الناس إياه كذلك، فهذه المعجرات برهان عقلي على صدق الرسول، وصدق ما أتى به، بأنه من عند الله تعالى، لأن تأييد الله تعالى لرسوله بالمعجزات حين يظنها الناس منه، هو شهادة من له تعالى على أن الرسول صادق في كل ما يُلَّع عن الله ﷻ، والمعجرات وإن كانت صامتة، فإن العقل جعلها ناطقة، فهي بيّات كما سماها القرآن، من حيث إنها تبيّن صدق الرسل، قال تعالى ﴿لَقَدْ رُسَّتْ رُسَّتْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد ٢٥]

المصنوعات تدل على صانعها

والعقل حين يشاهد نفسه، ويشاهد هذه المخلوقات العظيمة من أرض وسماء، وشمس وقمر، وبحر وحيوان، ونبات وكواكب، كلها تسير بحكمة بالغة في عناية لإتقان والنظام لا يستطيع أن يصدق أنها خلقت من غير خالق، وأنها وجدت من لا شيء، من عدم محض، فإن ذلك صعب من المستحيل، لأن السبب والعدم يستحيل أن يتبع عنه خلق وإيجاد، وذلك بالملاحظة والعيان، فإن الميت لا يقدر على فعل شيء، قال تعالى ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْخَبْرُ﴾ [الطور ٣٥]

ولا يستطيع العقل كذلك أن يصدق أن الطبيعة هي التي أوجدت الكائنات، لأن الطبيعة صماء كماء، لا توصف بالعلم ولا بالحكمة ولا تدبر الأمور، وهذه المخلوقات دلت بصنعتها وإتقانها، وما يشاهد فيها من حكمة وخبرة، على أن صانعها حكيم خبير عليم، واسع العلم بما كان وما يكون

الصدفة في خلق الكون لا يقبلها العقل

لا يستطيع لعقل كذلك أن يصدق أن هذا الكون بما فيه، أوجدته الصدفة والاتفاق، لأن عمر الدنيا من أولها إلى آخرها لا يتسع ليتسع بالصدفة عمية واحدة

معقّدة لتكوين حبة واحدة في جسم الإنسان، فكيف لملايين الحلل في مئات الآلاف من أنواع الحيوان والنبات، وكيف لتكوين وظائف أعضاء الإنسان المعقّدة، كالسمع والبصيرة، وجهاز التنفس والهضم، وكيف ساقى محبوبت الله الأخرى التي لا تُحصى، ومنها ما هو في العظمة ما لا يُعد الإنسان بالنسبة إليه شيئاً، قال تعالى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [عافر ٥٧]

ولتوضيح استحالة دور المصادفة في خلق هذا الكون، نأخذ مثلاً لأصغر مكونات الحياة في السب والحيوان، وهو الخلية، ليرى هل لاحتتمال المصادفة دور في إيجاد

إن إمكانية حدوث المصادفة لتكوين الأشياء السهلة غير المعقّدة أمر في غاية البعد، فكيف بالأشياء عندما تكون أكثر تعقيداً، فعلاً لو وضع الإنسان عشر بطاقات مرقمة من (١) إلى (١٠) في صندوق مقفّل، وحركها حتى احتلّ ترتيبها، ثم حاول أن يحركها مرّة من الواحد إلى العشرة، دون أن يراها، فإن إمكانية المصادفة لإيجاد ذلك تحتاج إلى ألف مليون محاولة، ولو كان المطلوب ترتيبه عن طريق المصادفة هو مائة بطاقة من هذا النوع، فإن الإنسان يحتاج إلى عدد من المحاولات مقداره ضرب الرقم ألف مليون في نفسه عشر مرات، وهو رقم يتعذر وضعه أو النطق به

لنفس بعد ذلك إمكان خلق الخلية التي لا يمكن أن تُرى إلا بالمجهر، لا بل الأحذر أن نقيس جزءاً من الخلية، وهو الجزء الروتيني منها، والجزء الروتيني ذرة من أجزاء الخلية، لا يمكن رؤيته حتى بالمعطار، ويتكون من خمسة عناصر كيميائية هي: الكربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأكسجين، والكبريت والجزء الروتيني الواحد الذي لا يُرى حتى بالمجهر يشتمل على أربعين ألفاً من ذرات هذه العناصر الخمسة، ويتكون الجزء الروتيني هذا من سلاسل من الأحماض الأمينية ACIDS AMION، هذه السلاسل مرّة بطريقة عجيبة، بحيث لو احتلّ ترتيبها ووضع شيء منها في غير موضعه، لفتكت بالإنسان وقصت عليه، بل أن تكون سبباً في موته وحياته

وقد قدم العالم السويسري (تشارلز بوخيز جواي) بحساب المدة التي تُحتاج إليها لتكوين حريء بروتيني عن طريق الصدفة، فانتهى إلى أن احتمال الوصول إلى ذلك يحتاج إلى مقدار من المادة يريد حجمه بليون مرة على المادة الموجودة الآن في الكون، حسب علم الإنسان، ويحتاج إلى محاولات متواصلة لتحريك المواد وضججها رمزاً بكون من رقم (١) أمامه مائتان وأربعة وأربعون صفراً من المسير، وهو رقم حيالي لا يتصور^(١)

والوصول إلى تكوين حريء بروتيني مع ما في الحصول عليه بطريق الصدفة من استحالة كما تقدم بعد ذلك ليس هو كلُّ القصة، فإن القصة تكمن في الحياة، فيس يجعل هذه الحياة حية، وهو السر الذي استأثر به الخالق ﷻ!

(١) انظر الإسلام يتحدى ص ١٥١ وما بعدها، والمسلم يدعو للإيمان ص ١٩٣

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

التوحيد

وحدة النظام تدل على وحدانية الخالق

وحداية الله تعالى تتجلى لكل ذي عقل في وحدة النظام الذي أودع فيه تعالى عليه هذا الكون، وجعله يسير عليه، لا يحتل، ولا يتذل، فالعقل يستدر بمشاهدة وحدة النظام الذي أودعه الله تعالى على غير مثال سابق في الحسن، للشرية، وفيما خلق الله تعالى في الكون من شمس وقمر ونجوم وأفلاك يستدر بذلك على وحدانية الصانع المبدع، فإن وحدة المصنوع تدل على وحدة الصانع فلو كان لله شريك ما استقام هذا الصنع البديع على هذا النظام الواحد، ولا اختلت المصنوعات وفسد الكون، قال تعالى ﴿أَوَ كَانَ يَهْمًا عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ لَمَسَدًا﴾ [الأنبياء ٢٢]، أي السموات والأرض، وقال تعالى ﴿وَحَقَّقْ كُفْرَ ثَوْبٍ لَعَذَابُ قَبِيرٍ﴾ [الفرقان ٢٢]، وقال تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن ٥]، وقال تعالى ﴿وَالْقَمَرُ قَدْرَهُ مَكَارٍ﴾ [يس ٣٩]، وقال تعالى ﴿لَا تَشْمُسُ شَيْئًا لَمْ تَنْتَذِرْ الْقَمَرَ وَلَا لَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسَحُونَ﴾ [يس ٤٠]، وقال تعالى ﴿يُورِثُ لَيْلٌ فِي النَّهَارِ وَيُورِثُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجُورِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [طه ١٣]

معنى توحيد الله:

التوحيد: اعتقاد أن الله ﷻ واحد في ذاته، ليس كمثل شيء، وواحد في صفاته، لا يشبه أحد من خلقه في صفة من صفاته، متصف بكل كمال، مره عن كل نقصان قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ صَمَدٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَؤْلَةٌ مِّن مِّمَّا يَبْتَاعُونَ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَكْنَنٌ مِّمَّا يَكْتُمُونَ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدَايْنِ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ رِجْلَا ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَائِبُ مِّمَّا يَدْرُسُونَ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١-٤]

العدل، لذا كان أفضل الأعمال على الإطلاق، سئل النبي ﷺ «أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟» قَالَ «الْإِيمَانُ»^(١) وصَدَّ التَّوْحِيدَ الشُّرْكَ، وهو الظلم، بل هو أَظْلَمُ الظُّلْمِ وَأَعْظَمُهُ، وهو أَكْبَرُ الذُّنُوبِ وَأَقْبَحُهَا، قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان ١٣] وسئل النبي ﷺ «أَيُّ الذَّنْبِ أَكْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟» قَالَ «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا، وَهُوَ خَلْقُكَ»^(٢) وكان التَّوْحِيدُ غَايَةَ الْعَدْلِ، لِأَنَّهُ قِيَامٌ بِحَقِّ الْمَعْمُومِ الْمُسْتَجِيرِ أَنْ يَعُدَّ لِدُنَاةِ دُونِ سِوَاهُ، وَكَانَ الشُّرْكُ ظُلْمًا، لِأَنَّهُ حُجُودٌ وَكُرْهُانٌ لِمَنْ نَعِمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ سَاعَةً، وَعَظَابُهُ عَامِرَةٌ، وَأَيْدِيهِ بِالْخَيْرَاتِ عَلَى الْعِبَادِ مَسْوَطَةٌ سَانِحَةٌ، وَأَعْظَمُ هَذِهِ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا دِينَ الْإِسْلَامِ، وَأَعْظَمُهَا فِي الْآخِرَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ لِلْمُوحِدِينَ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْعَمِيمِ الْمَقِيمِ

وعادة الله تعالى أساسها التوحيد، وكل عبادة لا تقوم على توحيد الله هي شرك وصلاب، ولذلك كان المطلق بكلمة التوحيد أول ركائز الإيمان، وباب مدخل الإسلام، قَالَ ﷺ «بُنيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ، وَالْحَجَّ، وَصَوْمَ رَمَضَانَ»^(٣) والتوحيد لا يقبله الله ﷻ من العباد إلا كاملاً غير منقوص، فمن أحبط توحيدَه شُرْكَ، واعتقاد فاسد لم يقبل منه وأي حلل في دعائهم التوحيد يقوِّص بنيانه، فإنه تعالى أعنى الأعياء عن الشرك، والشرك يُحبط العمل كُلَّهُ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ﴾ [الأنعام ٨٨]

معنى لا إله إلا الله

معنى الشهادة لله بالوحدانية أنه لا معبود بحق في الوجود إلا الله تعالى، فلا يُقصد ولا يُستعان إلا به، ولا يُتوجه إلا إليه، ولا يُدعى غيره، ولا يُرجى سواه ولا يُتوكل إلا عليه، قَالَ تَعَالَى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلْبِطُونَ بِصَرْفِكُمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ يَبْغُضُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧]. فمن صدق في قول لا إله إلا الله، كان عمده كله لله، فلا يحب إلا لله، ولا يبعص إلا في الله، ولا يؤالي ولا يُعادي إلا في الله أما

(١) مسند أحمد حديث رقم ١٦٥٧٩

(٢) مسند أحمد حديث رقم ٤٤٧٧

(٣) مسند أحمد حديث رقم ٨

من أحب لهواه، وأنعصر لهواه، وعادى ووالى لهواه، من طمع في دين، أو سرلة
أو حاد، فم يحق معنى لا إله إلا الله، وإنما تع هواه^(١)

ومعنى الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته في كل ما
أمر به، وألا يعبد الله تعالى إلا بما بينه وبلعه، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنُفُوسٍ وَلَا
مُؤْمِنَةٍ إِذْ هَمَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ
سَبِيلًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب ٣٦]

توحيد الألوهية^(٢)

شاع استعمال هذا المصطلح في الآونة الأخيرة على قلة استعماله عند الأقدمين،
واستعمله أثار جدلاً بين المعاصرين، وأصاف مادة لأسباب الخلاف، وكثير منه
خلاف لفظي، يحمل عليه التعصب، ولا وجود له عند التحقيق، شأنه شأن كثير من
مسائل الخلاف في تراثنا الفكري التي عداها التعصب، ولم يحرر فيها محل السراع
وهذا ما دعاني إلى استعمال هذا المصطلح، فلم أستعمله لأنه يصيف جديداً في
أمر التوحيد لم يكن عند أسلافنا الذين لم يستعملوه، وإنما لأجني به ما عساه أن يرفع
الخلاف الناتج عن عدم إمعان النظر في مدلول هذا اللفظ ومعناه، والتوقف عند
التقسيم ومناه

فوحيد الألوهية لا يختلف من ذكره من القدامى والمحدثين على أن معناه
تخصيص الله تعالى بالعبادة، واستحقاقه إياها دون سواء وهذا المعنى في
التوحيد مما أجمع عليه الأمة، وبطقت به آيات القرآن، وجاء به دين الإسلام،
ولا يحصف عنه من المسلمين اثنان، فبنكار حق الله تعالى وحده في العبادة كفر
من كفر من أهل لكتاب والمشركيين، فكفر اليهود والنصارى باعتقادهم تعدد المستحق
للعادة، فجعل النصارى الرب مركباً من ثلاث، وجعل اليهود عزيز ابن الله، مع
كفرهم جميعاً برسالة محمد ﷺ، وكفر الوثنيون باعتقادهم عدداً من الآلهة تعد
وتقرب إلى الله، ولذا قالوا: ﴿مَا نَسُدُّهُمْ إِلَّا بِقُرْبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلُمَى﴾ [الزمر ٣]

لذا كن إرسال الرسل قاطبة يقوم على الدعوة إلى عبادة الله وحده، وحطاب
القرآن في التوحيد كلها متوجهة إلى تحقيق ذلك وتخصيبه، قال تعالى ﴿تَأْتِيهَا

(١) انظر جامع العلوم والحكم ص ٢٨٨

(٢) انظر شرح المفصلة الطحاوي ص ٧٦، ٨٧

النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ وقال تعالى . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنبياء ٢٠]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لمعاد «هَلْ تَذَرِي مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقَّ الْعِبَادُ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(١)

توحيد الربوبية

وهذا أيضاً اصطلاح في الاستعمال، ولا مشاحة في الاصطلاح، ومعناه الاعتقاد بأن الله تعالى وحده خالق كل شيء، ومليكه ومدبره، لا رب سواه لا يُرحى إلا معه، ولا يُخشى إلا صرّه، فهو الخالق البارق، النصار الدافع المعيش، الذي بيده لأمر كلّه، ما من حركة ولا سكون في الأرض ولا في السماء إلا بيده وشوب التوحيد بهذا المعنى لله تعالى لا يختلف عليه أهل الإسلام من صرح منهم بهذا التقسيم ومن لم يصرح، وهو توحيد فطري، قد يقرّه حتى من لا بعد الله تعالى من اليهود والنصارى والمشرّكين فإن المشاهد في الواحد منهم ليوم إذا عجز عن أمر، واستعمل كل حيلة عنده في تحصيله، كشفاء مريض مثلاً أو دفع ضرر، ولم يفلح أن يفوض الأمر إلى الله، وينسأ من حوله وقدرته، ومصدق ذلك من القرآن إحداده تعالى عن المشرّكين ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [البقرة ٢٠]، وفي آية أخرى ﴿لِيَقُولُنَّ سَمِعْنَا أَلْفَ الْغَيْبِ﴾ [الزمر ٩]، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِمْ إِذَا دَفَعَهُمْ إِلَيْهِمْ إِذْ هَبَّ مِنْهُمْ بَرِيءٌ يَأْتُونَكَ﴾ [الروم ٢٣]، ﴿وَإِذَا رَجَوْا فِي الْمَلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [المائدة ٦٥]، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا مَكَكُمُ الْعُزْرُ فِي الْبَحْرِ مَدَّ يَدَاكَ إِلَى الْيَمِينِ﴾ [الأنبياء ٦٧]

وهذا الاعتقاد بربوبية الله تعالى، وهيئته على مقاليد السماوات والأرض، لا ينفع صاحبه إلا إذا انصم إليه اعتقاد أنه المستحق وحده لعبادة، وإفراده بها دون سواه، مع كمال لخصوع والإدعان والتذلل فإن أشد الناس كفراً، وهو فرعون الذي قال ﴿عَلِمْتُ لَعْنَتَكُمْ مِنْ إِلَهِي غَيْرِي﴾ [القصص ٣٨]، كان يقرّ بقدرة الله تعالى وتدبيره لأمر السماوات والأرض، كما أحر الله تعالى عنه ﴿لَعْنَةُ عَلَيْهِ مَا أُرِنَ

(١) البخاري حديث رقم ٥٩٦٧

هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ نَصَائِرُ ﴿[الإسراء ١٠٢]﴾، وقال الله تعالى عنه هو وحده ﴿وَمَعْدُوا بِهَا وَنَبَقَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل ١٤]

ولا يبرم من الإقرار بأن الله هو الخالق البارئ، وأنه هو السافع الصار، لا يبرم منه حصول الإيمان الذي لا يصح إلا بالاعتراف بأن الله وحده المستحق للعبادة، لكن يلزم من الإدعان لله والخضوع له، وأنه وحده المستحق للعبادة يبرم منه الإقرار بأنه الخالق البارئ، وأنه واحد لا شريك له، فإن الإله الحق المستحق للعبادة لا بد أن يكون حلقاً، بذكر موحداً متصفاً بكل كمال، وهذا ما جعل كتب العقيدة عند المتقدمين في الغالب لا تتعرض لهذا التقسيم، وتقتصر على بيان ما يجب اعتقده، وما يجب الإيمان به على ذكر توحيد الله وإفراده بالعبادة، لأنه مستلزم لتوحيده وإفراده بالحق والبرق والسمع والصر وقيل منها من يفصل ويذكر التقسيم صراحة، وإن ذكر المضمون، ومن القدامى الذين ذكروا هذا التقسيم ونصوا عليه صراحة القرطبي المعسر، فذكره وسه إلى علماء المالكية، قال في (الجامع لأحكام القرآن) «وعم أعلامنا رحمهم الله قالوا الشوك على ثلاثة أصرب، وكله محرم وأصله اعتقاد شريك له في ألوهيته، وهو الشوك الأعظم، وهو شوك الجاهلية، وهو المراد بقوله تعالى ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَمِيزُ أَلْشُّرَكَ بِهِ وَيَعْبُدُ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ شَاءَ﴾، وبليه اعتقاد شريك الله تعالى في الفعل، وهو قول من قال «إن موحوداً غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يتعقد كونه إلهاً»^(١) وفصل هذا التفصيل أيضاً الشافعي في (أصواء اليبا) فقال «قد استقرأ القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام الأول توحيد في ربوبية الثاني توحيد في جلا وعلا في عبادته النوع الثالث توحيد في جلا وعلا في أسمائه وصفاته...»^(٢)

وقد وردت إشارات إلى هذا التقسيم عند غير من ذكر ولما كان توحيد الله بالعبادة وإفراده بها مستلزماً لإفراده بأنه الرب الخالق القادر المدبر، كان الطلب في آيات القرآن مصفاً على الأمر بالعبادة وإفراده بها، فهو المقصود الأول من خلق الخلق وبعثة الرسل، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ

(١) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ١٨١/٥

(٢) أصواء البيان ١٧/٣

لَا يَسْتَدْرِي ﴿الدَّارِيَاتِ ٥٦﴾، وقال تعالى ﴿بَنَاتِهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ إِلَهِي حَقَّكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [القرة ٢١]، وكثيراً ما يذكر القرآن توحيد الربوبية برهاناً على استحقاقه سبحانه للعبادة، تبييناً للعافيين، وحجة على المعبدلين، قال تعالى ﴿فَمَنْ حَقَّ كُفْرُ لَا يَحِلُّ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الشعل ١٧]، ﴿بَنَاتِهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ إِلَهِي حَقَّكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [القرة ٢١]، ﴿فَلَمْ يَزِدْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْرًا يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَنْ يُدْخِلُ الْمَيِّتَ فِي الْحَيِّ وَمَنْ يُدْخِلُ الْأَمْزُاقَ فَيَقُولُ اللَّهُ فَعَلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ مَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْفَقِيرُ﴾ [يوس ٣١، ٣٢] أي المسحق وحده للعبادة

وحدة الذات ووحدة الصفات

يحب الإيمان بأن الله تعالى واحد في ذاته، بمعنى أنه لا شريك له، وأنه لا مثيل له ولا شبه، قال الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١، ٢]، وقال تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء ٢٢]

ويحب الإيمان كذلك بأن الله تعالى واحد مفرد في صفاته، ومعنى وحدة الصفات أن لله تعالى لا يشبهه أحد من خلقه في صفة من صفاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١] جل وعلا، متصف بكل صفات الكمالات، ومبره عن كل صفات النقائص، وكل ما حطر بآلئك فأنه ﴿بِحُلاَفٍ دَلَّتْ، وما أطلقه الشرع في نصوص القرآن والسنة على الخالق والمخلوق من الصفات، فلا تشابه بينها لئلا تشابه مثلاً بين صفة العلم والحياة، والسمع والبصر، التي يتصف بها لله تعالى ويتصف بها المخلوق، فعلم المخلوق متجدد حادث، محدود بالزمان والمكان، مسوق بجهل، ويتصف بالنقص والعجز، وعدم الله تعالى كمال، شامل للكمالات والجبريات، أرئى، لا يحده زمان ولا مكان، تكشف به جميع الأشياء في وقت واحد اكشافاً كاملاً، لا يسبقه جهل، ولا يحفه نقص، لا يعرب عن ذلك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم الحواطر، وحفيت السرائر والموايا والصمائر، ويعلم السر وأخفى، قال تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ يَكُنَّ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَجَمْعُ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ بِحُجَّةٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الحجرات ٢٢]، ﴿وَلَا يَكُنْ لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُ﴾ [الحجرات ٢٢]

حَقَّقَ فِي مُلْكُمَنِي الْأَرْضِ وَلَا دَعِيَ وَلَا يَكِين إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ [الاسماء ٥٩]، ولما وافق بين علم الله وعلم المخلوقين إما هو في اللفظ فقط، وهكذا في سائر الصفات وصف له تعالى على نوعين صفات الذات، وصفات الفعل وصفات الداب، كوصفه سبحانه أنه إله، عزيز، مجيد، جليل، عظيم، عسي، حميد، ملك، جبار، متكبر، سميع، بصير، إلى آخر أسمائه الحمدي وصفات الفعل ثابتة لله تعالى لذاته أولاً بصفة القدرة، التي يفعل بها ما شاء ويختار^(١)، كالإحياء والإماتة والخلق والبرق

أ. صفة الذات

وهي صفة أدلية، يستحقها الباري سبحانه لذاته، واجبة له، لم يزل ولا يزال متصفاً بها وأسماء الله الحمدي تشمل على هذه الصفات، فيُوصف تعالى بالحياة والسمع والبصر، والقدرة، والإرادة، والعلم والبقاء، والوحدانية، والقيومية، والعسي، والعظمة، والكبرياء، والعزة، والجبروت، والجلال، إلى آخر الأسماء الحمدي فالعليم معناه أنه متصف بالعلم، والسميع معناه أنه متصف بالسمع، وهكذا في باقي الأسماء، فهي أسماء وصفات هي ان واحد، سماها القرآن أسماء، قل تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف ١٨٠]، وسماها النبي ﷺ بذلك، فقد كما ثبت عنه في الصحيح «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ وَتِسْمِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢)

ومن صفات الداب ما ثبت وحوه لله تعالى بالنقل والعقل، كالصفات المتقدمة من القدرة والإرادة، والسمع والبصر، ومنها ما ثبت وجوه لله تعالى بالنقل والعبر، دون العقل، وهي

الصفات الخبرية

والمراد بالصفات الخبرية ما ورد مصافاً إلى الله تعالى في الكذب أو البسة من الوجه، واليد، والقدم، وحو ذلك وشملت صفات حرية ثبوتها بالحبر والسمع،

(١) انظر الأسماء والصفات ص ١٧٦، وفتح الباري ١٧/ ١٥٣

(٢) البحاري حديث رقم ٢٧٣٦

لا بالعقل، وهي صفات أولية، واجبة لله تعالى، لم يزل ولا يزال متصفاً بها، قال تعالى ﴿وَسَمَىٰ وَهَّ رَبُّكَ دُوَّ الْغَلْبِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن ٢٧]، وقال تعالى ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ١٠]، وقال تعالى ﴿لَمْ يَدَأْهُ مَسْطُورًا يُنْفِثُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الصافات ٦٤]، وقال تعالى ﴿خَرَجَ مُتَعَدًّا﴾ [القمر ١٤]، وقال تعالى ﴿وَأَسْمَوَاتٍ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر ٦٧]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ في صفة جهنم أعدد الله لها ألا تَزَالُ حَتَّى تَقُولَ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ -تبارك وتعالى- قَدَمَهُ، فَتَقُولَ قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ، وَيُزَوِّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ^(١)، وفي الصحيح «إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَضْبَعَيْنِ مِنَ أَصَابِعِ اللَّهِ يَقْلِبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»^(٢)

وقد سمي المتأخرون ما ذكر بالصفات الخبرية ولم يرد له عَمَّنْ قَدِمَهُ من الصحابة والدعوى والمتقدمين تسمية، بل كانوا يُسَمُّونَ لله تعالى ما أثبت لنفسه منها، دون أن يقولوا عنها إنه صفات^(٣)

فيجب الاعتقاد بأن الله تعالى متصف بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسول الله ﷺ، من الوحه واليد والقدم وغيره مما ورد به النص، عن الوحه الذي أراده الله تعالى دون تأويل ولا تكييف، ولا توصيف، وهو معنى قول أهل العلم من السلف المتقدمين، «أَمَرُواهَا كَمَا حَاءَتْ»، مع الجرم سفي المماثلة والمشابهة، وأن صفات الله تعالى ليس حوارج كصفات المخلوقين

وذلك لأن الكلام عن الصفات فرع الكلام عن الذات، وذات الله لا تُدْرِكُ، فكذلك صفاته، إثباتها إثبات وجود لا إثبات كيفية قال أبو عمر بن عبد البر «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها، وحمدها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكفون شيئاً من ذلك، ولا يتحدثون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كدها، والحوارج فكهم يكرهها، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويرغمون أن من أقر بها مشتهر والحق

(١) مسلم حديث رقم ٢٨٤٨

(٢) سنن ترمذي حديث رقم ٢١٤٠

(٣) نظر لأدلة الأشعري ص ٤٠

فيما قاله القائلون بما نطوق به كتاب الله وستة رسوله، وهم أئمة الجماعة، والحمد لله^(١)

وروى ابن عبد البر عن الوليد بن مسلم، قال سألت الأوراعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والليث بن سعد، عن هذه الأحاديث التي جاءت في الصفات، فقالوا أمرؤها كما جاءت بلا كيف^(٢)

ب صفات الفعل

وهي صفت أرلية، واحدة لله تعالى لذاته، متعلقة بإرادته وقدرته، يفعل منها ما يشاء ويختار، كالحلى والإحياء والإماتة، والرزق، والعفو، والرحمة، والعقوبة، قال تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص ٦٨]، وقال تعالى ﴿فَمَا لَهَا بِرَبِّهَا﴾ [البروج ١٦]، ومن هذه الصفات ما ثبت وجوبه لله تعالى كالحس والعقل معاً، كالحلى والإحياء والإماتة، ومنها ما ثبت وجوبه بالحق دون العقل، كالرول والمحجى، والعصب والرضا

وما ورد من هذه الصفات في الكتاب أو السنة، كالعجى والرول والصحت، والعجب، والعصب، والرضا، والاستحياء، يجب إثباته لله تعالى كما ورد، دون توصيف ولا تكيف ولا تأويل، ومن تحير وقال كيف يرول رب أو كيف يعصب رب؟ بقا له كيف هو سميع؟ وكيف هو بصير؟ وكيف هو حي عليم؟ وكيف هو نفسه؟ فكما أنه سبحانه لا تدركه العقول، فكذلك صفاته، فإن النصف فرع الموصوف ومما ورد في القرآن من هذه الصفات قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه ٥]، ﴿وَجَاءَ رُكُوكُكَ وَأَلَمُكَ صَفَاً﴾ [الفجر ٢٢]

وحاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال. «يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَقْبَلُ ثَلَاثُ اللَّيَالِ الْأَخِيرِ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(٣)

كذلك ما لك رحمه الله تعالى إذا ذكر عده من بدوع أحاديث الصفات أكثر أن

(١) التمهيد ٧/ ١٤٥

(٢) التمهيد ٧/ ١٤٩

(٣) البحاري مع فتح الباري ٣/ ٢٧٢، وانظر الإمامه ص ١١

يقول قال عمر بن عبد العزيز . «من رسول الله ﷺ وولاية الأمر بعده منّا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد من حق الله تعالى تغييرها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى فهو مهتد، ومن استصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً»^(١) ومقصود مالك من هذا أنه يجب الاقتداء في باب الصفات بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه

والمسلم عليه أن يعتقد ثبوت هذه الصفات لله تعالى كما ورد، دون كيف ولا وصف، روى يحيى بن يحيى التيمي قال «جاء رجل إلى مالك فقال يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ قال فما رأيت مالكاً وحده من شيء كموحذته من مقالته، وعلاء الرُحضاء، وأطرق القوم، فسُري عن مالك، وقال لكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالاً، وأمر به فأُخرج»^(٢)

ونقل مثل هذا القول عن ربيعة بن عبد الرحمن والسمياني وقول مالك هذا قاعدة في فهم جميع صفات الناري أحد به أهل العلم واستشهدوا به وأقروه، ولم يعرض عليه أحد، لصحته ومطابقته لما كان عليه الصحابة والتابعون، وهو يعني أن جميع الصفات الدالة له يجب الإيمان بها حقيقة على ما جاءت، دون بحث عن كيفيةها في حق الله تعالى، مع الهوى عن الحوص فيها»^(٣)

قال ابن عبد البر «علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ هو على العرش، وعنده في كل مكان، وما حالهم في ذلك أحد يُحتج بقوله»^(٤)

وسب أبو الحسن الأشعري في الإمامة القول بحلاف ذلك إلى الجهمية والمعتزلة، فقال «ورغم المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله ﷻ في كل مكان، فربهم أنه

(١) مجموع الفتاوى ٤٠/٥

(٢) التمهيد ١٣٨/٧، وهو ثابت عن مالك من طرق صحيحة

(٣) انظر المغلة السلفه في كلام ربه البريه ص ٧٤

(٤) التمهيد ١٣٩/٧، ٨٠/٢٢

نظر مريم، وهي لحشوش والأحلية، وهذا خلاف الدين، تعالئ الله عن قولهم^(١) وأمسد اللالكائي عن محمد بن الحسن الشيباني، قال «اتفق الفقهاء كدهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن وبالأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب من غير تشبيه ولا تفسير، فمن فسر شيئاً منها وقال يقول جهنم، فقد حرج عما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وفارق الجماعة» لأنه وصف الرب بصفة لا شيء^(٢) وكان الأئمة من أهل السنة يقولون في أحاديث الرسول وما شابهها «أمرؤها كما جاءت»، ويقولون «نؤمن بها بلا كيف وبلا تشبيه ولا تعطيل»، والشافعي يقول «أمت بالله وما جاء عن الله عني مراد الله، وأمت برسول الله، وما جاء عن رسول الله علي مراد رسول الله ﷺ»^(٣)

قال ابن عبد البر «كلهم يقول ينزل ويتجلى ويحيى بلا كيف، لا يقولون كيف يحيى؟ وكيف يتجلى؟ وكيف ينزل؟ لأنه ليس كشيء من حقه»^(٤)

وإثبات ما ذكر من الصفات على الوحدانية هو أعدل الأقوال، فإن فيه إثبات ما أثبتته الكتب والسنة، ولكن لا يُتعمق في التوصيف، لأن التعمق يؤدي إلى التشبيه ودون تأويل، فإن التأويل يؤدي إلى النقي والتعطيل، وخير الأحوال ما كان عليه الأول، مألوف وأصراه. قبل الاشتغال بالرد على المشبهين والمعطين، كانوا لا يحسون لكلام فيما سكنت عنه النبي ﷺ وأصحابه، ويقولون عن الصفات أمرؤها كما جاءت، ويقولون تفسيرها قراءتها، وكان كلامهم فيها معدوداً بالحروف، فمن راد كلمة لاموه عليها حتى لو كانت صواباً، وقالوا له. هي وإن كانت صحيحة، فلا أولى تركها، لأن السلف لم يتكلموا بها

قال القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي عند شرحه لعبارة ابن أبي ريد في (الرسالة) «وأنه قوي عرشه بذاته»، «وعلى العرش استوى»، قال «العدرة الأخيرة أحب إلي من الأولى لأن قوله على العرش هو الذي ورد به النص، ولم يرد النص

(١) الإله ص ٣٧

(٢) فتح الباري ٣٦٥/١٥

(٣) مجموع الفتاوى ٣٥٤/٦

(٤) المنهاج ١٥٣/٧

يدكر (فوق)، وإن كان المعنى واحداً إلا أن ما طالع النص أولى بأن يستعمل^(١) وقد ذهب تعبيراً على العبارة نفسها «وقد تلمظ بالعبارة المذكورة جماعة من العلماء كما قدمناه، وبلا ريب إن فصول الكلام، تركه من حسن الإسلام»، إلى أن قال «وقد تقموا عليه في قوله بذاته، فليته تركها»^(٢)

الكف عن الخوض في الصفات

الإيمان بهذه الصفات كما جاءت، على مراد الله منها كما يقول الشافعي رحمه الله، يقتضي أن يقف المسلم حيث وقف به النص، ويستعمل ألفاظ النص ذاتها، دون تعميم ولا تحديد ولا تحيل، فلا يكتفيها ولا يتكلف فيها، ولذا استعاض عن الأئمة قولهم أمروها كما جاءت، أمروها بلا كيف، وكانوا يقولون معاً قراءتها قال سعيد بن عيسى كل ما وصف الله به نفسه في كتابه تفسيره تلاوته والسكوت عنه^(٣)، أي واجب أن تؤمن به، ولا تتوهم ولا تقول. كيف، ومعنى هذا أنهم يؤمنون بها كما جاءت ولا يحول السؤال عنها، ولا الجدل فيها، على خلاف ما شاع اليوم بين كثير من أهل العلم وغيرهم.

سئل الإمام مالك عن أهل البدع، قال: «أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله تعالى وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يكفون عما سكنت عليه الصحابة والسلف»^(٤) وقال للسان عن الاستواء «الإقرار به واجب والسؤال عنه بدعة» وروى البيهقي بسنده قال «كان سفيان الثوري وشعبة والحماذان وشريك لا يحدثون، ولا يشهون، ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون كيف، وإذا سئوا أحسوا بالآثر»^(٥)، ومن زاد على ذلك فلن يأمن الزلزل

قال ابن عبد البر «الكلام في صفات الناري يستشعها أهل السنة، وقد سكنت عنه الأئمة، فما أشكل علينا من مثل هذا الباب شهة أمر رباه كما جاء، وأما به كما يصع

(١) شرح معاني عند نوهاذ ورقة ١٣

(٢) مختصر معاد من ٢٥٦

(٣) طهر فتح ساري ١٥ ٣٦٥

(٤) الآداب الشرعية ٢١٠/١

(٥) السالك الكرى ٣/٣

ممشاه القرون، ولم ساطر عليه، لأن المضاظرة إنما تسوع وتجور فيما تحته عمل، ويصحه قيسر، والقياس غير حائر في صفات الباري تعالى^(١)، وقال كذا مالك بقول «أدرك أهل هذا البلد ويعنى المدينة وهم يكرهون المضاظرة والجدال إلا فيما تحته عمل قال يريد مالك ﷺ الأحكام في الصلاة والزكاة والطهارة، ولا يجوز عنه الجدال فيما تعتقده الأئمة، مما لا عمل تحته أكثر من الاعتقاد»^(٢)

دفع شبهة المؤولين

فإن قيل في إثبات هذه الصفات، من المحيي والنور، والاستواء، والنوح، واليد والقدم، إلى آخر ما ورد، إثبات للتشبيه، فلم التأويل حتى لا يشبه الله ﷻ سبحانه، كما فعلت المشبهة والمجسمة يقال هذا الإيراد لازم أيضًا في صفة الحياة والسمع والبصر، والعلم والقدرة والإرادة إلخ، فالعقل لا يدرك الحياة والسمع والبصر والإرادة إلا هذه الأعراس والحواس التي يتصف بها المحبوس، فهل إرادة الله وحياته وسمعه وبصره هي كحياة وسمع وبصر خلقه؟ لا شك أنها ليست كذلك، وأنها حياة تليق به ليست كحياتنا، وسمع يليق به ليس كسمعنا، وعدم يليق به ليس كعدمنا، فكذلك الاستواء والنور والقرب والوجه واليد، هي أيضًا يقال عنها استواء يليق به، ونور يليق به، ووجه يليق به، والله ﷻ ليس كمثله شيء، لا يحاح إلى شيء الله، لا إلى العرش ولا إلى غير، كان وليس قبله شيء، وكان عرشه على الماء، وكان قبل العرش

فما لم تؤول تلك الصفات، وهي السمع والبصر إلخ، لم تؤول هذه؛ لأن تأويل الصفات معناه أن حقيقتها غير ثابتة لله تعالى ولا مراده، وذلك يستلزم فيها ثم إن الصفات سوعها ما أوله منها المؤولون وما لم يؤولوه، ثابتة ثبوت واحدًا، بالكتاب والسنة، فمن أثبت بعضها بلا تأويل ولم يقل بعضها إلا بتأويل، كان كمن يأخذ بعض الكتاب ويرد بعضه

ولوالد رحمه الحرمين أبي محمد الجويني رسالة نافعة في هذا المعنى، ذكر فيها تحييره بادي الأمر في مسألة الصفات، ومسألة العلو، ثم كيف شرح الله صدره لما ذهب

(١) المصنف ١٩/٢٣١

(٢) المصنف ١٩/٢٣٢

إليه أئمة السلف، وصغر ذلك رذ الشبه الواردة على القلب بما فيه مقنع لكل ذي لب^(١)

ما ورد فيه من الصفات تأويل عن السلف

حمل اللفظ على غير المتبادر منه قد يتعين في بعض نصوص الوحي، لتصحيح الكلام شرعاً، أو لتعذر حمله على ظاهره، حتى لا يتناقض الكلام عقلاً، وسواء سمي صوف الكلام عن هذا المعنى المتبادر تأويلاً أم لم نسمه، فلا مشاحة في الاصطلاحات، ما دام التفسير بعير المتبادر متعين

ومن الدس من يهر من استعمال كلمة التأويل في هذه المواضع، حتى لا يقال له لم قبل التأويل في بعض النصوص وأكثرت على القائلين به في بعض آخر^(٢) والجواب عن هذا الاعتراض لا يكون بوضع كلمة بدل أخرى، والمؤدّي واحد، فذلك يعود بالإصعاف على المسألة في إنكار التأويل برمتها، ولكن الجواب أن يقال ليس في رب صفات الله ﷻ من قياس، فما فهمه أهل القرون الأولى من النصوص في رب الصفات، وقبلوه على ظاهره من غير تأويل، قلناه، وما أولوه أولناه، فإن ذلك هو الحق والصواب إن شاء الله

ومما نقل عنهم فيه تأويل، قول الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ عَلَّمَ مَا يَلْعَلُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُعْرِجُهَا وَمَا يُغْرِجُهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَصْلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد ٤]، قال القرطبي «وقد جمع في هذه الآية بين ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، و﴿هُوَ مَعَكُمْ﴾، والأخذ بالظاهر تدفص، فدل على أنه لا بد من التأويل، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض»، فمعنى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي يعلمه^(٣)

وفي مجموع الفتاوى^(٤) «أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ومعنى ذلك في القرآن أن ذلك عنده»، فأحرر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء، فلا يمتعه عبوه عن العلم بجميع الأشياء»، وقال في معنى قوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص ٨٨]

(١) مختصر المبرور ص ٢٦

(٢) إعراف تفسير قرطبي ١٧، ٢٣٧

(٣) ٥١٩ هـ

«أَلْ كُلُّ شَيْءٍ هَذَا إِلَّا مَا كَانَ لَوَاحِجِهِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَعْمَالِ وَغَيْرِهَا»^(١)
ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ [الواقعة ٨٥]، ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَتَّى
تُؤْيِدَ﴾ [سورة ق ١٦]، قال في مجموع الفتاوى: «أي بملائكتنا في الأسير»^(٢)
وكقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي حَيْبِ اللَّهِ﴾ [الرمل ٥٦]، فإن المراد به في
استعمالهم الشائع في حق الله، وكذا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ سَيِّئُهُمْ مِنْكَ الْقَوَاعِدُ﴾
[الحل ٢٦] معه حرب الله بعبادهم، وقوله: ﴿إِنَّمَا طَعَنُكَ يُؤَيِّدُ اللَّهِ﴾ [الإنسان ٩] معه
لأهل الله، وقس على ذلك^(٣)

ومنه الحديث: «إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمس»^(٤)، فإن معه تفتيس
الله عن المؤمنين كبريتهم يكون من أهل اليمس، قال في مجموع الفتاوى: «هم الذين
قاتلوا أهل الرقة، وقتلوا الأمصار، فبهم نفس الله عن المؤمنين الكروب»
ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [التوبة ٤٠]، فإن معه بصره وتأنيده
وحفظه، وفي الحديث القدسي: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ
تَعُدْنِي قَالَ يَا رَبِّ، كَيْفَ أَهْوَاؤُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي
فُلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟»^(٥) إلخ، فإن
معه مرض المؤمن، واستطعام الجائع، كما جاء مفسراً في الحديث نفسه

صفة الكلام

من الصفات الواحدة لله تعالى صفة الكلام، وهي صفة أروية واحدة لله تعالى
لذاته، يتصف بها ﷻ على ما يليق به، فيتكلم بما يشاء، كيف يشاء، متى شاء، وإسا
يصدق بكلامه وتؤمن به، ولا نعرف كيف هو كسائر الصفات الأخرى، مع الجرم
بعدم مشابته للكلام المخلوقين

(١) ٤٢٧/٢

(٢) ٥٠٢/٥

(٣) انظر فتح الباري ١٧/١٥٣، ١٦٠، والنهيد ٧/١٣٨

(٤) مسند الشاميين ٢/١٤٩

(٥) ٣٩٨ ٦

(٦) مسند حديث رقم ٢٥٦٩

وقد كلم الله ﷻ ملائكته، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [الفرقة: ٣٠]، وكلم بعض رسله، قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا مِّنْهُمْ عَلَىٰ بَنِيهِمْ عَنْ بَعْضِ بَنِيهِمْ مِّنْهُمْ مِّنْ كَلَمِ اللَّهِ﴾ [الفرقة: ٢٥٣]، ومن كلمه الله تعالى ، موسى ﷺ، قال تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وكلم سيد محمد ﷺ ربه ليلة المعراج، ففي الصحيح من حديث المعراج، قال ﷺ «فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف عن أمتي، فحط علي خمسا»، وقال تعالى ﴿رَبِّدُّوهُمْ أَوْ يُسْأَلُوا كَلِمًا هُوَ﴾ [الفتح: ١٥]، وقال تعالى ﴿ثُمَّ يُخْرِجُوكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ مَّا عَمَلُوكُمْ وَأَنْتُمْ يَتَنَبَّهُونَ﴾ [الفرقة: ٧٥] ويكلم الله تعالى عباده يوم القيامة في المحشر، مؤمنهم وكافرينهم ﴿وَيَوْمَ يُكَلِّمُهُمْ يُقُولُ مَاذَا أَعْمَلْتُمْ أَلَمْ نَرْسِلْكُمْ﴾ [القصر: ٦٥]

وفي الصحيح «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يمنع بينهما»^(١)، ويكلم الماري أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فإنه يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة، فيقولون ليك ربا وسعدنيك، فيقول هل ربيتم فيقولون وما لنا لا نرعى، وقد أعطينا ما لم نعط أحدا من خلقك؟ فيقول أأعطيكم أفضل من ذلك، قالوا يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول «أحل عبيتكم رضوي فلا أسخط عليكم بعده أبدا»^(٢)

وقد ﷺ لجار «ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب وأخيا أباك فكلمه كماخا، فقال يا عبيدي، تمن علي أعطك. قال يا رب، تحيي فأقتل فيك ثانية قال الرب ﷻ إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال وأنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تُخَسِّرْكَ اللَّهُ رَبُّكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُكَ﴾»^(٣)

ويقول ﷻ لأهل النار «اعتنوا فيما ولا تكلون» [المومنون: ١٠٨]، وكلم الله تعالى لا تعد ولا بهابة لها ﴿فَلَوْ كَانُ الْعَرَبُ بِدَارِ الْكَلْبِ رَبِّي لَيَدَّ الْعَرَبُ قَلَّ أَلْ تَعْدَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْتُ بِبَيْتِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]

وصف الجهمية والمعتزلة حقة الكلام، كما تمت سائر الصفات الأخرى، وأبكر

(١) سنن أبي داود حديث رقم ٧٤٤٣

(٢) سنن أبي داود حديث رقم ٦٥٤٩

(٣) سنن أبي داود حديث رقم ٣٠١٠

المجعد بن درهم أن يكون الله تعالى كليم موسى، فقتله حائد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بعد الحطبة، وقال «أيها الناس ارجعوا فصحاء، تقبل الله منكم، فإني مضج بالمجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يحد إبراهيم خليلًا تعالى الله عما يقول المجعد علوًا كبيرًا»، ثم برل إليه وذبحه في أصل المنبر^(١)

الكلمات التشريعية والكلمات الكونية

تنوع كلمات الله تعالى إلى نوعين كلمات تشريعية، وكلمات كونية فكلماته التشريعية كتبه المبرلة، وهي القرآن، والتوراة، والإنجيل، والربور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى ﷺ وكلماته الكونية هي التي يحث بها الحق، ويقدر بها المقادير، ويقول للشيء كن فيكون والكلمات التشريعية هي الأوامر والنواهي، من أطع الله تعالى عمل بها، ومن عصاه حالفها وتركها فالمطيع إذا قيل له صلّ واترك الركعة صلى وركى، والعاصي إذا قيل له صلّ لا يصلي. والكلمات الكونية لا يقدر أحد أن يحرج عنها، الجميع يحضض لها قهرًا، فمن قصي الله عليه بأمر من مرض أو موت، أو فقر أو عي، أو هلاك مال، أو ولد أصابه، مطيعًا كان أو عاصيًا، قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا رَأَىٰ شَيْءًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٨٢]، وقال تعالى ﴿لَا عَاجِزَ آيَاتٍ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّجَزَ﴾ [هود ٤٣]

القرآن كلام الله

لم يكن المسلمون في الصدر الأول قبل ظهور البدع يزيدون عن قولهم القرآن كلام الله، فلا يقولون مخلوق، ولا غير مخلوق، شأن القرآن شأن سائر الصفات الأخرى، لوحدة لله تعالى، كالسمع والبصر، والقدرة والحياة، فبهم لا يقولون عنها مخلوقة ولا غير مخلوقة، فكذلك القرآن الذي هو كلامه، لا يقولون عنه مخلوق ولا غير مخلوق، حتى ظهرت بدعة المعتزلة بخلق القرآن، واحتج الناس إلى فيها بقولهم القرآن كلام الله غير مخلوق

(١) جمع لأشعري بعد أبي الحبحر الأشعري صفة الكلام لله تعالى تطلق على الكلام لفظي، ومعناه المعاني الموجودة في نفس الإنسان هذه هي الصفة الأرشية أما النطق بالصوت فهو تعبير عن الكلام لفظي، لذا هم يرون أن حروف الموجود في المصحف هي عبارة عن كلام الله، وهي محبوبة، وهذا قال بالكلام لفظي ابن كلاب، وأخلطه عنه الأشاعرة الشريفة ص ١٩٧

سئل جعفر الصادق الإمام عن القرآن مخلوق هو؟ فأجاب «ليس بحال ولا محبوس، ولكنه كلام الله»^(١) وكان مالك يقول «كلم الله موسى عليه السلام»، والقرآن كلام الله، ويستطيع قول من يقول القرآن مخلوق ويقول «من قال القرآن محبوس يوحى ضرراً ويحبس حتى يموت»^(٢)

ويكفي في صحة إيمان المسلم أن يقول القرآن كلام الله، ولا يحوط فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب الرسول ﷺ والتابعون، فيسكت عما سكتوا عنه فإن الصحة ماتوا وما حاصوا في القرآن ولا في الصفات، «ومن رأى أن طريقة المتكلمين أحوذ من طريق أبي بكر وعمر فيس الاعتقاد»^(٣)

قال عمرو بن دينار «أدرك أصحاب النبي ﷺ من دونهم مد سبعين سنة يقولون الله الحال، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، من حرج وإليه يعود»^(٤) ومثل هذا القول مروى عن السقياس وغيرهما من الأئمة، ومعنى وإليه يعود، أن القرآن يُسرى عليه ليلاً فيرفع الله إليه، ويتبرعه من صدور الحفاظ، وأوراق المصاحف، فيصحبون ليس في الأرض ولا في جوف مسلم من شيء، قال تعالى ﴿وَلَيْسَ شَيْءٌ سَدَّ بَيْنَ يَدَيْكَ وَأَوْحَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ اللَّهَ بِذُنُوبِكُمْ وَكَفَّلاً»^(٥)

روى ابن عبد البر بسنده إلى سليم بن منصور بن عمار، قال كتب بشر المريسي إلى أبي أحبرسي عن القرآن أحال هو أم مخلوق؟ فكتب إليه أبي «بسم الله الرحمن الرحيم، عافانا الله وإياك من كل فتنة، وجعلنا وإياك من أهله، ومن لا يرغب بدسه عن الجماعة، فإنه إن يفعل فأولئ بها وبعمة، وإلا يفعل فهي الهنكة، وليس لأحد عني الله بعد المرسلين حجة، ومن يرى أن الكلام في القرآن بدعة، تشارك فيها السائل والمجيب، تعاطى السائل ما ليس له، وتكلف المجيب ما ليس عليه، ولا أعظم حالاً إلا الله، والقرآن كلام الله، فأنه أنت والمحتشمون فيه، إلى ما سمع الله به تكن من المهتدين، ولا تسم القرآن باسم من عدك فتكون من الهالكين، جعل

(١) الشريعة ص ٧٧، والأسماء والصفات ٢٤٦

(٢) الشريعة ٧٩

(٣) من كلام لابي عجيل، انظر الاذات الشريعة ٢٠٤/١

(٤) السالك الكرى ٢٠٥/١٠، والشهد ١٨٦/٢٤

(٥) لاسر، يه ٨٦، و نظر مجموع الصاوي ١٧٤/٣ والمصدر السلفه في كلام خير نبيه ص ١٩٦

الله من الدين بحشونه بالعيب وهم من الساعة مشفقون»^(١)

وقد في (التمهيد) في شرح حديث الموطأ «مَنْ مَرَّ لَا فَبَيْعُ أَغْوَدُ نَكَمَاتِ اللَّهِ الثَّامِتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَإِنَّ لِي بَصْرَةً شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ»، قال «في الاستعانة بكلمات الله أيقن دليل على أن كلام الله منه تبارك اسمه وصفة من صفته، ليس محبوق، لأنه محال أن يستعاد بمخلوق، وعلى هذا جماعة أهل السنة»^(٢) وقد في موضع آخر «لقرآن عندما كلام الله، وصفة من صفاته غير محبوق»^(٣) وقد ابن أبي ريد في (الرسالة). «ومما يجب اعتقاده أن القرآن كلام الله، ليس محبوق فيسب، ولا صفة لمحقوق فيفقد»^(٤)

قد الحافظ في الفتح. «ومن شدة اللبس في هذه المسألة كثرت نهى السلف عن الحوص فيها، وكتبوا باعتقاد أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يزدوا على ذلك شيئاً، وهو أسلم الأقوال» وقال «والمحفوظ عن جمهور السلف ترك الحوص في ذلك والتعمق فيه والاقتصار على القول بأن القرآن كلام الله غير محبوق، ثم السكوت عما وراء ذلك»^(٥)

لما حارحت المعتزلة بيدعة خلق القرآن، وتنشأ الحكام مذهبهم فتنا العنماء به وامحبوهم، ومن لم يقل بخلق القرآن سجنوه وعذبوه، ومن ذلك الوقت صار أهل السنة يطبقون عدرة القرآن كلام الله غير مخلوق، للرد على الجهمية والمعتزلة، الذين يقولون بحسب القرآن، وقد فصل الأشعري رحمه الله تعالى في (الإبانة) الأدلة في وجوه الرد عليهم^(٦)

التفصيل في مقام التعليم

أما في مقام لتعليم ورد الشئ، فكانوا يفصلون الكلام بوجوب الإيمان بأن القرآن كنه كلام الله غير مخلوق، مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور، مقروء

(١) التمهيد ١٩/٢٣٣

(٢) التمهيد ٢٤/١٨٦

(٣) التمهيد ١٩/٢٣١

(٤) رساله ابن أبي ريد ١/١١٩

(٥) فتح الباري ١٥/٤٢١ و ٤٦٧

(٦) الإبانة ص ٢١ وما بعدها

باللسنة، تكلم الله به وألقاه إلى رسول الله ﷺ بواسطة جبرائيل عليه الصلاة والسلام ، وهو الذي بين دفتي المصحف، ويقرؤه الناس بأصواتهم فيما يقرءونه ويحفظونه ويسمعه الناس منهم هو كلام الله، لأن الله تعالى سمى اللفظ المسموع من القارئ كلام الله، قال تعالى ﴿وَيَنْ أَعْدُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَتَهُ﴾ [التوبة ٦]، وقال تعالى ﴿لَقَدْ هُمُ مَانَكُمُ يَصْنَعُ فِي صُورِ كَلْبٍ أَوْ نَوْ كَلْبَةٍ وَمَا يَحْكُمُ بِأَيِّمًا إِلَّا الْفٰطِمٰوْنَ﴾ [المكوت ٤٩]

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ «أَنَّهُ كَانَ يَهْتَمُّ أَنْ يُسَافِرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ مَخَافَةً أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ»^(١)، والمراد ما في المصحف وأجمع السبع على أن الذي بين دفتي المصحف كلام الله^(٢)، ولأن الكلام إنما يستلزم ابتداء قوله، لا لمن قرأه وأداه، ويدل عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب، قلوا سمعنا كلام الله، وقرأوا بين أن يقرأ كلام الله تعالى وبين أن يقرأ قصيدة من الشعر، فيقولون في الأول سمعنا كلام الله، وفي الثاني سمعنا قصيدة فلا.

وأما قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة ٤٠]، فالمراد به قول رسول مملع عن الله، ولفظ الرسول واشتقاقه يشعر بذلك، بدليل قوله تعالى في الآية بعد ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْكَافِي﴾ [الحاقة ٤٣]

أما فعل السلاوة الذي هو الصوت، فهو صوت القارئ، وهو حادث محذوق، والكلام الذي يقرؤه صاحب الصوت كلام الباري؛ لأن الصوت فعل العبد، وأفعال العباد كلها محذوقة، وكذلك المداد المكتوب به القرآن، والنوح والنور، وحده المصحف، كله حادث

رؤية الباري ﷻ

اتفق أهل العلم على أن الله تعالى لا يراه أحد في الدنيا بقطة بعيه، فقد سأل موسى ﷺ أن يرى ربه، فقال له ﴿لَنْ تَرٰهُ﴾ وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ

(١) مسلم حديث رقم ١٨٦٩

(٢) انظر فتح الباري ١٥/٤٦٧

تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ ﷻ حَتَّى يَمُوتَ»^(١) وقد احتسب الصحابة ومن بعدهم في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج رؤية عيس، فجاء في كلام ابن عباس ما يمكن حمله على إثباتها وفيها^(٢)، وفتها عائشة، وهو الصحيح، حتى إن عثمان بن سعيد الدرمي حكى إجماع الصحابة على نفيها، فقد جاء في الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «قُبْتُ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَا أُمَّتَاهُ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقُلْتُ لَقَدْ قُبْتُ شعري مِمَّا قُبْتُ أَيْبُنْ أَنْبَ مِنْ ثَلَاثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ فَقَدْ كَذَبَ؟ مِنْ حَدِيثِكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأْتُ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وَمَا كَرَّ لَشَيْءٍ أَنْ تُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَجِبًا وَ مِنْ وَدِّي حِمَابٍ» ، وَلَكِنَّهُ رَأَى حَنَرِيلَ ﷺ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ»^(٣)، وفي حديث أبي درعد مسلم، قال «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»^(٤)

ورؤية الدرمي ﷺ في الحمام حادثة عند الجمهور، ونحتسب الصفة التي يرى عبيها ﷺ في لقاء باحتلاف صفة الرائي، فمن حاله في الذين والاستقامة وطاعة الله ورسوله حسنة، براه على أحسن صورة، كما راه رسول الله ﷺ، على ما دل عليه حديث معاذ الأنبي، ومن حاله دون ذلك راه بحسب حاله، روى معاذ بن جبل حديث احساس النبي ﷺ عن صلاة الصبح حتى كادت الشمس أن تطمع، وفيه قوله ﷺ «فَمَنْتُ فِي صَلَاتِي، فَانْتَفَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»^(٥)

الأسماء الحسنى وإحساؤها

قال تعالى ﴿رَفَعْنَا الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الْبَيْنَ لَنُجِيبَنَّ عَنْ أَتَمَّيْنَهُ سُبْحَرُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠]، وقال تعالى ﴿هَلْ ادْعَوْا اللَّهَ أَوْ دَعَوْا كَرِهَ لَكُمْ مَا تَدْعُوهُ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء ١١٠]، وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «إِنْ

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٣١

(٢) مجمع بحاري ٦ ٥٠٦

(٣) مسند حديث رقم ٤٨٥٥

(٤) مسلم حديث رقم ١٧٨

(٥) مسند سريسي حديث رقم ٢٢٣٥ و٥٠ - حس صحيح

لِللَّهِ تَسْمَةً وَتُسَمَّى اسْمًا وَابْنًا إِلَّا وَاحِدًا مِّنْ أَخْصَاةَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)

وإحصاؤه عددا وحفظها، مع الاعتناء بمعانيها والتعظيم لها، والعمل بما يقتضيه كل اسم منها، فالحكيم يقتضى تسليم الأمر له - لأن جميع أمره عنى وفق الحكمة، والقدير تقتضى قدرته أن تحشى سطوته - لأن كل شيء فى مملكه، وتحت طوله، والعليم يجب أن لا يُعصى لا سرا ولا جهرا - لأنه مطيع عنى الإحصاء والقنوت، وهكذا

ومن الأسماء ما يستحب للعد أن يقتدى بها، ويتحلى بمعانيها، كالتوحيد والعفو والكريم، ليؤدي حق العمل بها، وبذلك يحصل الإحصاء العملي مع الإحصاء القولى، الذي هو حفظها والدعاء والتعود بها، وما تقدم هو أرفع مراتب إحصائها، وأدنى مجرد حفظها باللسان، ليشي المسلم على الله بجميعها قال القرطبي «المرحوم من كرم الله تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء عنى إحدى هذه المراتب، مع صحة الية أن يدخله الله الجنة»^(٢)

ولم يقع فى الصحيح سرد هذه الأسماء، وحرَّج الترمذي وغيره الحديث سرد الأسماء التسعة والتسعين، من طريق الوليد بن مسلم، وقال «هذا حديث غريب، حدث به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا يعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة»^(٣)

ورواية الوليد هذه عن شعيب بن أبي حمزة أقرب الطرق إلى الصحة، وعليها اعتمد أكثر العلماء، ولما راجح أن سرد هذه الأسماء وتعيينها فى الحديث ليس من كلام النبي ﷺ، وإنما هو مندرج من جمع بعض الرواة، قال الداودي ثم شب أن النبي ﷺ عين الأسماء المذكورة وقال ابن العربى يحتمل أن تكون الأسماء تكمة لمحدث المرفوع، ويحتمل أن تكون من جمع بعض الرواة، وهو الأظهر عندي^(٤)، وهذا هو الصحيح

(١) البخاري مع فتح الباري ١٧/١٤٨

(٢) انظر فتح الباري ١٧/١٤٨، ١٣/٤٧١، وتفسير القرطبي ٧/٢٢٥

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ٣٥٠٧

(٤) انظر فتح باري ١٣/٤٧١، وعارضة الأحوي ١٣/٢٤

وقد جمعها غير الترمذي جمعا آخر استخرجه من القرآن وصحيح السنة منهم سفيان
 بن عيينة والإمام أحمد، وعليّ جمع الترمذي اعتمد أكثر العلماء وسيفها عنده هو
 الله^(١)، الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس^(٢) السلام^(٣) المؤمن^(٤)
 المهيمن^(٥)، العزيز الجبار المتكبر الخالق الباري^(٦) المصور^(٧)، العبد القهار الوهاب
 الرزاق الفتاح^(٨) العليم

القادر^(٩) الخافض^(١٠) الرافع^(١١) المعز^(١٢) المذل السميع^(١٣) النصير^(١٤) الحكيم^(١٥)
 العد^(١٦)، اللطيف^(١٧) الخبير^(١٨) الحليم العظيم^(١٩) الغفور^(٢٠) الشكور^(٢١) العلي^(٢٢) الكبير
 الحفيظ^(٢٣) المتقي^(٢٤) الحسيب^(٢٥) الجليل^(٢٦) الكريم^(٢٧) الرقيب^(٢٨)

(١) له معناه محمود الذي يباهى كل شيء أي يمدّه كي الخليل . من آله يائه عبد، وإله عليّ ورد فعاد بمعنى
 ما يره أي محمود وألهم أحده ومنه وأنه إله الله كمرح فرح ولاد، واسم الله علم عليّ لإله محمود
 نحن، ووجب وجود نصفه يكن صفات الكتاب، نهر . سبحانه بهذا الاسم لا يشاركه فيه غيره، فلم
 يسم به غيره كما قال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَى﴾، وهذا بخلاف إله، فإنه يطلق عليّ لإله نحن وعليّ ما
 يحد من دونه من الأصنام

(٢) القدوس بمعنى عر تشبهه، كالحاجة والافتقار إلى الزوجه والولد وغير ذلك

(٣) السلام الذي سلم من كل عيب ويرى من كل آفة

(٤) المؤمن الذي أخبر عن نفسه بأنه حق وخلق وأخبر عن عباده المؤمنين بأنهم عليّ صدق في عبادهم
 الإسلام

(٥) المهيمن الرقيب والحافظ والمطر

(٦) الباري المعنى

(٧) المصور هو الذي خلق خلقه بصور مختلفة

(٨) الفتاح الحاكم بين عباده، والناصر لمن يريد نصرته، والفتاح لكل أبواب لمملكته

(٩) القادر والناسط الذي يوسع الأرض عن من يريد ويضيقه عليّ من يريد

(١٠) الخافض الرافع الذي يهر من يشاء من عباده، ويد ويضع من يشاء

(١١) المعز الحكيم

(١٢) المذل الذي له أن يفعل ما يريد ولا يظلم عنه أحد

(١٣) اللطيف الحكيم بعباده، العالم بسرائر الأمور

(١٤) العليّ العليّ الذي يعلو من أعلاه ويغطي عنه الآخر الكثير مع شيء عليّ عباده

(١٥) الحفيظ الذي لا يسئ ما علمه، والمراعي لمن أراد حفظه من خلقه

(١٦) المتقي القادر

(١٧) الحسيب الكافي

(١٨) الرقيب الحافظ الذي لا يهمل عنه شيء

المحبب^(١) الواسع^(٢) الحكيم^(٣) الودود^(٤) المعيد^(٥) الساعث^(٦) الشهيد^(٧) الحق^(٨)
 الوكيل^(٩) القوي^(١٠) المتين^(١١) الولي^(١٢) الحميد^(١٣)
 المحصي^(١٤) المبدي^(١٥) المعيد^(١٦) المحيي المميت الحي القيوم^(١٧) الواحد
 الماجد^(١٨) الواحد الصمد^(١٩) القادر المقدر المقدم المؤخر^(٢٠) الأول الآخر^(٢١)
 الظاهر^(٢٢) الباطن^(٢٣) الوالي^(٢٤) المتعال^(٢٥) السر^(٢٦) الثواب^(٢٧) المستقم العفو

-
- (١) المحبب الذي يجب المصطر إذا دعاه
 (٢) الواسع واسع العلم والعنى والملك
 (٣) الحكم الذي يكون عمله في غاية الإثقان والإحكام، ولا تكون أعماله إلا لحكمه على وجه السداد
 (٤) الودود الذي يحب عباده المؤمنين ويحبه
 (٥) المعيد من المجد وهو الجلال والمنظمة والرفعة
 (٦) الساعث الذي يمت عباده عند الموت
 (٧) الشهيد الذي لا يجب عنه شيء
 (٨) الحق الموجود حقاً
 (٩) الوكيل هو الكافي والقائم على خلقه ما يصلحهم
 (١٠) القوي القادر
 (١١) الحس شديد القوة
 (١٢) الولي الناصر
 (١٣) الحميد الذي يسبح بحمد
 (١٤) المحصي المحيط علمه بكل شيء
 (١٥) المبدي المبتدع في خلقه على غير مثل من
 (١٦) المعيد الذي يمد الحلى إلى الموت ثم إلى الحياة
 (١٧) المؤخر لقائم بنفسه دوى احتاج والمقيم لغيره، والثاني فلا يرول
 (١٨) الواحد الماجد المهي القادر
 (١٩) الصمد الذي يلجأ إليه في الأمور ويقتصد في الحوائج، ولا يفتر إلى شيء
 (٢٠) المقدم المؤخر الذي يبر الأشاء مآربها فتد من يشاء ويؤخر من يشاء
 (٢١) الأول الذي لا أول وجوده والآخر الذي لا انتهاء لوجوده
 (٢٢) الظاهر بجمع ويرعب أدناه على ربوبته والظاهر بعلمه وعلمه على كل شيء سواه
 (٢٣) الباطن الذي لا تتوهم له كنه، المطلع على ما خفى وطم من الأمور
 (٢٤) الوالي المالك للأشاء المستولي عليها
 (٢٥) المتعالي علو ذات وفهر، السر عن صفات الحلى، المخالف للحوادث
 (٢٦) السر المحس إلى خلقه
 (٢٧) سواه سواه يرب على سواه ويشاء ويعمل توبه

الرءوف مالك لملك دو الجلال والإكرام^(١) المقسط^(٢) الجامع^(٣) العلي المعني
الصانع^(٤) المصدر النافع النور^(٥) الهادي البديع^(٦) الباقي^(٧) الوارث^(٨) الرشيد^(٩)
الصور^(١٠)

أسماء الله توقيفية وليست محصورة في هذا العدد

الصحيح أن أسماء الله تعالى ليست محصورة في هذا العدد التسعة
والسعين^(١١)، بل أسماؤه تعالى أكثر من ذلك، وأوصلها ابن العربي إلى مائة
وسنة وأربعين اسمًا، ولكن حُصِرَ هذا العدد التسعة والتسعين بالذكر لأن من أحصاه
دخل الجنة، فإن كثيرًا من أهل العلم على أن الأسماء التي من أحصاه دخل الجنة
ليست أسماء معينة، بل المراد من أحصى تسعة وتسعين منها على سبيل الدلّ دخل
الجنة، ومنهم من يجعلها معينة، وذهب ابن حزم إلى أن أسماء الله الحمسي ليست
إلا تسعة وتسعين اسمًا فقط، والصحيح خلافه

ويدل على عدم حصرها في التسعة والتسعين ما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه
عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ،
ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَا ضَرَفْتُ فِي حُكْمِكَ، عَذْلٌ فِي فَضَائِكَ أَسْأَلُكَ
بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلَنَتْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أُنْزِلَتْ فِي كِتَابِكَ،
أَوْ اسْتَأْذِنَتْ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِيحَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي،

(١) دو الجلال والإكرام الذي يستحق الإجلال والشكر، فلا يحسد فضله

(٢) المقسط العادل في حكمه

(٣) الجامع هو الذي يجمع الحلات بوجه التمام أو هو الذي يجمع صفات الممدوح

(٤) صانع هو الذي يصنع المصنوع أو يخلق المخلوق ويصور من يريد تصويره

(٥) النور الهادي إلى الحق

(٦) البديع الذي أبدع المخلوق على غير مثال سابق

(٧) الباقي الذي لا انتهاء لوجوده

(٨) الوارث الباقي بعد فناء المخلوق

(٩) الرشيد المرشد والهادي إلى الحق وكذلك هو في ذاته رشد لسلامة تسميته وتسميته عن نفسه وبعدها

(١٠) الصور الجسم، انظر شرح هذه الأسماء في (الاعتقاد)، لتسفيحي ص ١٧ وما بعدها، وعرضه لأحدوي

(١١) انظر أحكام القرآن (٧٩٧/٢)، والأسماء والصفات ص ٦

وَجَلَاءَ حُرْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُرْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا^(١)

وفي الموطأ عن كعب الأحبار أنه قال «لولا كلمات أقولهن لخففتي يهود حمراء، فليل له وما هن؟» فقال أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه، وبكلمات الله لدمات التي لا يجاوزهن مر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كُنْهَا مَا عَمِلْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا حَلَى وَوَبَّرَ وَدَرَأَ^(٢)، وقد ثبت في القرآن من الأسماء غير المذكورات في حديث الترمذي. الرب، والمولى، والبر، والمحيط، والكافي، والعلام، وثبت في السنة. العنان، العنان، السَّيْر، الجميل

ويحبر عن الله تعالى بأنه قديم، وليس صفة له، لأن القديم بطنى عنى ما لم يرل موجوداً، وعلى السابق لغيره وإن كان قبل ذلك غير موجود، فما يطنى عليه تعالى في باب الإحاد ليس توقيفاً، كالقدم والشيء والموجود والقيام بالنفس

أسماء الله لا تعرف إلا عن طريق الشرع

أسماء الله تعالى أعلام على ذاته المقدسة، كل اسم منها يدل على صفة له تعالى كما تقدم، فالرحيم يدل على صفة الرحمة، والتقدير يدل على القدرة، وهكذا، وهي لا تعرف إلا من جهة الشرع، لا يجوز لأحد أن يجهد فيها بإضافة اسم من عنده، فلا يسمي الله تعالى إلا بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الْبَيْنَ لِمَا حُدِّثُوا بِأَسْمَائِهِ سَيُخْرَجُونَ مَا كَانُوا يَمْسَلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠]، قال المفسرون من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة^(٣)، من ذلك تسمية الصاري له بالآب، وتسمية الفلاسفة له بالعلة الفاعلة، ونحو ذلك

ولا يجوز أن يطلق على الله اسم أو صفة توهم بقصاً، ولو أن أصل اشتقاق ذلك الاسم ورد بتصريف الله تعالى به في القرآن، فلا يطنى على الله تعالى بأنه رازع، أو دلي أو ماهد، أو ماكر، أو بان، أو مستهزئ، مع أنه ثبت في القرآن ﴿لَآتَتْ رَبَّهُمْ نَارٌ ثُمَّ نَحَّىٰ الرَّعِيعُونَ﴾ [الواقعة ٦٤]، ﴿وَالْأَرْضُ مَرَرَتْهَا فَبِئْسَ الْمَهْدُوتُ﴾

(١) مسند أحمد حديث رقم ٢٧٠٤

(٢) حوطاً ١٧٧٥

(٣) انظر تفسير القرطبي ٣٢٨/٧

[الذاريات ٤٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [الأنعام ٩٠]، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [الفرقة ١٥]، ﴿وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَهًا أَلْفًا وَلَافَةً خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران ٥٤]، ﴿وَالنَّفْسُ بِسَكَنٍ يَّابِتٍ مِن لَّدُنِّي يَوْمَ تَبُوءُ﴾^(١). ويقول إن لله عرشًا، ولا تقول له سرير، ويقول هو الحكيم، ولا تقول هو العاقل، ويقول عالم، ولا تقول عارف، ويقول خبير إبراهيم، ولا تقول صديق إبراهيم، بل يقتصر على ما ورد، ولا نقس عليه^(٢) ولا يجوز التسمي بالأسماء الخاصة بالله ﷻ، كالأرحم والنجار والقدوس، ولا التسمي بملك الملوك، لورود الهمي عنه في الصحيح عن النبي ﷺ، قال «أَخْبَنِي الْأَسْمَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ»^(٣)

اسم الله الأعظم

أنكر جماعة من العلماء تفصيل بعض أسماء الله تعالى عن بعض، وقالوا أسماء الله تعالى كلها عظيمة، ليس فيها اسم أفضل من غيره، لأن ذلك يؤدي عن اعتقاد بقصد المصنوع عن الأفضل، وهو لا يجوز ومن هؤلاء العلماء أبو جعفر الطبري، أبو الحسن الأشعري، وأبو حنيفة، والقاضي الباقلاني، وأبو الحسن الفاسي، ونسب هذا القول أيضًا إلى الإمام مالك، قال القاضي «ويصح له بأنه ﷻ نقل عنه دعاء في أشياء كثيرة فلم يستجب له، فلو كان عنده اسم أعظم لعلمه الناس وما حفي عنه، وكيف يعلمه الناس ولم يعلمه هو»^(٤) واحتجوا أيضًا بأن الآثار عن النبي ﷺ احتجبت في تعيين الاسم الأعظم، ولم يرد في واحد منها أنه اسم أعظم ولا شيء أعظم منه، فدل على أن المراد بالأعظم العظيم، فأسماء الله تعالى كلها عظيمة

وحمل هؤلاء الأحاديث التي ورد فيها لفظ الاسم الأعظم على أنه بمعنى العظيم، أو أن المراد بأعظميته زياده الثواب لمن دعا به، كما جاء ذلك في تعظيم بعض سور القرآن، حيث يروى منه زيادة ثواب القارئ، لا أن سورة فاصلة وسورة مفصلة وقيل

(١) الذاريات آية ٤٧، وانظر فتح الباري ١٣/٤٨١

(٢) انظر التمهيد ٧/١٣٦

(٣) البحاري حديث رقم ٦٢٠٥

(٤) انظر فتح الباري ١٣/٤٨٢، والمعار ١١/١٧٠، وعود العمود ٨/١٦

المراد بالاسم لأعظم كل اسم من أسماء الله تعالى دعا به أعد مسحوراً عظيمة
الله مستعرقاً، بحيث لا يكون في فكره حينئذ غير الله تعالى
وذهب جماعة من العلماء إلى أن في أسماء الله الحسنى اسماً أعظم، إذا دُعي به
تعالى به أحاب، أحقاء الله تعالى على الناس، يُدعوه بجميع أسمائه،
واحببت أقوال العلماء في تعيين هذا الاسم على أقوال^(١)، وأصحها من حيث السند
ما رواه الترمذي وغيره عن بُريدة الأسلمي، قال سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، وهو
يقول: «لَهُمْ يَئِىَ أَسْأَلُكَ بِأَمْرِ أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَخْذُ الصَّمَدُ، الَّذِي
لَمْ يَنْدُ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، قَالَ فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ سَأَلَ إِلَهَهُ
بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَحَاب، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ^(٢)

(١) انظر فتح الباري ١٣/٤٨٣

(٢) الترمذي حديث رقم ٣٤٧٥، ٥/٥١٥ وقال حديث حسن غريب

الإيمان بالملائكة

من أمور العيب التي يجب على المسلم أن يؤمن بها الإيمان بوحود الملائكة، قال تعالى ﴿وَمَنْ الرُّسُولُ يَمَّا أُسِرَ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ﴾ [الفرقة: ٢٨٥]، وقد جعل الله تعالى عدم الإيمان بالملائكة كفراً، فقال تعالى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وفي الصحيح من حديث حبريل المتقدم في تعريف الإيمان «أَنْ تُؤْمِنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله»^(١)

صفات الملائكة

الملائكة جمع ملك والناء للمبالغة، وليست للتأنيث، ولعظها مشتق من الألوة، ومعناه الرسالة، فهم رسل الله تعالى . والملائكة مخلوقات بورانية لطيفة، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتوالدون، ولا يوصعون بدكورة ولا أبوة، أعطيت قدرة على التشكل، ومسكنها السماوات، مجبولون على الطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وفي الصحيح قال ﷺ «خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ»^(٢)، وقال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَسَوْا فُؤَا أَنفُسِكُمْ وَأَفْئَكُ مَرَا وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْخِمَارَةُ عَنْهَا مَلَكُكُمْ جَلَّاطٌ شَدَادٌ﴾ [التحریم: ٦]، وقد تعالى ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] وقد أنكر الله تعالى على الكافرين حين جعلوا

(١) مسلم حديث رقم ٨

(٢) مسلم ٢٢٩٤/٤

الملائكة إداً، فقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ مِنْكُمْ شَاهِدًا فَهُمْ لَا يَمُنُّ إِلَّا بِهِمْ وَهُمُ الْعَالَمُونَ﴾ [الزحرف ١٨]، وقد سمى الله تعالى ملائكته رسلاً لأنهم يبعثون أوامره بالوحي فقال تعالى ﴿بَلْ وَرُسُلًا مِثْلِهِمْ يَكْفُرُونَ﴾ [الزحرف ٨٠]، وقال تعالى ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى ٥١]، وقال تعالى ﴿تَلَقَّوْنَهُمْ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْبَعٍ مَتَّى وَنُتَ وَرَبُّنَّ﴾ [فاطر ١]

وقد جعل الله تعالى للملائكة قدرة على أن تتصور بصورة البشر، قال تعالى في سورة مريم ﴿فَارْتَدَّتْ إِلَيْهَا رُوحُهَا فَطَمَثَتْ لَهَا نَافَثًا سَوِيًّا﴾ [مريم ١٧]، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يرى حبريل في صورة رجل من أصحابه اسمه دحية الكلبي^(١)

ففي الصحيح من حديث حبريل المتقدم «بِإِذَا سَمِعَ عَبْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَابَّ يَوْمَ إِذْ طَمَعَ عَيْنُ رَجُلٍ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ الشَّعْرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِمَّا أَحَدٌ حَتَّى حَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسَدَ رُكُوتِهِ إِلَى رُكُوتِهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَحْدَيْهِ إِلَى أَنْ قَالَ يَا هَؤُلَاءِ أَتَعْرِفُونَ السَّائِلَ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَغْنَمُ قَالَ فَإِنَّهُ حَبْرِيْلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(٢). ومن الصفات التي ذكرها الله -تعالى- للملائكة في القرآن أن لها أجنحة فقال -تعالى- ﴿تَلَقَّوْنَهُمْ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْبَعٍ مَتَّى وَنُتَ وَرَبُّنَّ﴾ [فاطر ١]

وحاء في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى حَبْرِيْلَ لَهُ سَمَاءَةٌ حَمْرٌ»^(٣)

وملائكة له لا يحصى عندهم إلا الله، قال تعالى ﴿وَمَا يَعْزُدُكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المشر ٣١]، وقال ﷺ «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَلَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ حَبْنَتَهُ سَاحِجًا لِلَّهِ»^(٤)، وقال الله تعالى ﴿تَكَاذَبَتِ السَّمَوَاتُ لِمُعْظَمَاتِ

(١) نظر من سباني حديث رقم ٢٩٩١

(٢) مسلم حديث رقم ٨

(٣) شعري مع فتح ساري حديث رقم ٣٢٣٢

(٤) شعري حديث رقم ٣٣١٢، وقال حديث حس عربي، والألطف صوت الأتات (جمع شب) لرحل صمغ على قدر سنام العير) من الثقل فوقها، وهو كتابه عن كثرة الملائكة في السماء، حتى كأنها أقال سماء أكثرها

مِنْ قُرْبِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ سَاجِدُونَ يُحَمِّدُونَ رَبَّهُمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿الشورى ٥٠﴾

وفي الصحيح من حديث المعراج «فَرَفَعَ لِي الْيَتُّ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْيَتُّ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَمُودُوا إِلَيْهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ»^(١)، واليبب المعمور بيت في السماء للعبادة حُرِّمَتْ كَحُرْمَةِ الْكَعْبَةِ فِي الْأَرْضِ

وظيفة الملائكة

أعمال الملائكة ووظائفهم عدا عداة الله كثيرة، فمنهم من هو موكل بسي آدم من تصويره في رحم أمه، إلى حفظه وكتابة أعماله، والاستغفار والدعاء له، ثم قص روحه إذا حصر أحله. وفي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «... إِذَا مَرَّ بِالتُّنْقِةِ يَتَنَانٍ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ يَا رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ»^(٢)، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ، قَالَ: «يَتِمَاتَبُونَ بِكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْمَصْرِ ثُمَّ يَرْجِعُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(٣)، وقال تعالى ﴿وَلَمَلَائِكَةُ سَاجِدُونَ يُحَمِّدُونَ رَبَّهُمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى ٥٠]، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ، قَالَ: «الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي صَلَاةٍ مَا لَمْ يُحَدِّثْ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَتْ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ لَا يَنْتَمُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلَاةُ»^(٤)، وقال تعالى ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ رِجَالٌ﴾^(٥)، وهي الملائكة تنزل على الرسل وتلقي إليهم بالوحي وتعرف بين

(١) بخاري مع فتح بخاري حديث رقم ٣٢٠٧

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٤٥ وانظر البخاري مع فتح البخاري ١١٤/٧

(٣) مسلم ٤٣٩/١، وانظر صحيح البخاري حديث رقم ٥٥٥

(٤) البخاري مع فتح البخاري ٦٥٩

(٥) المرسلات آية ٥، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٥٨٧/٣

الحق والباطل. وقال تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كَرِهُمَّا كَيْفَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الاعطار ١٠-١٢]، وقال تعالى ﴿مَا نَبْطِئُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ [سورة ق ١٨]، وقال تعالى ﴿قُلْ بِتَوْفِيقِ الْمَلِكِ الْقَوِيِّ وَكَأَنِّي إِلَهِ رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ﴾ [السجدة ١١] إلى غير ذلك من الأعمال الأخرى التي تقوم بها الملائكة، كدفع العصاة، والدعاء للمطيعين، ففي الصحيح عن النبي ﷺ «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» تسعة شُعْبَةً وَأَتُو حُمْرَةً وَأَتُو حُمْرَةً وَأَتُو دَاوُدَ وَأَتُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ^(١)

ومن الملائكة ملائكة موكلون بأعمال أخرى هي كون الله الواسع في السماء والأرض كالسحاب والمطر، والرياح والجمال والسمار، والجنة والنار، والعرش والموح المحفوظ إلخ

قال تعالى ﴿فَالْتَدِيرْتُمُ الرُّءُسَ﴾ [النارعات ٥]، وقال تعالى ﴿فَالْقَسِيمَ آمُرُ﴾ [الدريات ٤]، وهي الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وتوكل بأوامر الله وتعيدها، وقد تعالى ﴿وَنَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحاقة ١٧]، وقد تعالى ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةُ جَلَّالٌ شَدِيدٌ﴾ [التحریم ٦] وفي الصحيح أن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت للنبي ﷺ «هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِنِّي إِلَيَّ مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَقِ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَنَتْنِي فَتَطَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَتَذَاني فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجَبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَتَذَاني مَلَكُ الْجَبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ بِمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْحُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَخَدُّهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا^(٢) وفي الصحيح أن النبي ﷺ «قَدْ رَأَى جِبْرِيلُ فِي صُورَتِهِ، وَخَلْقُهُ سَادًّا مَا يَبِينُ الْأُنْثَى»^(٣)

(١) مسند أبي داود مع فتح ساري ٣٢٣٧

(٢) البخاري مع فتح ساري حديث رقم ٣٢٣١

(٣) البخاري مع فتح ساري حديث رقم ٣٢٣٤

وفي الصحيح من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ . . . تَحْرُسُ الْمَلَائِكَةُ الْمَدِينَةَ مِنْ الدَّجَالِ^(١). والمقصود مما تقدم أن الملائكة رسل الله تعالى ، ينفذون إرادته في حفظ الكون بتقسيم أموره وتديرها ، وذلك بحفظ النواميس والقوانين التي سنها الله تعالى ليسير عليها نظام الله العجيب في مخلوقاته وفي الأسباب العديدة، قال تعالى ﴿فَالْمُدْرِيْنَ أَمْرًا﴾ [التارقات ٥]، وقال تعالى ﴿فَالْمَقْسِيْنَ أَمْرًا﴾ [الدريات ٤]، وقد أراد الله تعالى إبطال مفعول الأسباب العادية، أدن للملائكة أن تعد خلاف ذلك، فتطويع الجليل على أهل الأرض، أو تجعل أعلى الأرض سدة، أو تمنع في الصور فيصنع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، إلى غير ذلك من الأعمال الموكولة إلى الملائكة، كصبر المؤمنين مع فنة عددهم وعدتهم، وإلقاء الرعب والخوف في قلوب أعدائهم، مع كثرة حدهم ووفرة سلاحهم، وقصص الأرواح إذا جاء أحلها، فيقاف الله الأسباب التي تمد اليد بالحياة. وبذلك يعلم أنه لا تعارض بين ما يراه الناس بمقتضى العلم الذي كشفه الله لهم، من ربط الظواهر الكونية بأسباب وبنواميس ثابتة، كبرول المطر وتسجير الرياح ودور اللافلاك، وبين إسناد ذلك إلى الملائكة كما جاء في الأحاديث وتوكيدها بحفظ ومراقبة تلك النواميس إلى أن يريد الله تعالى خلاف ذلك، فسعد الملائكة إرادة الله تعالى . قال تعالى : ﴿وَمَا تَشْعُرُونَ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا يَكُنْ آيَاتٍ وَمَا حَفَا وَمَا يَكُنْ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ قَبِيحًا﴾ [مريم ٦٤]

ما يجب الإيمان به من الملائكة إجمالاً وتفصيلاً

يجب الإيمان إجمالاً بجميع ملائكة الله ، والتصديق بهم على الصفة المقدمة التي خلقهم الله عليها من عبادة وأعمال موكولة إليهم

ويجب الإيمان تفصيلاً ببعض الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن أو السنة، والتصديق بأنهم يقومون بالأعمال والوظائف التي أسندها الله تعالى إليهم، ومنهم حبريل وميكائيل، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٩٨] وحبريل هو الموكل بالوحي، قال تعالى ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء ١٩٤]، فالروح الأمين جبريل عليه السلام، ومنهم إسرافيل،

(١) البخاري مع فتح الباري حديث رقم ٣٣٣٩

وهو الموكل بنفح الصور بديرًا بين يدي الساعة، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية التي يحيي الله تعالى عبده الخلائق، قال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَخْرُجُونَ﴾ [الرمر ٦٨]، ومنهم ما لك حارون لدر، قال تعالى ﴿وَيَاذُوا نَفْسِكَ بِقَعْنٍ عَسَىٰ رَبُّكَ قَالَ يَذْكُرَ مَكْشُوتٌ﴾ [الرعر ٧٧]، ومنهم ملك الموت الذي يتولى قصص الأنفس إذا جاء أحدها، قال تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ أِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة ١١]، ولم يرد في القرآن أو السنة الصحيحة اسمهم وورد في بعض الآثار وكتب التفسير أن اسمه عزرائيل، ولا تعارض بين هذه الآية التي تفيد أن الذي يوفى الخلائق ملك الموت، وبين ما جاء في قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الرمر ٤٢]، وقوله ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ هَوَّيْ عَسَاوِيٍّ وَزَيْرِيْلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام ٦١]، فإن ملك الموت سافر قصص الروح، وذلك بأمر الله تعالى، ثم تسلم روح المؤمن إلى ملائكة الرحمة، وروح الفاجر إلى ملائكة العذاب بعد قصصها، كما جاء في الحديث، فإنه سوفى الأنفس، لأنه هو الأمر المقدر، ورسول الله من الملائكة يتوفون الأنفس، لأنها تسلم إليهم عند قصصها، ومنذ الموت يتوفاها، لأنه الماشر لقصصها، وبذلك تسلم النصوص من التعارض ويستقيم فهمها.

ويجب التصديق بجميع الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن والسنة، والتصديق بالأعمال التي أوكلها الله تعالى إليهم، مثل الكرام الكاتبين والحفظة، قال تعالى ﴿وَلِإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانطار ١٠، ١١]، وفي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينَةً مِنَ الْجِنِّ، قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ^(١)﴾

تفضيل المطيع من بني آدم على الملائكة

والصحيح أن المطيعين من سى آدم أفضل وأكرم عند الله تعالى من الملائكة، لأن الله تعالى خلق آدم بيديه تكريمًا له كما جاء في الحديث، ولم يثبت ذلك

(١) مسلم حديث رقم ٢٨١٤

للملائكة ، ولأنه لما خلق آدم أمر الملائكة بالسجود له ، وعلمه الأسماء كلها ، فدل على تفضيله على الملائكة ، ولأن طاعة الملائكة معبوثون عندها ، فهم لا يقدر على المعصية بأصل خلقهم ، فليست لهم إرادة تارعههم إلى المعصية ، بخلاف الإنسان الذي يكاد الشهوات المحركة فيه ، وقد أحر الله تعالى عن حال المؤمنين في الجنة بما يفيد تكريم الملائكة لهم ، فقال تعالى ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ ﴾ [الرعد ٢٤]

الإيمان بالأنبياء والرسل

وظيفة الرسل

يجب الإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله، والاعتقاد بأن الله تعالى أرسلهم مشيرين ومدرسين، وأنهم جاءوا بالعدل والرحمة والهدى ومحنة الناس، والحرص على ما ينفعهم، وإرشادهم إلى الحق والخير، وتحذيرهم من الضلال والشر، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، قال تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَتْلَىٰ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِن دُونِهِمْ أَمَّا فِيكُمْ عَمِلُوا قِسْماً﴾ [النساء ١٦٥]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب ٤٥]، وقال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨]

وجوب طاعتهم والإيمان بهم

يجب على الناس حقيقاً طاعتهم ومحبتهم وقبول تعاليمهم وهديتهم، فإن طاعتهم من طاعة الله ﷻ، ومحبتهم من محبته، قال تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء ٨٠]، وقال تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران ٣١]، وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء ٦٤]

والإيمان بجميعهم على النحو المتقدم واجب، لا يصح إيمان المسلم بدونه، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَمِمَّا أَسْرَأَ إِلَيْهِ مِن زِينَتِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آتَمَنَ بِذَنبِهِ وَكَتَبَهُهُ وَرُسُلُهُ لَا تَمُرُّ بِكُمْ أَنفُسُهُم يَوْمَ تُرْسَلُونَ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِنَّكَ الْقَهِيدُ﴾

[القرة ٢٨٥] ومن فرق بينهم، فأمس بعضهم وكفر بعضهم، ولو بواحد منهم فهو كافر، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِسَمْعٍ وَنُكْفِرُ بِسَمْعٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء ١٥٠]

الإسلام دين الأنبياء جميعاً

يحب الاعتقاد بأن دين الأنبياء جميعاً هو توحيد الله تعالى، والدعوة إلى عبادته، والاستسلام له، وهو معنى ما جاء في القرآن أنهم جميعاً كانوا مسلمين، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢٥]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ سَنَّا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَمُذِرٌ﴾ [التحليل ٣٦]، وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَا مِنْ سَبِيلٍ فَتَنُ وَلَقَدْ اصْطَلَفْنَا فِي لُذْيَا وَإِلَهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ [القرة ١٣٠]، فعلى أهل الأديان أن يؤمنوا بالأنبياء جميعاً، وما جاءوا به حتى يكونوا مسلمين، وعدم الإيمان بواحد من الأنبياء هو كفر بجميعهم، فمن كفر بمحمد ﷺ وكذبه، فقد كفر بجميع الأنبياء، ولا يسمى مسلماً، ولو آمن إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ومن لم يؤمن بعيسى أو موسى عليهما الصلاة والسلام، فهو كافر بجميعهم أيضاً ولو ادعى أنه يؤمن بمحمد ﷺ، ولا يكون مسلماً، قال تعالى عن الذين يفرقون بين رسل الله تعالى، ويقولون يؤمن بعض ونكفر بعض ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًّا﴾ [النساء ١٥١]، وقد أخذ الله الميثاق على النبيين جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويصروه، قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْكُمْ كَيْفَ كَانَ عَلَى الْكُفَرَاءِ وَقَدْ آمَنُوا بِاللَّهِ بِمَا نَزَّلَ فِي الْكِتَابِ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَيَكُونَنَّ مِنْكُمْ مَنَّانٌ﴾ [البقرة ١٧٧]، وقال لعمر ﷺ ﴿وَالَّذِي تَقِي بِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ ابْتَغَمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الْأَمْرِ وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة ١٣٧]

الرسول والنبي

من أهل العلم من لا يرى فرقاً بين الرسول والنبي، فكل منهما مرسل لسمع، ودليته قول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج ٥١] ومهم من يفرق بينهما، فالرسول هو من أوحى الله تعالى إليه بشرع وأمره بتبليغه للناس والنبي هو من أوحى الله تعالى إليه شرع، ولم يأمره بتبليغه للناس، بل ليتعده في حاشية نفسه، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، بينهما عموم وحصوص مطلق، فالنبي أعم، والرسول أضيق.

قال القاضي عياض وحجتهم من الآية السابقة نفسها، حيث فرق بين الاسمين، ولو كنا شيئاً واحداً لما حسن تكرارهما في الكلام التليغ، ومعنى الآية عنى هذا وما أرسلنا من قبلك من رسول إلى أمة، أو نبي ليس مرسلًا إلى أحد^(١) والسورة نعمة بمن الله بها على من يشاء من عباده، ولا ينبغي أحد باعتقاده أو عدمه أو استعداده العقلي، والوقوف في معرفتها إنما هو عنى إعلام الله وروحه لنبي بأنه جعه نبي، لا بما دون ذلك، كمجرد إحساس الإنسان نفسه أو عدمه بالسورة.

وجميع رسل الله كلهم من الرحائل، ولم يرسل الله تعالى شيئاً قط، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل ٤٣]

عدد الرسل وما يجب الإيمان به إجمالاً وتفصيلاً

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ نَمْ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [عنقر ٧٨]

وصحح ابن حبان حديث أبي ذر رضي الله عنه أن عدد الأنبياء مائة وعشرون ألفاً، منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً^(٢)

فيجب الإيمان إجمالاً بجميع أنبياء الله تعالى ورسله الذين أوحى الله تعالى إليهم، بأن يؤمن المسلم بجميعهم، من عرف منهم ومن لم يعرف، ويجب الإيمان

(١) انظر اشعاع ١/ ٢٣٢

(٢) موارد الطمان ص ٥٠٨

عندها^(١)، قال تعالى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ نَحْنُ لَهُ قَابَ قَبٍ وَهُدًى﴾ [طه ١٢١، ١٢٢]، وقال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْسَدُوا﴾ [الأنعام ٩٠]، وقال تعالى ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم ٤١]، وقال تعالى ﴿وَلَيْكَ لَعْنُ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ٤]، وقالت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله ﷺ «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ»^(٢)، وقال أنس «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا»^(٣)

ويحوز في حق الرسل كل الأعراض الشريفة التي لا نحل بالمروءة، كاللوم والسب، واللعن والجوع والعطش، ويتعرضون للأذى والإساءة من قومهم في سبيل دعوتهم إلى الله تعالى، وفي المعارك والحروب التي يحوصلها مع أعدائهم، قال تعالى ﴿إِنْ يَعْصِكُمْ فَرِحَ فَقَدْ مَرَّ الْقَوْمَ فَفَرِحَ مِثْلُهُمْ وَلَقَدْ الْآيَاتُ بُدِّلَتْهَا بَيْنَ الْفَاسِقِ وَالْعَاصِ﴾ [الأنعام ١٤٠]، وقال تعالى ﴿وَيَوْمَ حَسْبِيَ إِذْ أَفْجَعَكُمْ كَذَّبَكُمْ فَلَمْ تُنْقِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذِرِينَ﴾ [٥٥] ثُمَّ أَرْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَكُمْ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ [التوبة ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبُغْوَكَ لَطَعَامَ وَبَشْتُونَ فِي الْآسَافِ﴾ [الفرقان ٢٠]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد ٣٨]، وتصيبهم الأمراض ويموتون، وقد يقتلون بغير حق، قال تعالى عن بني إسرائيل ﴿وَقَتَلَهُمُ الْآسِيكَةُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الأنعام ١٥٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَمِثْلُ نَبِيِّكَ﴾ [الزمر ٣٠]

فضل نبينا محمد ﷺ

فضل الله تعالى بعض الرسل على بعض، قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا مِثْلَهُمْ عَلَى بَنِيهِمْ مِنْ كَلَمِ اللَّهِ وَرَفَعْنَا فِيهِمْ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام ٢٥٣]، وأقصدهم جميعاً

(١) هذا ما عده مذهب الفقهاء والمكسبين والمحدثين من السلف والخلف، قال لقاضي عياض وذهب جماعة من أهل التحقيق من الفقهاء من أنبأ إلى عصمتهم من الصائغ كلها، قال وهذا المذهب هو الحق، نظر

شرح مسلم ٥٤/٣

(٢) مسند أحمد حديث رقم ٢٢٠٨٠

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٢٦٠٣

سيدا محمد ﷺ، جاء في الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ»^(١)، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى كِنَانَتَهُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاضْطَفَى قُرْنَتَهُ مِنْ كِنَانَتِهِ، وَاضْطَفَى مِنْ قُرْنَتِهِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاضْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٢)

وإحداه ﷺ عن نفسه بالسيادة من تمام التحدث بسعة الله تعالى عليه، وتعم نصحه للأمة، ليعرف الناس حقه ويرلوه مكرته، خصوصاً أنه لا شيء بعده بحرب فضله كما أحبر هو بفضل الأنبياء قبله

عموم رسالته ﷺ وأنه خاتم النبيين

يحب الإيمان بأن سيداً محمدًا ﷺ آخر الأنبياء وأنه لا نبي بعده، ومن ادعى السوء بعده فقد كفر وكذب الوحي قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَحَاشَ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَحِيَّةُ الْغَافِقِينَ﴾ [الأحزاب ٤٠]، وفي الصحيح قال ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَحْلِ بَنِي يَثَرٍ فَأَخَصَّتْ وَأَجْمَلَتْ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَةٍ مِنْ رَأْوِيَةٍ فَبَحَلُ النَّاسُ يَطْوُونَهَا بِه وَيَنْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَا وَضَعْتَ هَذِهِ اللَّبَتَ، قَالَ فَأَنَا اللَّبَتُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(٣)

وفي الصحيح قال ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي، الَّذِي يُنْحَى بِِي الْكُفْرُ، وَأَنَا الْعَاشِرُ الَّذِي يُخْشَرُ النَّاسُ عَلَى عَقْبِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ»

كما يحب لإيمان بأن سيداً محمدًا ﷺ معوث إلى الناس كافة، عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم وأصفرهم، وذلك من الأمور المعلومة في دين الإسلام -لضرورة- لا يسع المسلم إنكارها، لشهرتها بين الناس، واتفاقهم عليها، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتْلِيهَا الشُّرُكُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيئًا﴾ [الأعراف ١٥٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَكَاةً لِلنَّاسِ نَذِيرًا وَكَذِبًا﴾ [سبا ٢٨]، وقال تعالى: ﴿سَرَّكَ الَّذِي مَرَّ الْفَرَقُ عَلَى عَنِيهِ لَنَكُونَ بِتَعْيِينِكَ نَازِلًا﴾ [الفرقان ١] وفي الصحيح قال ﷺ: «أُعْطِيتُ حُسْنًا لَمْ

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٧٨

(٢) مسلم حديث رقم ٢٢٧٦

(٣) مسند حديث رقم ٣٥٣٥

إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ^(١).

وقد طلق الصحابة هذه المحبة قولاً وعملاً، فكان أحدهم لا يحاطب رسول الله ﷺ إلا وفاء نفسه وأبيه وأمه ولم يعظم أحداً أصحابه كما عظم أصحاب محمد ﷺ. بعث قريش عروة بن مسعود ليفاوض رسول الله ﷺ في صبح الحديبية فكان مما جاء في قوله لقريش بعد رجوعه إليهم «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي والله، إن رأيت منك قطُّ يعظمت أضعافه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ، والله، إن تتخمن ضحمة، إلا وقعت في كف رجلٍ منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كدوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم حمصوا أضوانهم عدده، وما تحدثون إليه النظر تعظيماً له»^(٢).

وذكر عمرو بن العاص وهو على فراش الموت حاله في الدنيا وبكى، وكان مما قاله لانه يومئذ: «وما كان أحداً أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أحلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إ خلا لاً له، ولو سئلت أن أضيقه ما أطقت، لأبي لم أكن أملأ عيني منه»^(٣). وكان الصحابة إذا حمى الوطيس، واشتد القتال بعدوا رسول الله ﷺ بهجهم وأرواحهم، ويجعلون أجسادهم دروعاً دونه، كان أبو طيبة بين يدي النبي ﷺ يوم أحد مجوفاً عليه بحجة له، فإذا تطمع رسول الله ﷺ ليطر إلى القوم قال له: «أبي أس وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون حرك»^(٤).

قال زيد بن ثابت: «بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال لي: إن رأيته فأقرنه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فحعب أطوف بين القتلى، فأصتته، وهو في آخر رمق فقلت له: يا سعد، إن

(١) البخاري حديث رقم ٦٦٣٢

(٢) البخاري حديث رقم ٢٧٣٤

(٣) مسلم حديث رقم ١٢١

(٤) بخاري حديث رقم ٢٨١١ والنسخة المرس

رسول الله ﷺ بقرئك السلام، ويقول لك أحرمي كيف تجدك؟ قل عني رسول الله ﷺ السلام، قل له. يا رسول الله أجد ربح الجنة، وقل لقومي الأنصار لا عذر لكم عند الله إن خُلفص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفصت نفسه^(١)

المقياس الذي تعرف به محبة رسول الله ﷺ

والمقياس الذي تعرف به محبة الإنسان لرسول الله ﷺ هو انداع سته وشرعته، وتقديمها على النفس ورغباتها، فإذا تعارضت رغبات النفس مع أمر من أمور الشريعة وهدى رسول الله ﷺ، وأعرض الإنسان عن هدي صاحب الشريعة، وتبع رغبات نفسه، فسدت علامة على أنه لم يكتمل إيمانه، ولم يقدم محبة رسول الله ﷺ على نفسه

(١) دلائل النبوة ٣/٢٤٨، والحديث من مراسيل مالك في الموطأ، انظر التمهيد ٩٤/٢٤

الإيمان بالكتب

يجب الإيمان إجمالاً بأن الله تعالى أمر على أنبيائه كتباً تدعو إلى الوحيد، وتهدي إلى الحق والعدل والحير، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُرِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء ١٣٦]، وقال تعالى ﴿آمِنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة ٢٨٥]، وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي أُرِلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيرَانِ﴾ [الشورى ١٧]، وقال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُرِلَ مِنْهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُبَيِّنَ بَيْنَ النَّاسِ بَيْنَ مَا حَتَلَفُوا بِهِ وَمَا اختلفَ بِهِمْ﴾ [البقرة ٢١٣]

الكتب التي يجب الإيمان بها تفصيلاً

- ١ القرآن الكريم الذي أمره الله تعالى على نبيينا محمد ﷺ، قال تعالى ﴿سَأَرْكَبُ نُجُومًا وَلَيُّ رَجُلٌ الْقُرْآنَ عَلَى عَدَبِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان ١]، وقال تعالى ﴿حَقَّ ۝ نَزَّلَ مِنَ الرِّحْمَنِ الرِّجْمِ﴾ [ص ١، ٢]
- ٢ البقرة التي أمرها الله تعالى على سيدنا موسى ﷺ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَبِوَعْدٍ بِحَقِّكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْمَعُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولَ وَالْأَخْيَارَ بِمَا اسْتَحَقُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [البقرة ٤٤]
- ٣ الإنجيل الذي أمره الله تعالى على سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، قال تعالى ﴿وَفَقَّ يَسَىٰ أَوْ مَرِيَمَ وَآسَةَ الْإِجِيلِ﴾ [التحليل ٢٧]
- ٤ الزبور الذي أمره الله تعالى على سيدنا داود عليه الصلاة والسلام، قال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا دَاوُدَ رُؤُوسًا﴾ [النساء ١٦٣]

٥ صحف سيدنا إبراهيم وصحف سيدنا موسى عليهما الصلاة والسلام ، قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِكِتَابٍ يَمْدُ فِي شُحُوفٍ مُتَوْنٍ ﴿٣٦﴾ وَبَرَزَهُمْ آدِي وَفً﴾ [النجم ٣٦ ، ٣٧] ، وقد تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَمَّا لِي الشُّحُوفِ الْأَوَّلَى ﴿٣٧﴾ شُحُوفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى ١٩ ، ٢٠]

القرآن الكريم مهيمن على ما قبله من الكتب

ويجب الإيمان بأن القرآن الكريم هو آخر هذه الكتب وأنه مصدق لكتب التي جاءت قبله ومهيم عليها ، سبخت شريعته وأحكامه ما جاء قبله في تلك الكتب من الأحكام ، فلا يعمل بما خالفه ، ولو صحت سبته إلى تلك الكتب ، قال تعالى ﴿وَأُتِرَ لَكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة ٤٨] وأن القرآن هو الكتاب الذي حصه الله تعالى وميزه عن سائر الكتب الأخرى بحفظه من السبيل والتحريف ، قال تعالى ﴿وَرَبُّهُ لِكُنُفٍ عَزِيزٌ ﴿٥١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْغُيُوبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ نَبِيٌّ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت ٤١ ، ٤٢] ، وذلك لأنه سبحانه تولى حفظه نفسه ، على حين أوكل حفظ الكتب الأخرى إلى أصحابها ، فقال تعالى عن القرآن ﴿إِذَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنُحِيطُونَ﴾ [الحجر ٩] ، وقال تعالى عن السورة ﴿بِمَا نَسْخِطُونَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة ٤٤] ، وليس حفظ الله تعالى كحفظ البشر ، لذا سلم القرآن ، ووقع التحريف والسيان فيما وصل إلينا من كتب اليهود والنصارى وقد أحبر الله عن تحريمهم لكتبهم ونزويرها ، فقال تعالى ﴿يَتَأْخَذُ الْكِتَابَ قَدْ حَكَاهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة ١٥] ، وقال تعالى ﴿بَيْنَ الَّذِينَ هَادُوا يَحْرُفُونَ الْكِتَابَ عَنْ مَوَاصِيهِمْ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء ٤٦] ، وقال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْنُفُونَ لِكِتَابِ مَا بِيَدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَتَّخِذُوا بِهِ سُمْيًا فَيُبَيِّنَ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تُبَيِّنُهُمْ رَوِّدُ لَهُمْ مِمَّا يَكْنُفُونَ﴾ [الفرقة ٧٩] ، ولذلك اشتملت كتب اليهود والنصارى الموحودة الآن بين أيديهم على الشرك وسنة الولد إلى الله تعالى ، ووصف الأبياء بما لا يليق بهم من الخيانة والعدو ، وغير ذلك من الأمور العاسدة ، التي عصم الله تعالى منها أنبياءه ، وسوهاهم إليهم روزًا وبهتانًا

الإيمان بالقضاء والقدر

معنى القضاء والقدر

القضاء من قولك قضيت الشيء إذا حكمت به والقدر من قولك قدر الشيء أقدره بالكسر والفتح قدرًا وقدرًا، إذا أحطت بمقداره والمرفق بين القضاء والقدر، أن القضاء: هو الحكم الكلي الإجمالي الذي حكم الله تعالى به في الأول على جميع خلقه، والقدر جريبات ذلك الحكم وتفصيله ومعنى القضاء والقدر على وجه الاحتمال أن الله تعالى علم مقدير الأشياء وأوقاتها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سنن في علمه أنه يوجد، فما من شيء من أمور الدنيا والآخرة إلا هو صادر عن علمه وقدرته وإرادته^(١)

وقضاء الله ينوع إلى نوعين قضاء كوني، وقضاء شرعي، والقضاء الكوني القدري يتعلق بما قدره الله تعالى، سواء كان مما يرصاه ويحبه أو مما لا يرصاه، كما في قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتَقْبِضَنَّ فِي الْأَرْضِ مِزْنًا وَلِتُعْلَنَ عَلَيْهِمْ كِبَارُ﴾ [الإسراء ٤]، فالله ﷻ لا يرصى الفساد ولا يحبه أما القضاء الشرعي فلا يتعلق إلا بما يحبه الله تعالى ويرصاه، كما في قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء ٢٣]

الدليل على وجوب الإيمان بالقدر

يجب على المسلم الإيمان بأن كل شيء يحدث في هذا الكون هو بتصرف الله وقضائه، وأنه مقدر ومراد منه ﷻ، فما من حركة ولا سكون في السموات والأرض

(١) انظر فتح الباري ١٤/٢٧٧، ١٢٦/١

إلا بمشيئة الله وقدرته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُونًا﴾ [القمر - ٤٩]، وقال تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُونًا﴾ [الأحزاب - ٢٨]، وقال تعالى ﴿وَمَا تَسْغُطُ مِنْ رَحْمَةٍ إِلَّا يَغْلِبُهَا وَلَا حِجَّةَ فِي سُلْطَانِ الْأَرْضِ وَلَا رُكُوبٍ وَلَا يَكِينٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ [الأنعام - ٥٩]، وقال تعالى ﴿وَلَنْ يَشْفَعُوا إِلَّا بِإِذْنِهِ حَرَامٌ وَمَا نَزَّلَهُ إِلَّا بِعَذْرِ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر - ٢١]، وفي الصحيح حدث حريز في حقيقة الإيمان . . . وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ . . .^(١)

معنى الإيمان بالقدر

ومعنى الإيمان بالقدر - التسليم بأن كل ما يحدث للإنسان في داته، وما يحدث في كون الله الواسع هو من الله تعالى ، وأراد أن يكون كذلك، فلا يسع المسمم إراءه إلا الرعب والقبول، فلا يسخط ولا يصجر، بل يصبر على ما يراه مكروه، ويعوض أمره إليه، كما كان رسول الله ﷺ يفعل إذا وقع المكروه، ويقول «قَدَرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»^(٢)، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قهر نفسه بالتعويض والسديم أول حصول المكروه، كان حذيرًا بأن يعوضه الله تعالى عن ذلك المكروه حيرًا تفر به نفسه، ويشرح له صدره

ثمرة الإيمان بالقدر

والإيمان بالقدر على النحو السابق يكسب الإنسان ثقة في نفسه، وعزيمة ماضية في الأمور، ويحميه من الخوف والتردد، ويجعل طريقه في الحياة واضحًا، لا يتسك ولا يعوج، وذلك تنعكس آثاره دون شك على حياته انعكاسًا حسنًا بالقدره على الاستعانة من وقته وإمكاناته على أحسن الوجوه، فالإيمان بالقدر يقضي على أحزاب النفس وهمومها، وعلى خوفها وحسها، ويجعلها تقبل على المستقبل ومعيب الأمور حرية متعاضدة، وذلك من أعظم مقومات النجاح والإحساس بالطمأنينة والسعادة فالمسمم إذ أيقن أن الفاعل الحقيقي والمدير للأمور كلها هو الله تعالى ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به، وأنه لن يصيبه من رزق وعلم وولد ونجاح وحظ وإخفاق إلح إلا ما كتب الله تعالى له، كان ذلك رصيده من الثقة، التي تأخذ بيده إلى كل

(١) مسلم حديث رقم ٨

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٦٤

فلاح، قال تعالى ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ سَاءَ﴾ [التوبة ٥١]، وقال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد ٢٢]، وقال تعالى ﴿لَا يَفْزِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا كَسُوا﴾ [الفرع ٢٦٤]

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لاس عباس يَا عَلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ، اخْفِظَ اللَّهُ بِخَفْظِكَ، اخْفِظَ اللَّهُ تَجِدْهُ تَجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اخْتَضَعْتَ عَلَى أَنْ يَنْقُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْقُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اخْتَضَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُبِمَتِ الْأَقْلَامُ، وَخَفَّتِ الصُّحُفُ^(١)

يسعى لمسسم حين يطلب أمراً من أعمال الدنيا أو الآخرة أن يكون مسحوراً، أن الأمور كلها بيد الله، فهو الذي يقضى الحاجات، ويوفى لطاعات، ويسخى الرحمة ويسخى الرعب، لا أحد غيره يعطى شيئاً أو يمسعه، قال تعالى ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [فاطر ٢]، فوسائل السعي والمجد والأحد بالأسباب كلها وسائط عادية، إذا أراد الله تعالى أن تؤدي إلى المطلوب أدت، وإذا لم يرد، حال بينها وبين ذلك بأسباب أخرى هي مقصي بها في عدم الله تعالى، ومقدر وقوعها في الوقت الذي تحول فيه بين الإنسان وطلبه، وإذا عدم الله تعالى صدق توكل العبد عليه وتفويض كل أمره إليه، أعانه على أمره ووفقه في سعيه من حيث لم يحسب ولم يتوقع

وهذا أمر آخر هو مدعاة لتوفيق الله للعبد وقضاء مطلوبه، عيه أن يحرص عيه ذلك هو تقييد الإنسان في سعيه الديني أو الدنيوي بأحكام الشريعة التي ارتضاها الله لعباده ديناً، فلا يسعى في طلب مهوى عنه، ولو كان ظاهر الأمر أن المصلحة فيه، أو أن تركه حرمان، فإنه إن ألزم نفسه بحدود الله وقهرها على الرضا بما أحبه الله، وترك ما حرمه عيه ابتغاء مرضاته، عوصه الله من حيث لا يحتسب أحمل تعويض، عاجلاً أو آجلاً، فإن القدر عيب، والإنسان لا يعلم منه إلا أسنان ظهيرة، وتصرف ما عاب منه بصرفه الله تعالى كيف يشاء، والله تعالى لا يتحلى عن المطيعين

(١) من الترمذي حديث رقم ٢٥١٦، وقال حسن صحيح

الذين يأثمون بأوامره، ويقفون عند حدود شرعه، بل يهديهم إلى ما يسعهم، ويسوقهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْذُلُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) يَتَّبِعُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهَمَّ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَبِيُونَ ﴿الرُّوم ٦﴾، وفي الصحيح قال ﷺ «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (٢)

الرضا بالقدر لا ينافي بالأخذ بالأسباب

من عبد الله تعالى وحكمته في هذا الكون أن وضع له قوانين شتى، يراها الناس بأنصارهم، ويقفون عليها بعقولهم، من هذه القوانين قانون الأسباب، فجعل سبحانه التقاء ماء الذكر مع الأنثى سببًا في الخلق، وجعل الزرع سببًا في الإنبات، ووضع اليد في النار سببًا للاحتراق، والتردي من الطائر العلوي سببًا للهلاك، وجعل السعي والعجد ثمرته النجاح، والعمل الصالح يؤدي إلى مرضاة الله، والتداوي والرفق يؤدي إلى الشفاء، إلى غير ذلك وهذه الأسباب هي من قدر الله أيضًا فهي الحدث سنن النبي ﷺ «أَرَأَيْتَ رُقِيَ نَسْرَقِيهَا وَدَوَّاهُ تَنَلَّوْا بِهِ وَتَقَاهُ نَجَّيْهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالَ هِيَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ» (٣)، والمسلمات مرتبطة بأسبابها، ارتباط عددًا، ليس ارتباطًا عقليًا، لا يتخلف الشئ، بمعنى أن الله تعالى قدر لها هذا الارتباط المسطقي، الذي لا يتخلف في العادة، إلا إذا أراد الله تعالى تحننه لحكمة، بكرم الله تعالى بها بعض عابه، أو يقهرهم بها ويعذبهم، أو يؤيدهم ويصرهم، كما في معجرات الأنبياء التي أيد الله تعالى بها أنبياءه، وقهر بها أعداءه، وكما في الكرامات التي بظهرها الله تعالى على أيدي الصالحين من عابه

وبذلك يُعلم أن الأسباب لا تؤدي إلى مساتها إلا بقضاء الله تعالى وقدره، وليست بأنفسها، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٤) «أَنْتُمْ تَحْمِلُونَهُ» أَمْ تَحْمِلُوهُ ﴿الْوَاقِعَةُ ٥٨، ٥٩﴾، وقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٥) «أَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ» أَمْ حَرُّ تَرْعَوْنَهُ ﴿٦﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا تَحْتَمِلُهُ فَكَيْفَ يُعْكَفُونَ ﴿٧﴾ إِنْ أَمَرْتُمْ لَمَعَزَمُونَهُ ﴿٨﴾ وَلَوْ نَحْنُ

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٩٩

(٢) مسر سريسي حديث رقم ٢٠٦٥

مُؤْمِنُونَ ﴿[الواقعة ٦٣-٦٦]، وقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْرًا نَّارُثُهُ مِنْ تَلْحَمَنَ ثُمَّ غَدَّ نَحْنُ الْكَاثِرُونَ ﴿[الواقعة ٦٨، ٦٩]، وقال تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ صَرِبْ بِمَصَالِكَ الْحَرِّ فَامْلِكْ فَكَانَ كُلُّ مَرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾ وَأَرْسَلْنَا نَحْمِلُ الْآخِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَحْمِلُ مُوسَىٰ وَنَحْمِلُ نَحْمَهُ أَجْمِينَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿[الشعراء ٦٣-٦٦]

وقد أمر الله تعالى الناس أن يأخذوا بقانون الأسباب معهوده السبب وأن يلتزموا به، ورتبت الشريعة على ذلك الثواب والعقاب ونتائج الأعمال، وبيّنت أن ذلك لا ينافي التوكل على الله تعالى، ففي الصحيح قال ﷺ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ آخِرٌ مِنْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَأَسْتَعِمْ بِاللَّهِ وَلَا تَمَحُزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١)

وقد أوحى الله تعالى السعي، سواء فيما يتعلق بأمور الدنيا أو أمور الآخرة قال تعالى ﴿فَانشُرُوا فِي صَاحِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿[الملك ١٥]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا فَانصُرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَنصُرُوا فِي صَلَاتِ اللَّهِ﴾ [الحجعة ١٥]، وقال تعالى ﴿وَعَلِ اعْمَلُوا صَبْرًا إِنَّ اللَّهَ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ١٠٠]، وقال تعالى ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَسْأَلْ دَرَّةً حَرًّا بَرَّةً ﴿٧١﴾ وَمَنْ يَسْمَلْ يَسْأَلْ دَرَّةً شَرًّا بَرَّةً ﴿[الرولة ٧، ٨]، وقال تعالى ﴿مَنْ يَسْمَلْ سَوْماً يُخَيَّرْ بِهِ﴾ [النساء ١٢٣]، وكان رسول الله ﷺ، وهو خير من توكل على الله بحرح للجهاد، ويمشي في الأسواق للاكتساب

وفي الصحيح قال ﷺ: «... مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تَكُنْ عَلَىٰ كِتَابِنَا وَتَدْعُ الْعَمَلَ قَالَ اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ ثُمَّ قَرَأَ قَائِمًا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِ»^(٢)

واحترام قانون الأسباب والاعتداد به واضح في كل تكاليف الشريعة الإسلامية

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٦٤

(٢) البخاري حديث رقم ٤٩٤٩

من ذلك أن الله تعالى حرم الأسباب التي تؤدي إلى الفساد، فحرم المعى والفساد وسبب الدماء وكل ما يؤدي إلى المهرج، وحرم الحمر والمحدر وكل ما يؤدي إلى فساد العقل، وأمر بالطاعات والبر والمعروف والإحسان وإصلاح ذات البين، لأنها مسببة لمرضاة الله تعالى .

الإيمان بالقضاء لا يناقى الدعاء برفع البلاء

الدعاء برفع البلاء وسوء القضاء، لا يعارضه أن ما وقع به القصد لا يرد، وأنه لا بد من مصادره، لاحتمال أن يكون الله تعالى قضى بالبلاء والمصائب على العبد، وسبق في علمه أنه إذا دعا الله كشفها عنه، كما قال تعالى ﴿أَمْ يُحِبُّ الْمُسْتَظَرُّ إِذْ دُعِيَ وَيَكُفِّفُ لَكُفَّهٖ﴾ [الزلزال ٦٢]، وفي الصحيح «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ ذُرِّكَ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ وَمِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ»^(١)

الاحتجاج بالقدر

لا يجوز للإنسان أن يحتج على كفره أو معصيته أو عمله الفاسد بالقدر، ويقول ما دام كل شيء في الوجود لا يكون إلا بإرادة الله وقدره فما ذنبي، والله هو الذي حقيقي وخلق عملي، واحتار لي ما أنه فاعله، هذه الدعوى أخبر الله تعالى أن الكافر يوم القيامة بقولها ليحتج بها على الله تعالى، وأجاب الله تعالى عنها وله الحق المصلحة بأنها حجة باطلة، لا تعنى عن صاحبها شيئاً، ولتمسك بها بعد التصريح في القرآن برب الله تعالى إياها وإبطالها ضلالاً ومعصية، قال تعالى ﴿سَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الْيَهُودُ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَعَاؤُا بَأْسًا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٤٨﴾ [الأنعام ١٤٨، ١٤٩]، وقال تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَكُمْ مِنْ عِلْمٍ بِإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرَصُون﴾ [الزخرف ٢٠]، والله ﷻ جعل المقدر للعبد من الشقاوة أو الهداية عيلاً لم يطلع عليه، وهو ما أشد إليه القرآن بقوله ﴿مَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف ٢٠] وركب فيه الاستعداد للطاعة والهداية، والاستعداد للمعصية والضلال، وأعطاه الحواس من السمع

(١) مسلم حديث رقم ٢٧٠٧

والبصر والعقل، وأمر له الكتب، وأمر له الرسل، كل هذه وسائل تدعوه إلى الطاعة والهدية والخير، ورتب فيه شهوات حيوانية، وأطماناً نفسية، تترشح إلى العوابة وتسكب طريق الحق. كما أشار إلى ذلك القرآن ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنًا وَنَسَاءً وَشُعَيبًا ۖ وَهَدَيْنَاهُ الْجَنَّتَيْنِ﴾ [الد ٨، ٩]، ولم يخبره عن الله أحد بأنه قدر عليه الصلابة، أو احتار له الهداية، بل ترك اختيار أحد الطريقين إلى رعة الإنسان نفسه وإرادته الحرة التي خلقها الله تعالى فيه، وروده بها، كما خلق فيه قدرة الكلام فكلم، وقدرة البصر فبصر، فكما أنه مسئول عن كلامه، وكلامه مسلوب إليه مع أنه لولا قدرة الله تعالى ما قدر عليه، هو مسئول عن إرادته واحتبائه وتصرفه، وهذا الاحتيال وهذه الإرادة الحرة التي منحها الله تعالى للإنسان، فكان بناء عليها يأتي ما يأتي ويترك ما يترك هي التي تحمله مسئولية كل تصرفاته والاحتيال الممنوح للإنسان لا يستطيع عاقل أن يماري فيه، فهو ثابت شرعاً وعقلاً، أما شرعاً فإن الله تعالى أثب في القرآن للعبد مشيئة، ولم يجعله مملوك الإرادة، قال تعالى

﴿وَلَوْ أَرَدُوا الْحَرُوحَ لَأَعَدُّوا لَهُ عَزَّةٌ﴾ [حالة، وقال تعالى : ﴿لَسَ شَاءَ بِكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير ٢٨]، وقال تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المرمل ١٩]

وأما عقلاً، فلأن كل إنسان يدرك من نفسه بالضرورة الفرق بين من دخل الدار ببردته، ومن أدخل السجس عقوبة له، وبين من لطم أحداً على وجهه فاصدأ أده، وبين من سقط من الطابق العلوي فوقع على ظهر أحد فكسره. وكل إنسان يعرف بين حركة يد مشلولة، ترتعش دون إرادة، وحركة يد تناول الحمر لشربه، أو تأخذ المسدس لتقتل به، ومن لا يفرق بين ذلك لا يكون مع العقلاء

ولا يمكن أن يكون الحكم على يد المرتعش ويد المقاتل سواء، لا في شرع الله، ولا عند ذي عقل سوي. وما دام للإنسان مشيئة فهو مسئول عن مشيئته، لأنه هو الذي عصى الأمر وأكل الحرام وسفك الدماء وقطع الأرحام، وأفسد في الأرض، وهو مثاب عن عمله، لأنه هو الذي صلى وركب وصام ورح وأمر بالمعروف، وأطاع ربه، قال تعالى ﴿لَهُمَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [القرة ٢٨٦]، وقال تعالى

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ تَدْمٍ وَيَتَّقُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُؤْتَلَ وَيَتَّقُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [القرة ٢٧]

ولو كان من يفتح بالقدر على معصيته صادقاً مع نفسه، وإن ذلك هو اعتقاده حقاً
لما عصب إذ ظلمه ظالم فسلب ماله وانتهك حرماته، إذ لو كان القدر عذراً له يعفيه
من المسؤولية، لكان عذراً لغيره أيضاً لا يستحق لوماً عليه، وذلك في عادة الفساد
لأنه يؤدي إلى دفع العقوبة على الجرائم، وإلى ترك الناس فوضى يفعلون ما يشاءون
دون رادع، احتجاجاً بالقدر في زعمهم.

والإنسان مسئول عن أعماله والاحتجاج بالقدر صلال. لأن الله تعالى كيف
بالعمل ولم يحملنا مسئولية القدر لأنه عيب عما، وما ورد من محاجة آدم موسى عليه السلام
وقوله له «كيف تلوم موسى على أمر قدره الله على قتل أن أحسن» وقول النبي صلى الله عليه وسلم
«فحج آدم موسى» فهذا لأن آدم عليه السلام علم أن الله عفر له وقل توبته، قال تعالى
﴿فَتَنَبَّأَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلَيْتَ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فمن علم أن الله عفر له وتاب عليه لا يترتب على
احتجاجه بالقدر محذور، لأن اللوم على الذنب شرعى لا عقبي، فإذا عدم ارتجاع
الذنب بالشرع فيس هناك محذور يترتب على الاحتجاج بالقدر وهو ما فعله آدم عليه السلام،
بحلاف غيره. ممن لم يطلعه الله على ما يتول إليه أمره.

أفعال العباد والأخذ بالأسباب

الأحد بالأسباب واحب، وبخصوص القرآن والسنة تطلب ذلك من الناس، وتكرر الطلب بما لا يسمع المسلم إعفائه ولا تجاهله، فمن قعد عن الأسباب حمدة، أو سدت الأسباب التي تؤدي إلى ما حرمه الله، فقد عصي الله ورسوله من البداية، مهما كانت حجة على ذلك، لأن الله تعالى أمره بأمر فعصاه، فليسان حاله بقول لا أفعل ما أمرني الله تعالى به، وذلك كاف لاستحقاقه عذاب الله وعصه^(١)

١١) هذا هو الصحيح في شأنه أفعال الصاد وقد حانوا في ذلك من أصحاب نفوس لأشعره وأصغرته
وإنجزيه ١ الكسب عند الأشاعة غير الأشاعة عن أفعال لعدم اكتسب، فأنشأ أفعال لعدم هي
كسب المبدأ لا فعله، وعرفوا الكسب بأنه مقاربه القدرة الحادثة للفعل من غير تأثير فيه، فعدوها بقولهم من
غير تأثير فيه ورأوا من قول المصنف ما أن المبدأ حاشي لأفعاله. وهاهو ما أن لعدم كسب فرز من قول إنجزيه بأن
لأنه مبدوء لإراده اكتسبه لكن حفضه الأمر أن إرادته من قول المصنف أو فعه في خبر محقق، وهو
ما عرفت عنه بقوله لأن المبدأ مضطرب في صورة مختار حتى إن إرادته قد عُدَّ مُتَحَقِّقاً يظهر أن لكسب سم
بلا معنى فتدريده بين الفعل والكسب عامض غير واضح، حتى إن منه من يسمي لكسب فعلاً بل دعير
فما يصدر من الصاد نفس هو عليه من فعله ولا هو من فعل المبدأ هو كذا من فعله لئله حسب =

من طلب الهداية هداه الله

المتبع لأبواب القرآن الكريم يجدها تؤكد على حقيقة ثابتة لا تحذف، وهي أن الله ﷻ لا يبدل من بذل جهده، وأعطى ما في وسعه، وسعى إلى الخير ما استطاع، وأن من احتار لطريق الأخرى حذله وأصله وطمع على قلبه فمن طلب الهداية هداه الله، ومن أعطى وتصدق يسره لليسرى، ومن جاهد في الله أنار له سبيله، ومن تكبر وتحبر طمع الله على قلبه، ومن ظلم أصله الله، ومن راع أراع الله قلبه فوفيق الله لبعده وهديته إلى الخير يكون لمن حرص على ذلك، وأخذ بأسباب الهداية وعزم على الطاعة، وحدلان العبد وإصلاحه وسوقه إلى الخيبة وسوء المصير يكون لمن فرط وبكسر على عقيه، وصل طريقه، قال تعالى ﴿مَنْ أَعْطَى فَقَى ۝ وَصَدَّقَ يَأْتِي ۝ فَتَرَى لَيْسَ ۝ وَأَنَا مِنْ بَعْلِ وَأَسْتَقَى ۝ وَكَذَّبَ بِآلِهِ ۝ فَتَبَيَّنَ لِفُتْرَى ۝ [الليل ٥ - ١٠]، ﴿وَأَبْرَأَ أَهْلَهُ رَادُّهُ هُدَىٰ وَهَاتَتْهُمْ قَوْمَهُمْ﴾ [محمد ١٧]، ﴿وَقُلْ لَعَنُوا فُتْرَىٰ اللَّهِ عَمْدُكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ١٠٠]، ﴿وَيُصَلِّ اللَّهُ لِلطَّيِّبِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم ٢٧]، ﴿وَمَا يُصَلِّ بِهَذَا إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [القرة ٢٦]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا رَأَىٰ

= فهو أن يكون به مصفيا بالظلم وهذا باطل ولو كان من فعل العبد تكاد التحدث ركا منه في لغة ٥٠ م
همم لإسـاـبـ يـبـ نـه كـا لا حـقـا وقد تـبـ صـبـ هـد شـعـير

٢ عند عده محموله يكون المحمله ان العبد يفعل الأشياء هادته ومشته هو حتى أنهم قالوا لعقولهم
م يجب بأخذه وما فعل الفاعل وأما قطعه الفاعل ولو لا لماش واستلوا على ذلك بقوله تعالى وما
يهم من معمر ولا يخص من عمره إلا في كتاب وأورد عليهم بأن هذه الآية وأمثالها مما يدل على ريادة
عمر بصحته وجهه بوجه ذلك محمول على ما في النسخ لمحمول لا ما في عنه أنه لذي هو
أنه كتاب فإنه لا يصر ولا يسل إلا أنهم قالوا ان العبد يفعل مقدرة حقه أنه قد، لأنه لو لم يكن العبد
يفعل ما يشاء بغيره لما صح أن يعاقب على أفعاله لأن عقوبته على ما لم يفعله من ظلمه وأنه سره على
ظلم ما حمله أصولهم الحصة تعود على العبد والوعده والوعده ونحوه من العبد والوعده
بالمعروف

٣ يكون ما يحرم من يقول ما يحرم التحريم فهو يقولون الإنسان ليس له رقة فهو كثر يشاء لمعلقه في
هو ولا يوجد تأثير لأسباب عده في مآلها واستلوا على ذلك يقول لبي ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾
بملي أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسأل عليه الكتاب، فيعمل بملي أهل النار فيدخل
وإن أحدكم يعمل بملي أهل النار، حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسأل عليه الكتاب، فيعمل بملي أهل
الجنة فيدخلها، صحيح بحاري رقم ٧٤٥٤ وأحب عن هذا ما أني ﷺ عمن ذكر ذلك أن لا سكر على
كتاب وسع صر؟ لا اعلموا فكل من لم يخلو له صحيح بحاري رقم ٤٩٤٩

اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصافات ٥٠]، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ حَبْرًا﴾ [اعراف ٣٥]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ [المكوت ٦٩]، وفي الصحيح قال ﷺ **اَتَكْفُلُ مِيرَ لِمَا خُلِقَ لَهُ**^(١).

الشر لا يُنسب إلى الله -تعالى-

عنى المسلم أن يعتقد أن جميع ما فى السماوات والأرض من الخير والشر، والحركات والسكنات، والأوامر والنواهي، وما كان وما هو كائن كنه محبوب لله تعالى، مقصي به، وفق مشيئة الله تعالى وإرادته وعلمه، لا يعرب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض، فكل ما يكون فى الوجود هو بقضاء الله وقدره، قال تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القدر ٤٩]، وقال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُرَآهَا إِنَّا ذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد ٢٢]، لكن الشر لا يسبب إلى الله تعالى، فلا يقال الله حالى الشر، ودلت لما يأتى

١ ما يقتضيه العدم من الذنوب والشر والآثام، فهو وإن قدره الله فهو من كسب العبد وسسه، ولذلك فهو مسوب إليه، ولا يسبب إلى الله تعالى، لأنه بهيئته وحده منه، وأمر بصدده والعبد احتار من نفسه الشر وفعله فهو من عمده وكسه، قال تعالى عن المصطفين: ﴿وَأِنْ تَصِبُّهُمْ فَسَبَّةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصِبُّهُمْ فَسَبَّةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِيْجَادًا وَقَدَرًا، ثم رد الله تعالى عليهم ووصفهم بأهمهم لا يفقهون كلام الله ولا يرلونه مدرته، فإن الأشياء وإن كسب كلها من عند الله إيجادًا وقدرًا، فإن السيئات والبلايا إنما تسبب إلى أصحابها الذين عملوا ما يستحقون به تلك البلايا، ولذلك قال تعالى ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسْرَةٍ فَبِمَا كَفَرْتُمْ وَأَنتَ صَادِقٌ مِنَ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ﴾ [النساء ٧٩، ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى ٣٠]، وقال تعالى ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَكُم مِّصْبِيْهُ قَدْ أَصْنَمْتُمْ مِّثْلَهَا فَلَئِمَّا أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [ال عمران ١٦٥]

(١) البخاري حديث رقم ٧٥٥١

٢. إليه ﷻ لا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالمعشَاء، ولا يبح الفساد، وكل أحكامه وأوامره حكمة وحير، فلا ينسب إليه فعل الشر، لأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، الخير بيديه والشر ليس إليه، فلا يقال الله حائق الشر، لأن ما قدره من الشر ليس شرًا محضًا، بل فيه حكمة ومصلحة، وهو حير وإحسان مراعاة لهذه الحكمة، فما يصيب الإنسان من ألم ومرص وفقر وحوف كل ذلك فيه رحمة ومصحة عرف بعضها، كالإنتلاء والتمحيص، وتكفير الذنوب، ورفع الدرجات، وحفي عليها بعضها

فالله تعالى لم يخل الشر لأنه شر، بل خلقه للحكمة المترتبة عليه فهو بل المطر مثلاً في ليلة شتاء باردة، فأصاب من كان يبيت في العراء وليس له مأوى، فروب المطر بالنسبة إليه سوء وأذى، لكن الله تعالى أمره لم يدفع تبع الملاء والعداء، وهو يعلم أن أذى يصيب فلاناً من الناس، وله في إصابته به حكمة، إما عقوبة له بعصيته، وإما إنتلاء وتمحيصاً، لرفع مرتبته، وإما غير ذلك

ولذلك قال تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النقرة: ٢١٦]، ولما سألت الملائكة الناري ﷻ ﴿قَالُوا أَتَمَلَّ فِيهَا مَنْ يُفِيدُ فِيهَا وَتَسْفِكُ الْإِيمَاءَ وَمَنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النقرة: ٣٠]

قد يقال إن من القضاء ما هو في نظر الناس شر محض، كالقضاء على الكافر بالكفر، فلا تظهر في ذلك وجه مصلحة له مع أن الله قدره، فالجواب: كون ذلك شرًا هداً صحيح، ولكنه شر في حق المخلوقين، وأما في حق الحائق فإنه يفعل ما شاء، والشر لا يعرف كونه شرًا إلا لله تعالى، والله تعالى عه، والناري ﷻ فوق ذلك كله، فليس أحد يبهده عن شيء، فلا يصح الحكم عليه بقانون المخلوقين

ولو أن لله تعالى عذب أهل السماء وأهل الأرض لعذبهم، وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم كما جاء في الحديث^(١)

(١) أبو داود حديث رقم ٤٦٩٩

كراهية الخوض في القدر

القدر من الغيب الذي ستره الله تعالى عن العباد، وهو سر من أسرارهِ، احتص به وحده عن عقول الخلق، لما علمه من الحكمة في ذلك فلم يعلمه سي مرسل ولا مدث مقرب^(١)، وكان السلف الصالح أصحاب رسول الله ﷺ، وكبار الساجدين حير القرون وهم القدوة يكتفون في مسألة القدر بالإيمان بأن الله تعالى علم مقدير الأشياء وأمرائها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سنن في علمه أنه يوجد، فكل أمر في الوجود هو صادر عن علمه وقدرته وإرادته، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولا يريدون على ذلك. فلا يكفون أنفسهم البحث عن أسرار القدر، مثل هل الإنسان مسير أو مُخير؟ وإذا كان مسيراً فكيف يعده له تعالى عن فعله وهو مسلوب الإرادة؟ وإذا كان محيراً فأين قدرة الله التي يحصع لها كل شيء في الوجود؟ بل كانوا يحذرون من ذلك، ويقصون أمور القدر كلها إلى الله، قال تعالى ﴿لَا تَسْتَلْ عَنَّا يَفْعَلْ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء ٢٣]، وفي حديث عمرو بن شعيب، قال «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس سكمون في القدر، قال وكأنما تلقأ في وجهه حب الرمان من العصب قال فقال لهم ما لكم تصربون كتب الله بعضه بعض، بهذا أهلك من كان قبلكم»^(٢)، وروي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ «إذا ذكر القدر فأمكوا»^(٣)

(١) انظر فتح الباري ٢٧٧/١٤

(٢) حشد مع فتح برهاني ١٤٢، ١ وسر ابن ماجه ٣٣/١ وفان نوصيري في وثائق ما جده اسناد

صحيح ورجاله ثقات، ومثله (وأنما تلقأ في وجه حب الرمان) أي احمر من العصب

(٣) قال الحافظ في فتح الباري ٢٧٧/١٤ أخرجه الطبراني سنن حسن

علامات الساعة

الساعة لا يعلم وقتها إلا الله

يحب على المسلم أن يؤمن بأن الساعة حتى وأنها آتية لا ريب فيها، قال تعالى ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ سَعَتُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج ١٧]، ويجب الإيمان أن وقت مجيئها لا يعلمه إلا الله تعالى، فلا يجوز لأحد أن يدعي علم ذلك، ولا يُصدق من أحبر عنها رجماً بالغيب، أو مدعيًا حسابًا وعدماً يوصله إلى ذلك، ومن ادعى بأن لولى الفلاس قال بوقوعها في القرن الحاصي، أو في عدم كذا، فهو كذاب مضمر مكذب للقرآن، قال تعالى ﴿يَسْتَلْزِمُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَنَّ مَرَسَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُعْجِبُنِي لَوْفَهَا لِأَنَّهُ قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا مَنَّةٌ يُسْتَلْزِمُكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَمَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ١٨٧]، وقال تعالى ﴿تَسْتَكْبِرُ تَكْذِبُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبٌ﴾ [الأحراب ٦٣]، وفي الصحيح من حديث جبريل حين سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، قال له «مَا الْمَسْئُورُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ»^(١)، ثم ذكر له أنها في خمسة أشياء لا يعلمهن إلا الله تعالى، وتلا قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرِيدُ الْآمِينَ وَيَمَرُّ نَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَعْسٌ مَادَا تَكْتُمُ عَدَا وَمَا تَدْرِي نَعْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [القمان ٣٤]

وقد ذكر لنا النبي ﷺ علامتها، وروى العلماء هذه العلامات إلى نوعين، علامات كبرى ملاصقة للساعة، وعلامات صغرى سابقة عن ذلك

(١) البخاري حديث رقم ٥٠

العلامات الصغرى

من العلامات الصغرى التى ذكرها النبى ﷺ ما جاء فى الصحيح من حديث جبريل المتقدم «وَسَأَخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأُمَّةُ رَبِّهَا، وَإِنَّا تَطَاوُلُ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبَيَانِ»^(١)، ومعنى ولدت الأمة ربها إذا ولدت المرأة من يربها، أو من بسوء معامدها ويعقها ويسها ويصرها، كما يعامل السيد أمته. والمراد أن من علامات الساعة انعكاس الأمور، واحتلال المقاييس، وانقلاب الموارد، بحيث يصير السافل عالى، ومن يستحق الترية والتأديب يصير مؤدنا مربيا، وهو معنى ما جاء فى الحديث الآخر المخرج فى الصحيح عندما سئل النبى ﷺ متى الساعة؟ قال «إِذَا وَسَدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(٢)، وفى الصحيح عن النبى ﷺ «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ وَيَظْهَرَ الزُّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، حَتَّى يَكُونَ لِحَمِيْنٍ امْرَأَةٌ الْقِيَمُ الْوَاحِدُ»^(٣)

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة، قال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقَابِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَدَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْمَرْقَدُ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»^(٤)، وقال ﷺ «يُبْعَثُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَيَقْرَأُ بَيْنَ إِصْبَيْهِ السَّابِقَ وَالْوَاسِطَ»^(٥)

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة، قال رسول الله ﷺ «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلَ بَشَرَانِ عَظِيمَانِ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعَوْتُهُمَا وَاحِدَةٌ وَحَتَّى يَبْتَكَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَحَتَّى يَقْبُضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزُّلَازِلُ وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ وَيَكْثُرَ النُّهْرُجُ وَهُوَ الْقَتْلُ وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَقْبُضَ

(١) صحاري حديث رقم ٥ واليهام السود ويصح أن يكون صفة للرعاة ويصح أن يكون صفة للإبل

(٢) صحاري حديث رقم ٥٩ وسَدَ أي أسد

(٣) صحاري حديث رقم ٨١ وكثرة النساء قد تكون سبب كثرة الفرس والحروب، فكثرة لصل في لرجاء لصفوة ويكثر سوء وقد يكون أن الله ﷻ يغلر في آخر الزمان أن من يؤمن من لآيات أكثر ممن يؤمن من الذكو

(٤) مسلم حديث رقم ٢٩٢٢ والهمزة نوح من شجر النشوء، قل هو لموسحه لعطسه وهو شجر معروف

نصب لصفحة

(٥) مسلم حديث رقم ٨٦٧

حَتَّى يُهَمَّ رَبُّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ وَحَتَّى يَغْرِضَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ الَّذِي يَغْرِضُهُ عَلَيْهِ لَا أَرَبَ لِي بِهِ وَحَتَّى يَنْظَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبَيَانِ وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ وَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ يَمِي آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ لَمَنَّا مِنْ قَبْلُ أَوْ كُفَّتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّحْلَانِ تَوْبَهُمَا يَتَّهِمَا فَلَا يَتَّيَعَانِيهِ وَلَا يَطْوِيَانِيهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّحْلُ بِلَبَنِ لِفَحْتِهِ فَلَا يَنْظُمُهُ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يُلْقِي فِيهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتُهُ إِلَى فِيهِ، فَلَا يَنْظُمُهَا»^(١) وفي حديث عبد الله بن عمرو «لا تقوم الساعة حتى تتسافدوا في الطريق تسافد الحمير»^٢

العلامات الكبرى

علامات الساعة الكبرى التي تضمنها حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم، هي خروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وظهور يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة تكلم باسم، وطلوع الشمس من مغربها، وحسف بالمشرق، وحسف بالمغرب، وحسف بحزيرة العرب، والدخان، والريح التي تقصر أرواح المؤمنين، وأحر دلت دار تحرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم^(٣)، وفيما يلي بيان ما يحتاج إلى تفصيل

١ خروج الدجال

ويسمى المسيح الدجال بالحاء والخاء وهو رجل، ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من صفته أنه أعور العين اليمنى^(٤)، كذاب، يدعى الألوهية، يمكث في الأرض أربعين يوماً، مكتوب على جبهته أنه كافر (ك ف ر)، يقرأ ذلك كل مؤمن كائن وغير كائن، يفسد الناس عن دينهم بما أعطى من حوارق العادات وغرائب الأمور، فيشب من أراد الله تثبيتاً من المؤمنين، فيعلمون أنه الدجال ولا يخدعون به، ويصل الله تعالى

(١) البخاري حديث رقم ٧١٢١

(٢) مختصر روضة مسند نور ١٨٢/٢ وقال صحيح والسند من تعداد مرو الدكر على لأش

(٣) انظر شرح مسلم ٢٨/١٨

(٤) جاء في حديث الحسن عنه أنه أعور العين اليمنى، وورد في صحيح مسلم من حديث حذيفة (أعور العين اليسرى)، قال عاصبي عاصم المظفوري والمصوحه التي ذهب بورها هي اليمنى، واليسرى طافه (بدره)

و هو فيها بمعنى كعب وليس دعاب النصر انظر فتح الباري ١٠/٢١١ ومسلم حديث رقم ٢٩٣٤

أحرى، ولا يتبعه إلا كاهن أو صانع، ويظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدسة
فلا بد منها، قال ﷺ «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَبَطُوهُ الدَّجَالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ»^(١)

وفي حديث الواس بن سمعان، قال «ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ عَدَاةٍ
فَحَفَّضَ فِيهِ وَرَفَعَ^(٢) حَتَّى ظَنَّا فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ قُلْنَا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فَيَا قَقَالَ مَا
شَأْنُكُمْ؟ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ عَدَاةً فَحَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ حَتَّى ظَنَّا فِي
طَائِفَةِ النَّخْلِ قَقَالَ خَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ
دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجَ وَلَيْسَ فِيكُمْ^(٣) فَأَمْرٌ حَاجِبٌ نَفْسِي وَاللَّهِ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ
شَابٌّ قَطَطٌ^(٤) عَيْنُهُ طَائِفَةٌ كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بِعَبْدِ الْعَزْزِيِّ بْنِ قَطَنِ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ
فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً^(٥) بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَمَاتَ بَيْنَنَا وَعَاثُ شِمَالًا، يَا
عِبَادَ اللَّهِ عَابَثُوا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ أَرَبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمَ كَسَةِ
وَيَوْمَ كَشَفَ، وَيَوْمَ كَجُمِعَ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ. قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي
كَسَتْهُ أَنْكَبِيَّتًا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ لَا أَقْدِرُ وَاللَّهِ قَدْرُهُ. قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِسْرَافُهُ فِي
الْأَرْضِ؟ قَالَ كَالْفَيْثِ اسْتَذْبَرَتْهُ الرِّيحُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ قِيلَ لِمَنْ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ
لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطَرُ وَالْأَرْضُ فَتَنْثَرُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ دُرًا
وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ^(٦). ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ
عَنْهُمْ فَيَضْحَكُونَ مُنْجِلِينَ^(٧) لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِيبَةِ فَيَقُولُ لَهَا
أَخْرِجِي كُنُوزِي فَتَبْعُهُ كُنُوزُهَا كَيْفَ يَسِيبُ النَّخْلَ^(٨)، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِكًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ

(١) سنن أبي داود، رقم ١٨٨١

(٢) حفص أي حفر من شأه ورفع أي صعد، ومن تعجمه فسته وانحده به

(٣) وهذا معمول على أن ذلك كان من أي يسيب النبي ﷺ وهو خروج، فخرج أو يخرج في حاشية، ثم مر به

تعالى به تأخر خروجه انظر فتح الباري كتاب الفجر ٢٠٩/١٦

(٤) عطف شديد حمود، شعر

(٥) بحلة حكا - بين السدين مثل بقعة الحدود بين السدين

(٦) فروع عامة سارحهم - فج الحصى أو الحاشية التي تسرح أو - النهار إلى لمرعى تروح آخر لها مسئلة

شعرا مرتفعة الأسمه كبره الصروع لامتلائها بالناس

(٧) منجلى - جعل يسر لأرض من الشعب من فله المظفر

(٨) يمسسه سهل أي جماعه لسهل

بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ حَزَلَتَيْنِ رَمِيَّةَ الْفَرَسِ^(١) ثُمَّ يَذْعُوهُ قَبِيلُ وَيَهْلُلُ وَجْهَهُ بِضَحْكَ^٢

وفي الصحيح من حديث أبي مسعود وحذيفة رضى الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ «إِنَّ مَعَهُ نَهْرًا مِنْ مَاءٍ وَنَهْرًا مِنْ نَارٍ فَأَمَّا الَّذِي تَرَوْنَ أَنَّهُ نَارُ مَاءٍ، وَأَمَّا الَّذِي تَرَوْنَ أَنَّهُ مَاءُ نَارٍ فَمَنْ أَذْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَأَرَادَ الْمَاءَ فَلْيَسْرَبْ مِنَ الَّذِي يَرَاهُ أَنَّهُ نَارٌ فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُهُ مَاءً قَالَ أَبُو مُسْعُودٍ هَكَذَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ^(٣)

وكذا النبي ﷺ يستعيد في صلاته من فتنة الدجال

٢- نزول عيسى ﷺ

يحب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يقتله اليهود وإن شئ لهم ذلك بل رفعه الله تعالى إليه، وأنه لا يرال في السماء، يرال في آخر الزمان بأمر الله تعالى، فيكسر الصليب، ويقتل الحرير ويصع الحجرية، ويصير الحق، ويقسم العدل في الأرض، ويحكم بشريعة نبي محمد ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ثم يبقى ما شاء الله له في الأرض، ثم يموت ويدفن قال الله تعالى مَكِدًا لِيَهُودَ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّوْهُ وَلَئِكَ سِيقَهُ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلُمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء ١٥٨]، وقد وقعت الإشارة في القرآن إلى مولده، قال تعالى ﴿وَلَوْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَتَوَدَّ أَلْفَيْتَهُ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء ١٥٩]، قال الحسن في معنى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي قبل موت عيسى ﷺ، والله إنه لحبي الال عبد الله، ولكنه إذا برز أموا به أجمعون^(٤)

وقال تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَمِمْ لِّلنَّاسِ فَلَا تَنفَكْ سَهَا﴾ [الزخرف ٥١]^(٥)، وفي الصحيح من حديث الواس بن سمعان المتقدم «بَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنُ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ بَيْتِ مَعْرُوثَيْنِ^(٦) وَأَضْمًا كَفَيْهِ عَلَى

(١) حرس أي طمس ورمه الفرس أنه يكون بين القطعين مسافة ربه السهم

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧

(٣) مسلم حديث رقم ٢٩٣٥

(٤) انظر التمهيد ٢٠٤/١٤، وتفسير القرطبي ١١/٦

(٥) وانظر تفسير القرطبي ١٠٤/١٦

(٦) مهوروثين أي لابس ثوبين مصوغين

أَجْنَحَهُ مَلَكَئِينَ إِذَا طَافَا رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ^(١) فَلَا يَجِلُّ لِكَأَمْرِ
يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ يَطْلُبُهُ حَتَّى يَذُرْكَ بِبَابٍ لَدَى قَيْثَلُهُ
ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْنَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُخَدِّلُهُمْ
بِذُرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ^(٢)

٣ خروج ياجوج ومأجوج جاجوج

ياحوج ومأجوج هم قوم من الشر مفسدون، عددهم كثير، لا يعلمه إلا الله تعالى، يبحر حوج في أيام بroul عيسى عليه السلام بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله جميعاً في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم^(٣)

وقد ذكر الله تعالى ياحوج ومأجوج في القرآن وخروجهم، فقال تعالى ﴿حَقَّقْ إِنَّا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾^(١) وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ
الْعَقْبُ وَإِذَا هِيَ شَجْعَةٌ أَنْصَرُّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَلَّيْنَا قَدْ كُنَّا فِي عَمَلِهِمْ مِنْ هُنَا مَلَكُكُمْ
طَائِفَةٌ ﴿الأنبياء ٩٦، ٩٧﴾، وقال تعالى ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ سَكَّاءٌ﴾^(٢) حَتَّى يَبْلُغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ
وَجَنَفَ تَطَلَّعَ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَحْشُدْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا^(٣) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِمْ خَبْرًا^(٤) ثُمَّ أُنْزِلَ
سَكَّاءٌ حَتَّى يَبْلُغَ بَيْنَ السَّتِيرَيْنِ وَحَدَّ مِنْ دُونِهِمْ قَوْمًا لَا تَكَادُونَ بِلِقَائِهِمْ قَوْلًا^(٥) قَالُوا يَنْدُ
الْقُرْبَىٰ يَا يَاجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُقْبِلُونَ فِي الْأَرْضِ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ خُرُوجًا أَلَمْ تَكُنْ لَنَا بِلِقَائِهِمْ يُدْعَوْنَ^(٦) قَالَ
مَا مَكِّي بِهِ رَبِّي حِينَئِذٍ فَاعْسَوْا عَنِّي بِغَوِيٍّ شَعَلٍ يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَهُمُ الْكَبِيرُ^(٧) الْكُوفِيُّ رَمَى اللَّحْبِيزِ حَتَّى يَدَّ سَاوِي بَيْنَ
الْقَصْدَيْنِ قَالَ تَفْعَلُونَ حَتَّى يَدَّ حَصْلَمَ نَارًا قَالَ الْكُوفِيُّ أَفَرَجَ عَلَيْهِ فِطْرًا^(٨) فَمَا اسْتَطَعُوا أَلْ يَطْهَرُوهُ
وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ يَهَبَا^(٩) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا
[الكهف ٨٩، ٩٨]، وَبَعَثَ اللَّهُ يَاجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ
أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِئَةٍ فَيَسْرُبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ
وَيُخَصِّرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ
لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّفْثَ فِي رِقَابِهِمْ
فَيُضْحِكُونَ فَرَسَى كَمْوَتْ نَفْسٍ وَاحِدَةً ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا

(١) وحمى ب حاء يسجلر سه كائونو في صفاته

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٣٦

(٣) انظر المغلة الطحاوية ص ٤٤٨

يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شَيْءٍ إِلَّا مَلَأَهُ وَهَمُّهُمْ وَتَنَتُّهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَفْطَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَنْظَرُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ يَتٌّ مَذْبٍ وَلَا وَبَرٌ، فَيَغِيْلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلْفَةِ، ثُمَّ يَقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْتِ نَمَرَتِكِ وَرُدِّي بِرَكَاتِكَ يَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ وَيَنْظِلُونَ بِقِحْهِهَا وَيُبَارِكُ فِي الرُّسْلِ حَتَّى أَنْ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِقَامَ مِنَ النَّاسِ^(١)

٤ طلوع الشمس من مغربها

من علامات الساعة العظمى خروج الشمس من جهة الغرب على خلاف العادة، ودلت عندما يريد الله تعالى ذلك، إيداً سداية التعيرات العظيمة في العالم العنوي المؤدة قديم الساعة، وحيث لا تقبل توبة من لم يتب، ولا يقع نفساً إيمانها لم تكن امت من قبل، ولا يقع العمل الصالح من لم يعمل قبل ذلك، قال تعالى ﴿يَوْمَ بَأْسٌ شَدِيدٌ لِّأَنبِيَائِهِمْ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام ١٥٨]، فالمراد بعض آيات ذلك عند جمهور المفسرين طلوع الشمس من مغربها

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة المتقدم «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ قَرَأَهَا النَّاسُ أَمْوًا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا»^(٢)، والسبب إذا شهدوا ذلك حصل لهم الإيمان الضروري بالمعانية، ولم ينو للإيمان بالغيب موضع، فهو إيمان المصطر، كالإيمان عند العرعة وحروج الروح، وهو إيمان فرعون الذي رده الله تعالى عليه عند العرق

٥ خروج الدابة

خروج دابة تكلم الناس من الآيات الكبرى لقيام الساعة، وقد وقع الإشارة إليه

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧ ومعنى فرغ من الله على أي يدعو الله، وسعد دود يكون في أبواب لابل وهم وعرسى صبي، ودهمهم دهمهم والشح نوع من لابل، ولا يكر لا يمح من برون المطر، ومنهم طير سدر، وكأثره كالأثر في صفاتها، والنمصاة لجماعة ونصبتها تدوير لشرتها، ورسولهم من والنمصاة الناصه الغربية العهد من الولادة، والنمصاة لجماعة الكثرة، نظر شرح مسلم

في الفراء، قال تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل ٨٢]، وهي من الآيات التي يقفل مع خروجها باب التوبة، فهي مصاحبة لطلوع الشمس من مغربها أو قرية منها، فهي الصحيح قال ﷺ «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ صُحُفٌ وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبِهَا فَإِلَّا أُخْرِجَ عَلَى إِيْرَهَا قَرِيبًا»^(١)

وتعرج الدابة لتكلم الناس وتغير المؤمن من الكافر، تكميلاً لمقصود من إغلاق باب التوبة

٦. الريح التي تقبض أرواح المؤمنين

في حديث الزواس بن سمعان المتقدم ... «فَيَمَّا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَانِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»^(٢)، وفي الصحيح عن عائشة قالت قال ﷺ «ثُمَّ يَمُتُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفِّي كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خِرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»^(٣)، وفي حديث عبد الله بن عمرو في الصحيح عن النبي ﷺ «... ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيْمَانٍ إِلَّا قُبِضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ حَبَلٍ لَدَخَلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ. قَالَ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ النَّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَنْشَلُّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ يَقُولُ أَلَا تَنْتَجِبُونَ؟ فَيَقُولُونَ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقَهُمْ حَرَنٌ عِبَتُهُمْ»^(٤)، وفي رواية «وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»^(٥)

ولاحديث الصحيحة تدل على أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الجن وأنه

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٤١

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧

(٣) مسلم حديث رقم ٢٩٠٧

(٤) مسلم حديث رقم ٢٩٤٠

(٥) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧ ويتهارجون تهارج الحمر أي يجامع الرجال النساء أمام الناس كما يفعل الحميم

لا يقف إلا من لا حير فيه يومئذ فتأخذهم الساعة نعتة، ولا سطور، جاء في الصحيح قال ﷺ «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ يَحْلُبُ اللَّفْحَةَ فَمَا يَصِلُ الْإِنَاءُ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُومَ، وَالرَّحْلَانِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَتَبَايَعَانِهِ حَتَّى تَقُومَ، وَالرَّجُلُ يَلِيطُ فِي حَوْضِهِ فَمَا يَصُدُّ حَتَّى تَقُومَ»^(١)، وفي رواية «... وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصَرَفَ الرَّجُلُ بِرَأْسِ لِفْحَتِهِ فَلَا يَطْمَعُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَنْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أَكْلَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْمَعُهَا»^(٢)

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٥٤

(٢) سنن أبي داود حديث رقم ٥٦٠٦

العالم الآخر

أحوال العالم الآخر لا تخضع للقياس

يعتبر الإنسان مشاهد العالم الآخر من حين الاحتضار ووقوفه على أعقاب الموت، ثم تناع عليه المواقف بعد ذلك حتى تنتهي به إما إلى الجنة، وإما إلى النار وعالم ما بعد الموت يجب على الإنسان أن يسلم فيه بما ثبتت صحته منصوص الوحي، ولا يريد ولا يقص، فلا يقبس تلك الأمور العينية بعقده، ولا يربطها بمبررات الدنيا، فإن لكل عالم مقاييسه ومواريه، فإذا استعملت مقاييس عالم في عالم آخر أخطت المقاييس وتناقضت الموارد، وصل القائن الطرين، كمن يريد أن يقبس السماوات وتعد ما بين الأفلاك والمجرات بالاستيمترات، بدل السيس الضوئية، فإنه يفتي عمره ولن يظهر بظاثل فأحوال العالم الآخر كلها من أمور الغيب التي يجب السيس والإيمان بها على النحو الذي جاء في القرآن وسنة النبي ﷺ، وهي أمور لا يعرض عليها بعقل ولا قياس، ومن توقف فيها أو اعترض، فقد خسر وحرم الإيمان وقد جاء في القرآن والسنة الصحيحة وصف لكثير من هذه المشاهد، وفائدة ذلك أن يسه الناس لما هم صائرون إليه، فيحملون أنفسهم على الأحكام بالأسس التي تحيهم من عذاب الله وأهوال ما بعد الموت، ويتصرعون إليه تعالى أن يحفف عنهم شدة تلك المواقف^(١)

وفيما يلي عرض هذه المشاهد التي يمر بها الإنسان من حين الاحتضار إلى أن ينتهي به الأمر إما إلى العيم وإما إلى الجحيم أعاذنا الله تعالى من النار بقصده وكرمه

(١) انظر فتح الباري ١٨٦/١٤

أحوال الموت والبرزخ^(١)

الموت

الموت يكون عند انتهاء الأجل، بخروج النفس ومعارقتها للبدن، ويتولى قبضها ملك الموت الذي وكل بقص الأرواح، والموت له شدة وسكراب، قال تعالى ﴿وَمِمَّا تَسْكُرُ الْمَوْتُ يَلْقَىٰ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩] وشدة الموت ومكيدته على المؤمن أثناء خروج الروح، أو سهولته ويسره لا تعنى شقاء الإنسان أو سعده، فقد يشتد الموت على السعيد لرفع درجته، وقد يسهل على العاصي لحكمة يعلمها الله تعالى، ففي الصحيح عن عائشة قالت: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَنَبَّأُ بِمَوْتِهِ رَكُوعًا أَوْ عُتَبَةً فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يَدْخُلُ يَتَنَبَّأُ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى حَتَّىٰ قُبِضَ وَمَا لَتْ يَدُهُ»^(٢)، وكاتب عائشة تقول: «مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِنَّهُ لَيَنْ حَاقَتِي وَذَاقَتِي، فَلَا أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لِأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ»^(٣)، وفي الصحيح عنها قالت: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ عَلَيْهِ الْوَحْغُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٤)، وفي رواية عنها: «مَا أَغْطِ أَحَدًا بَهْؤُنَ مَوْتِ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ شِدَّةِ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٥)

(١) خروج ما بعد الموت إلى الآخرة

(٢) سنن أبي داود رقم ٦٥١٠ وفي الترمذي (الأعلى أي مع جماعة الخلائق) ونسب في أبي عيسى، نظر

فتح ساري شرح حديث رقم ٦٥١٠

(٣) سنن أبي داود رقم ٤٤٤٦ والترمذي (حافضي وذافني) أنه ﷺ مات وهي مسدة له على صدرها، وهو

معنى حديث آخر (ابن سحري وسحري)

(٤) سنن أبي داود رقم ٥٦٤٦

(٥) الترمذي حديث رقم ٩٧٩ ونظر عارضة الأحوي ٢٠١/٤، والمصنف ٣٣٦/١

والطيبون من المؤمنين تسلم عليهم الملائكة عند قصص أرواحهم، وتشهرهم بالجنة، قال تعالى ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَائِفًا لِنَفْسِهِمْ قَالُوا لَسَنَّا مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل ٣٢]، وقال تعالى ﴿إِنَّ إِلَيْكَ لَأُلَاقِيَ رَبُّكَ اللَّهُ ثُمَّ تَسْمَعُ سَوْرَتَكَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَحْشَرُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَلَّا تَكُونَ مِنَ الْخَالِفِينَ﴾ [النحل ٣٠] أما الظلمة فإن الملائكة تشهرهم عند قصص أرواحهم بالدار قال تعالى ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَائِفًا لِنَفْسِهِمْ قَالُوا لَسَنَّا مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَوْسَىٰ التَّوَكُّلُونَ﴾ [النحل ٢٨، ٢٩]

أما الكافر، فقد أحبر الله تعالى أنه يذيقه العذاب عند حروح روحه، وأن الملائكة تصره وتخزيه، قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُخْرَجُونَ عَذَابُ الْهَوَىٰ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ عَلَىٰ اللَّهِ عَيْتٌ لِّخَلْقِكُمْ وَمَنْ يَمُنْ بِهِ فَسَبِّحْهُ فِي الْبُحْرِ وَالْأَنْهَارِ وَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ حُكْرٌ وَالَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبْحِ اللَّهِ فَهُمْ لَهَا مُكَرَّمُونَ﴾ [الأنعام ٩٣]، فقد جاء عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أن ذلك عند الموت ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام ٩٣]، يعني بصربون وجوه الكفار وأديارهم، كما قال تعالى ﴿فَكَفَّ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يُضْرَبُونَ بِأُخْرُوعِهِمْ وَأُذُنِهِمْ﴾ [محمد ٢٧]

وفي الحيلة من مات على حسن الخاتمة سأل الله تعالى حسنها فقد جازى له من مات على التوحيد لا يخلد في الباء قطعاً مهما عظم ذنبه، ففي الصحيح قال ﷺ «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللَّهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَيْرٍ دَخَلَ مِنْ إِيْمَانٍ فَأُخْرِجُوهُ»^(١)

والاعتداد بما هو بالخواتيم، ففي الصحيح، قال ﷺ «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»^(٢)

والشيطان قد يعرض للإنسان عند الموت فيفتنه، ولذلك كان أخوف ما يحذره الصالحون سوء الخاتمة، والفتنة عند الموت

(١) سنن أبي داود حديث رقم ١٥٦٠

(٢) البخاري حديث رقم ٦٤٩٣

والخوف من سوء الخاتمة وقت الصحة والقدرة على العمل مطلوب؛ لأنه يدفع إلى مريد من الطاعة والخوف من الله تعالى، أما عند الاحتضار وعدم القدرة على العمل، فقد حذر النبي ﷺ من القنوط واليأس من رحمة الله، وحض عن الرحاء والثقة في الله بحسن الخاتمة. ففى الصحيح عن جابر قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُخَيِّنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ»^(١)

وعند العرعة والرع حين لا تقبل توبة، يشتر كل إنسان بما هو صائر إليه من نعيم أو عذاب، وللسعيد حيث يشاء يحب الموت ولقاء الله تعالى، لتحير الذي يراه، ويحب الله تعالى لقاءه، والشقى يكره الموت ولقاء الله تعالى، لما يراه من المكروه، والله تعالى يكره لقاءه. فقد جاء فى الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت، قال رسول الله ﷺ «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، فَقَدْ يَأْتِي اللَّهَ أَكْرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَكُنَّا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَّهَهُ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٢)

سؤال الملكين وعذاب القبر

أضيف العذاب إلى القبر، لأن العالب فى الموتى أن يقرؤا ويدفوا، وليس لأهل العذاب خاص بمن يقرء دون غيره. فمن احترق أو أكلته السباع فإن الله تعالى يعذبه، إذا كان من أهل العذاب. وقد تصافرت الأدلة من القرآن والسنة الصحيحة على أن الإنسان يُسأل فى قبره ويفتن، ويستمع فيه أو يُعذب، والعقل كذلك لا يسمع أن يعيد الله تعالى الحياة إلى الجسد، فيقعد ويسأل، ويُعذب أو يُنعم، ولا يسمع من ذلك تفرق أحراره، لأن الله تعالى قادر أن يعيد الحياة إلى جرد الجسد، أو إلى كنهه ليفع عليه السؤال أو العذاب، ولذلك يجب التصديق والإيمان بجميع ذلك، قال الله تعالى ﴿سَعِدَتْهُمُ مَّرَاتِي ثُمَّ بُرِدَتْ لِيَ الْإِلَهَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة ١٠١]

قال أهل التفسير العذاب الأول ما يصيب الكافر فى الدنيا من عذاب، من مرض

(١) مسلم حديث رقم ٢٨٧٧

(٢) مسلم حديث رقم ١٥٧

أو فقر أو فصيحة الح، والعذاب الثاني هو عذاب القبر^(١)، وقال تعالى ﴿مَذَرْنَاهُمْ حَتَّى يَنْفَقُوا حَتَّى يَأْتِيَ فِيهِ الْيَوْمُ لَا يَمْنَعُهُمْ كُذُّهُمْ شَيْءٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١١) وَإِنَّ سَائِرَ طُلُوعِ عَذَابِ دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ كُذِّبُوا لَا يَنْصَرُونَ﴾ [الطور ٤٠-٤١]، وقال تعالى ﴿لَنَارُ الْغَوَاةِ عَلَيْهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [عافر ٤٦]، وجمهور العلماء على أن هذا العرض على النار يكون في الروح بعد الموت، وقيل أن يعذب الله تعالى الحلائق لحساب، وقال تعالى عن الشهداء ﴿وَرِجَعِي بِنَا أَرْسَلْنَاهُنَّ إِلَى فِئَةٍ مِّنْ قَبْلِهِمْ وَفَعَلْنَّ بِهِمْ وَأَنَّهُنَّ الْكَافِرَاتُ﴾ (١٢) وَتَنصَرِفُونَ بِأَلْسِنَةٍ أَلَا حَوْفٌ لَّهُنَّ وَلَآ هُنَّ يَخْشَوْنَ﴾ [آل عمران ١٧٠]، وهذا لا يكون إلا في الدين، لأن الدين لم يلحقوا بهم أحياء لم يموتوا بعد، فدل على أن في القبر عذاباً وشدة

وسواء القبر عام للمطيع والعاصي والكافر^(١٣) والمؤمن، لعموم الأدلة الدالة عليه، ففي الصحيح من حديث أس أن رسول الله ﷺ قال «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ أَنَاءَ مَلَكَيْنِ يَقْعِدَانِهِ يَقُولَانِ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ - لِمُحَمَّدٍ ﷺ - فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ يَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْذَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيَقَالُ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيَقَالُ لَا دَرَنَتْ وَلَا تَلَيْتَ وَيُضْرَبُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»^(١٤)

وقد ثبت أحاديث كثيرة صحيحة في عذاب القبر عن النبي ﷺ، كعوده في صلاته وغيرها من عذاب القبر، وكسماعه صوت من يعذب في قبره سب السؤل وغيره وكلامه ﷺ لموتى الكفار يوم بدر بعد أن رموا في القليب، وقوله «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ أَنْ يُجِيبُوا»^(١٥)، حين سأله عمر

(١) انظر تفسير حرطبي ٢٤١/٨

(٢) وذهب جماعة منهم ابن عبد البر إلى أن سواء القبر لا يكون للكافر، وإنما يكون لمر طاهره لإيمان به

الدين، مؤمن أو منافق، وأما الكافر الجاحد فليس ممن يسأل عن دينه انظر لمهد ٢٧٠/٢٢

(٣) البخاري حديث رقم ١٣٧٤

(٤) مسلم حديث رقم ٢٨٧٥

«صلى الله تعالى عنه» «كَيْفَ تَكَلَّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا»^(١) كل ذلك وغيره بعيد لكثرة اليقين بصحته، ووجوب الإيمان بوقوعه قال النووي «إن قيل فبحر شاهد الميت على حله في قبره، فكيف يُسأل ويقعد ويصرب بمطارق من حديد، ولا يظهر له أثر، فالجواب أن ذلك غير ممنوع، بل له نظير في العادة، وهو النوم، فإنه يجد لذة ولا مآ لا يحس بحر شيئاً منها، وكذا يجد اليقظان لذة وألماً لما يسمعه أو يفكر فيه، ولا يشاهد ذلك حليسه، وكذا كان حبريل يأتي النبي ﷺ، فيحرقه بالوحى الكريم، ولا يدركه الحاصرون وأما صرره بالمطارق، فلا يمنع أن يوسع له في قبره، ويقعد ويضرب، والله أعلم»^(٢)

وفي حديث الرءى بن عارب الآتى وصف كامل لحال الإنسان بداية من حنة الاحتصار وحروج الروح، إلى استقرار روحه في البرخ، على الحالة التي هي عليها، من نعيم أو عذاب، حتى يأتى الله تعالى بقيام الساعة

عن الرءى بن عارب رضي الله عنه، قال «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَارَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاتَّهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَذُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدَيْهِ حُودٌ يَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اسْتَمِيزُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِثْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، يَبْشُرُ الْوُجُوهَ كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَرٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَخُوطٌ مِنْ خُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا بِهِ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ ﷻ حَتَّى يَجْلِسَ جُنْدَ رَأْسِهِ، يَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغِيرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ فَتَخْرُجُ تَبِيلٌ كَمَا تَبِيلُ الْقَطْرَةِ مِنْ فِي السَّاقِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرَفَةٌ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْمَلُونَهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْخُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْلَبِ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ فَيَضَعُونَهَا بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ- إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ قُلَانُ ابْنُ قُلَانٍ بِأَخْسَنِ أَسْمَائِهِ النَّبِيُّ كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَتَّهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَنْفَعِحُونَ لَهُ فَيَفْتَحُ لَهُمْ

(١) مسلم حديث رقم ٢٨٧٣

(٢) شرح مسلم ٣٠٢/١٧

فَيَسْأَلُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ
 يَقُولُ اللَّهُ ﷻ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي جَلِيلٍ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مَعَهَا
 خَلَقْتُهُمْ، وَبِهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ قَتَادُ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ
 قِيَامِيهِ مَلَكًاانَ فَيَجْلِسَانِيهِ يَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ يَقُولَانِ لَهُ مَا دِيْنُكَ؟
 يَقُولُ دِيْنِي الْإِسْلَامُ. يَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيكُمْ؟ يَقُولُ هُوَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولَانِ لَهُ وَمَا جِئُوكَ؟ يَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ،
 فَيَأْتِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَّقَ عَبْدِي، فَأَقْرِئُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبُسُوفُ مِنَ الْجَنَّةِ،
 وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ قِيَامِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطَيْبِهَا يَفْتَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ
 قَالَ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوُجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرَّيْحِ. يَقُولُ أَبَشِّرْ بِالَّذِي بَشَّرُكَ،
 هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ يَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهَكَ الْوُجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ يَقُولُ
 أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ يَقُولُ رَبِّ، أَتِمَّ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي

ق. وَإِنَّ الْمَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ
 السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ
 الْمَوْتِ حَتَّى يَخْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ يَقُولُ آتَيْنَا النَّفْسَ الْخَبِيثَةَ أَخْرِجِي إِلَى مَسْخِطٍ مِنَ اللَّهِ
 وَغَضَبٍ قَالَ فَتَفْرُقُ فِي حَسَدِهِ فَيَتَرَعَّعُهَا كَمَا يُتَرَعَّعُ السَّقُودُ مِنَ الصُّوْبِ الْمَبْلُولِ،
 فَيَأْخُذُهَا وَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَذْهَبْهَا فِي يَدِهِ طَرَفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي بَلَدٍ الْمُسُوحِ،
 وَيُخْرِجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ حَقِيقَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا
 عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ يَقُولُونَ فَلَا أَيْبَ فَلَانٍ بِأَتَمِّحُ
 أَسْمَاءَهُ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُنْفِثُ لَهُ،
 فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لَا تَنْفُخْ لَهُمْ أَيْوَدُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ لَعْنَةً حَتَّى يَبْلُغَ
 الْجَنَّةَ فِي سَبْعِ الْيَوْمِ﴾ [الْأَمْرَأَةُ ١٠] يَقُولُ اللَّهُ ﷻ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي مَسْجِدٍ، فِي الْأَرْضِ
 الشُّقْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِإِلَهِهِ فَكَانَ حَرَمًا مِنَ السَّمَاءِ فَتَحَطَّمُهُ
 الْكَلْبُ أَوْ نَهَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَارٍ سَجِيَّةٍ﴾ [الْحَجَّ ٣١] قَتَادُ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكًاانَ
 فَيَجْلِسَانِيهِ يَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ يَقُولُ هَاهُ هَاهُ، لَا أَذْرِي. يَقُولَانِ لَهُ مَا دِيْنُكَ؟
 يَقُولُ هَاهُ هَاهُ لَا أَذْرِي. يَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيكُمْ؟ يَقُولُ هَاهُ
 هَاهُ لَا أَذْرِي فَيَأْتِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَأَقْرِئُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى
 النَّارِ قِيَامِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرَهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ

رَحُلَ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الْيَابِ، مُتَنُّ الرِّيحِ، يَقُولُ أَبَشِرُ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ
الَّذِي كُنْتَ تُوعِدُ يَقُولُ مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ يَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ
الْحَبِثُ، يَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ^(١)

ضغطة القبر

لا يبحر من صغطة القبر صالح ولا طالح إلا الأسياء لعصمهم، وقد استثنى
السي رحمه الله من صغطة القبر فاطمة بنت أسد أم علي كرم الله وجهه لصمها
المصطفى صلى الله عليه وآله، قال صلى الله عليه وآله: «إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا مِنْهَا نَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ
مُعَاذٍ»^(٢)، والمراد بصغطة القبر التقاء حابيه على جسد الميت، والفرق بين المسموم
والكافر هو دوام الضغط على الكافر، أما المؤمن فيصعق عليه القبر في أول بروله، ثم
يفسح عنه، وحديث استثناء فاطمة بنت أسد من ضغطة القبر أشد إليه الحفاظ
من ححر في الإصانة بلفظ «ما أعفى أحد من صغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد»،
وعنه يهدى لفظ في مسل الهدى والرشاد إلى أبي عاصم وأبي نعيم^(٣)

مستقر الأرواح بعد الموت

الأرواح في البرزخ متفاوتة نعيمًا وعذابًا، بقدر ما كانت عليه من تفاوت في الدنيا
في طاعة الله، فأرواح الأسياء في الرفيق الأعلى مع الملائكة في أعين عيسى، وقد
حرم الله تعالى على الأرض أن تأكل أبدانهم
في الصحيح من حديث وفاة النبي صلى الله عليه وآله: «... ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَبَجَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ
الْأَعْلَى»^(٤)، وقد صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٥)

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٨٧ والنقطة وحرجه الحاكم في المستدرک ١/ ٣٧، وهو حد حديث صحيح
على شرط الشيخين، وانظر صحيح مسلم حديث رقم ٢٨٧٢ في طب روح المؤمن وشر روح الكافر عند
خروجه

(٢) المسند مع الفتح الرماني ١٣٤/٨، وسند الحديث جيد، وانظر الفتح الرماني ٢٥٧/٢١

(٣) حديث مر روي به سديد بن النوفلي عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس وسعد بن وهب بن يوسف أحمد بن
محمد يصفى نظر لاصحه ٥١٦، ٥، وسن الهدى والرشاد ١٩/١١

(٤) مسند حديث رقم ٦٥١٠

(٥) أبو داود حديث رقم ١٠٤٧

وأرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث تشاء، إلا من حسره عن دحور الجنة دين عليه، أو شيء من الحقوق كما جاء في السنة^(١) جاء في الصحيح في تفسير قول الله تعالى ﴿وَلَا تَحْزَنْ لِمَنْ هَلَكَ مِنْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ أَمْوَالُهُمْ أَمْوَالُهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ [آل عمران ١٥٦] «أَنْ أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ لَهَا قَنَابِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْمَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَابِيلِ»^(٢)

وأما أحساد الشهداء، فقد جاء في حديث جابر حين نقل أناه من قبره، قال «فَأَسْتَعْرِخَتْهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَا غَيْرَ أَذْنِهِ»^(٣)، ويحتمل أن تنفي أحساد الشهداء كذلك إلى أن تمت، لا تأكلها الأرض، ويحتمل أنها تبلى مع طول المدة، والله أعلم. قال الطحاوي «وكانه والله أعلم كلما كانت الشهادة أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء حسده أطول»^(٤) وأرواح عامة المؤمنين تنصوب في أصداف العليم وفي أصداف العذاب والألم، حسب مقامها وعملها في الدنيا، فصها ما يكون طائرًا يرتفع في شجر الجنة، ففي الموطأ من حديث كعب بن مالك، قال رسول الله ﷺ «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَغْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَنَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»^(٥)

ومنها ما يكون في الجنة، في مكان أو دار، قال رسول الله ﷺ «لَمْ أَرُ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا»^(٦)، ومنها ما يكون محبوسًا على باب الجنة، كما دل عليه حديث «إِنَّ صَاحِبَكُمْ مُخْتَبَرٌ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ فِي دِينٍ عَلَيْهِ»^(٧)

ومنها ما يكون بماء القبر، ويدل له حديث ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا، فَيَسْلَمُ عَلَيْهِ، إِلَّا عَرَفَهُ

(١) من سنن أبي حنيفة حديث رقم ٢٦٨٤ والمصنف الطحاوي ص ٤٥٥

(٢) مسند حديث رقم ١٨٨٧

(٣) مسند حديث رقم ١٣٥١ ولله الشكر

(٤) مسند حديث رقم ٤٥٦

(٥) موطأ حديث رقم ٥٦٦

(٦) مسند حديث رقم ٢٧٩١

(٧) مسند أحمد حديث رقم ١٩٦٦٦

ورد عليه السلام^(١)، قال مالك «يلعى أن الروح مرسله تذهب حيث شاء»^٢
ومنها أرواح تسبح في أنهار من الدم، كلما أرادت أن تخرج منه وميت بحجر،
فردت حيث كانت، وهم اكلوا الربا، ومنها ما هو محبوس في تور، أعلاه ضيق
وأسمه واسع، يتوقد تحته ناراً، وهم الرماة، ومنها من تعذب بكنوب من حديد يدخل
في شديق صاحبها حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل شدة الآخر مثل ذلك، فإذا التأم شدقة
الأول صنع به مثله، وهكذا دواليك، وهؤلاء هم الكذابين يصنع بهم كذلك إلى يوم
القيامة، ومنها أرواح تشدح رءوس أصحابها بصخرة عظيمة، ثم تستم وتعود كما
كانت، فتضرب مرة أخرى وهكذا، وصاحب هذه الحال هو من أعطاه الله تعالى
الفرق، فممن عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به كذلك إلى يوم القيامة كل
ذلك من عبيد حديث البخاري في الرؤيا التي رآها النبي ﷺ^(٣)، وأما أرواح الكفار،
فهي في سبعين في أسفل سافلين

وأحسد عمة المؤمنين تقى وتأكلها الأرض، ما عدا عجب الدب، ثم شنها الله
تعالى عند البعث شاة أخرى، قال تعالى ﴿وَأَنَّ مَتَّو الشَّاةَ الْآخَرَى﴾ [النجم ٤٧]،
وفي الصحيح قال ﷺ «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ
يُرْكَبُ»^(٤)

(١) قال الحافظ العراقي ذكره ابن عبد البر في التمهيد والاستدكار بإسناد صحيح من حديث ابن عباس.

وصححه كندة أبو محمد عبد الرحمن النذرة ١٤٥/١ وقصص التقدير ٤٨٧/٥، وعون المصنف ٢٦١/٣

(٢) المغلة الطحاوية ص ٤٥٣

(٣) البخاري حديث رقم ١٣٨٦

(٤) مسلم حديث رقم ٢٩٥٥ والمعجب عظم لطف في أصل الصنب، وهو مكان رأس الدب من دواب

النفخ في الصور

مدية القيامة تكون بالنفخ في الصور، والصور كهينة البوق، وصاحب الصور الذي يولى صفه بأمر الله تعالى إسرائيل من الملائكة عند أكثر العلماء والصور له صفحتان، الصفحة الأولى يقضى الله تعالى بها جميع الحلات، فيصعقون إلا من شاء الله أن يستثيه، والصفحة الثانية يحيى الله تعالى بها الحلات، وقد ذكر الله تعالى الصفحة الأولى في أكثر من آية، قال تعالى ﴿مَا يَبْطُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ﴾ [يس ٤٩]، وقال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا نُفِخَ فِي سَاقُورٍ﴾ (٨) هـ ذلك يوم يوم عسر ﴿[المدر ٨، ٩]﴾^(١) كما جاء ذكر الصفحة الثانية في مواضع من القرآن، قال تعالى ﴿ثُمَّ نُفِخَ بِهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَبْطُرُونَ﴾ [الزمر ٦٨]، وقال تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَبْطُرُونَ﴾ [الصافات ١٩]، وقال تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ﴾ [التارعات ١٣، ١٤]، وقال تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجُفُ﴾ (١٤) ﴿تَرْجُفُ﴾ [التارعات ٦، ٧]،^(١)

وعقب الصفحة الأولى تحدث التعيرات في الكون التي أحمر عنها القرون، فسلك
الأرض والجد، وتشق السماء، وتظلم الكواكب، قال تعالى ﴿إِذْ بَلَغَ فِي السُّبْحِ
نُفْعًا وَجِدَّةً ﴿١٦﴾ وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ نَذَرَ ذُنُوبَكُمْ وَجَعَلَ ﴿١٧﴾ مُمْسِكًا لَوُفِّهِ ﴿١٨﴾ وَأَشْفَقَ

و ۱۰۰ (۶) و ۱۰۰

(٢) الرحلة صباح النحر في العصور

(٣) الظاهر وجه الأرض

(٤) الرجعة الأولى، والردة: الرجعة الثانية، كما دوى عن ابن عباس رضي

أقوال كثيرة في تحديد من يستثيهم الله تعالى فلا يموتون عند الساعة الأولى، هل هم الملائكة أو بعض الملائكة أو غيرهم، والأحاديث في تعيينهم ضعيفة، والله أعلم بذلك.

فرد في الحلائق ولم يبق إلا الله تعالى، قال سبحانه: أنا الجبار، لم السمك اليوم؟ فلا يحية أحد، فيقول لله الواحد القهار وفي الصحيح، قال ﷺ: يقبض الله -تبارك وتعالى- الأرض يوم القيامة ويطوي السماء يمينه ثم يقول: أن الملك، أين ملوك الأرض؟^(١)

وورد في بيان المدة التي تكون بين النفختين حديث أبي هريرة في الصحيح، قال قال رسول الله ﷺ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا صَالِحٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَيْتٌ، قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْتٌ، قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَيْتٌ، وَيَتَلَوَّى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ ذَنْبٍ فِيهِ يُرْكَبُ الْخُلُقُ^(٢) والعشاء يقولون أربعون سنة، وقد جاء ذلك في أحاديث من طرق ضعيفة^(٣)

(١) مسلم حديث رقم ٢٧٨٧

(٢) مسلم حديث رقم ٤٨١٤ ومعنى أيت امتنع أن يمر لأي لا أعلمه، فلا أقول فيه ما رأي

(٣) انظر فتح الباري ١٥٨/١٤

الحياة الآخرة

- ٩ -

البعث

معنى البعث

البعث هو إثارة الشيء الساكن، والمراد بالبعث في يوم القيامة إحياء الأموات لمساءلتهم في فصل القضاء، قال تعالى ﴿أَلَا نُنْظِرُ أُولَئِكَ أَتَمَّ مَعُونًا ۖ إِنَّ يَوْمَ الْفُتُورِ لَأَشَدُّ رِجْسًا لِّلرَّاسِخِينَ﴾ [المطففون ٤، ٦]، وقال تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرًا وَهِيَةٌ ۚ يَوْمَ هُمْ بِالْأَعْدَةِ﴾ [التارعات ١٣، ١٤]^(١)

فيحب على المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى يحيى عباده بعد أن تصفى الحلائق فيسئتهم شاة أخرى، ويبعثهم من قبورهم ويحوها، ليحاربهم على أعمالهم، ففي الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم «ثُمَّ يُرْمَلُ اللَّهُ أَوْ قَالَ يُزَلُّ اللَّهُ مَظَرًا كَأَنَّهُ الظِّلُّ أَوْ الظِّلُّ قَتَبَتْ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ»^(٢)

الحكمة من البعث

البعث من تمام عدل الله تعالى وحكمته، فلو ترك الناس سُدىً، لأفست الفجر من القصاص، ولاستوى الظالم والمظلوم، والقاسق والصالح، والمسلم والكافر، قال تعالى ﴿فَسَجِّلُ الْتَابِينَ لَكُلِّ مِنَّا كُفًّا ۖ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم ٣٥، ٣٦]، وقال -

(١) ساءره أرض حوى

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٤٠

تعالى - ﴿أَلَمْ نَسِمْكُمْ أَلَمًا حَلَقْنَكُمْ عَسَا وَأَنكُمُ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ [المؤمنون ١١٠]

يفتد الناس للحساب فيه تسلية للمسلم وطمأنينة لقلبه، فلا يصيبه بأس ولا قنوط مهما أودى، أو قُلم أو حرم، لأنه يحتسب ذلك كله ليوم يأخذ فيه حقه رافياً عند أحكم الحاكمين، الذي لا تحصى عنه حافية، ولا يعرب عنه مثقال ذرة

إقامة الحجة على منكري البعث

قال الله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِعُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج ٧]، وقال تعالى

﴿مَرْيَمُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلِكِ عِلْمٌ ۚ لَمَّا خَلَّصْتِ الْبَنِينَ ۖ وَنُوحًا ۖ وَحَمْلًا وَهَارُونَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۚ﴾ [المؤمنون ١٦]، وقد حج الله الكافرين الذين يكررون

البعث، وساق في القرآن عدداً من شهبهم وأظلمها، وأقام البراهين القاطعة على

فسادها، قال تعالى ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لِي يُعْزَأَ قُلُوبِي وَرَبِّي لَتَشْعُرَنَّ يَوْمَ عِثْمَتِهِمْ ۚ﴾

وذلك على الله يبيِّن [التعاني ٧]، وقال تعالى على لسان الكافرين ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا

عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء ٩٨]، فرد عليهم بقوله ﴿قُلْ كُونُوا

حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ أَوْ حَقًّا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مِمَّ يُبْعِدُهُ قُلُوبُنَا فَنُفِثْهُمْ

مَرَّةً فَيُبْصِرُونَ إِلَيْكَ ۚ رُءُوسِهِمْ يَبْتَغُونَ ۚ قُلْ هُوَ قُلُوبُكُمْ أَن يَكُونَ قُرْآنًا﴾ [الإسراء ٩٠-٩١]

وفي قوله تعالى ﴿قُلِ الَّذِينَ فُطِرَتْ لَهُمْ مَرْثٌ﴾ أبلغ رد وأقطع حجة، فإن من قدر

على الحق أو مرة لا تعجزه الإعادة، لأن إعادة الخلق في قانون العقل أهون من

الاحتراع والبداءة، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي تَدْعُوا لِحَقِّهِ ثُمَّ يُعَذِّبُ ۚ وَهُوَ قَوِيٌّ

عِزَّةً﴾ [الروم ٢٧]، والله ﷻ يخلق الشيء بقوله كس فيكون، سواء في البداءة أو في

الإعادة، ولكل في حقه سواء، لا يكلفه الخلق جهداً ولا أمراً، لا في البداءة ولا في

الإعادة، ولكنه مثل ضربه لنا من أنفسنا، بمقتضى قانون المهم الذي تطيقه عقولنا،

ولد حتم الله لأية السابقة بقوله تعالى ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ

كَرِيمٌ الْحَكِيمُ﴾ [٢٧] صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وقال الله تعالى في الآية

الأخرى ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَنَىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَن نَّبْعِ الْبَظَنِّ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٢٧] قُلْ يُحْيِي الَّذِينَ

أَنشَأَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [٢٨] الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا

أُشْتُ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [٢٩] أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ

وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَبِيدُ﴾ [٣٠] إِنَّمَا تَمْرُهُمْ إِذَا أَرَادَ مَوْتًا تَنَادُّونَ أَن يَقُولُوا لَكُم مَّا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ﴾ [٣١] فَسَخَّرَ

الَّذِي يَنْدُبُ مَكُونُ كُلِّ شَيْءٍ وَبَنَىٰ رُجُومًا﴾ [يس ٧٨-٧٩]، وقال تعالى ﴿لَخَلْقُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ حَلْقِي الْكَافِرِينَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ [عامر ٥٧]،
وقال تعالى ﴿يَتَحَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَبْرَهُ شُكُّهُ ﴿٥٨﴾ لَئِنْ تَطَلَعْتَ مِنْ مَتْنِي يَتَنَبَّأُ ﴿٥٩﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْفُهُ فَسْوَى ﴿٦٠﴾ لِحُلٍّ مِنْهُ الرُّوحَانِ الْمَذْكُورِ وَالْأَنْفِ ﴿٦١﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ ﴿٦٢﴾﴾ [القيامة ٣٦-٤٠]،
وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ آلِ بَيْتٍ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَارٍ ثُمَّ مِنْ طُغْيَانٍ ثُمَّ مِنْ حَلْفَةٍ ثُمَّ مِنْ مُصْعَقٍ لِيُخَفِّزَ﴾ [الحج ٦]، وإذنا بعث الله تعالى الحلائل
قال الكافرون ﴿يَوَيْلًا مَنْ نَعَّمْنَا مِنْ مَرْقَبًا﴾ [يس ٥٢]، فيرد المؤمنون ﴿هَذَا مَا وَعَدَ
الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس ٥٢] وحاء في الصحيح أن نبينا محمد ﷺ هو أول
من تشق عنه الأرض، قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدٌ وَلَدَ أَدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَشُقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ
وَأَوَّلُ شَايِعٍ وَأَوَّلُ مُشَقِّعٍ»^(١)

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٧٨

الحشر

معنى الحشر:

الحشر سوق الناس بعد بعثهم من القبور إلى الموقف، ينتظرون الحساب وحراء الأعمال. ويحشر الناس حفاة عراة غرلاً أي غير مختونين، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام ١٠٤]، وقال تعالى ﴿كَمَا بَدَأَ أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء ١٠٤]، وأول من يكسى بى الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويصيب الناس من الهول وكرب الموقف وطوله ما يصيبهم، حتى إنهم يسمون الانصراف ولو إلى النار ويستثنى من ذلك الكرب الأسياء والشهداء ومن يطعمهم الله تحب ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما جاء في حديث السعة الدين يطعمهم الله تعالى وليس الناس في المحشر كلهم سواء، فمعهم من يكرم تكريم الوفود على الملوك، وهم المتقون، ومنهم من يحشر على وجهه، وهم الكفار، قال تعالى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثَاقًا﴾ [مريم ٨٥، ٨٦]، وقال تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًَّا وَنُكَّأًا وَسِمَاقًا﴾ [الإسراء ٩٧]، وقال تعالى ﴿أَلَيْسَ بِحَشْرٍ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان ٢٤]، وقد جاء في الصحيح أن رجلاً قال «يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ أَلَيْسَ أَلَدِي أَمْشَاءُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُنْشِبَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ قَتَادَةُ بَلَىٰ وَحِزَّةَ رَبِّنَا^(١) وجاء في الصحيح من حديث ابن عباس

(١) البخاري حديث رقم ٤٧٦٠

رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ، قَالَ «حَظَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاءَ عُرَاءَ عُرْلَا ، ثُمَّ قَالَ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِندَنَا عَلَيْهَا إِنْئَا كُنَّا فَاعِلِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ثُمَّ قَالَ أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ^(١)»

وفي الصحيح أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «تُحْشَرُونَ حُفَاءَ عُرَاءَ عُرْلَا ، قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُبْهَمَهُمْ ذَلِكَ^(٢) ، فلكل امرئ منهم يومئذ شأنٌ بعينه وفي الصحيح قال ﷺ «إِنَّ الْعَرَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيَنْفَبُ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا ، وَإِنَّهُ لَيَلْبُغُ إِلَى أَقْوَاءِ النَّاسِ أَوْ إِلَى أَدَانِهِمْ^(٣) ، وقال ﷺ «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ ، قَالَ سَلِمٌ بْنُ عَامِرٍ قَوْلَ اللَّهِ مَا أَذْرِي مَا يَنْبَغِي بِالْمِيلِ أَمَّا قِصَّةُ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ ؟ قَالَ فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَفَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِنْجَامًا . قَالَ وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِصْبِهِ إِلَى يَدِهِ^(٤)»

وفي حديث ابن مسعود «إِنَّ الرِّجْلَ لَيُلْجِمُهُ الْعَرَقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقُولَ يَا رَبِّ ارْحَمْنِي وَلَوْ إِلَى الْبَارِ^(٥) ، وحيث يشعل كل أحد نفسه ولا يعي مولئ عن مولئ شَيْئًا وَلَا يَمْصُرُونَ ، فَتُذْهِبُ النِّصْرَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا وَالْإِحْتِمَاءُ دُنْجَاهُ وَالسُّطَبُ ، وَتَقْطَعُ الْمَوَاصِلُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ النَّاسِ وَالْمَوَدَّةُ ، وَالْحُلَّةُ وَالشَّفَاعَةُ ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَنَقَطَعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ [القرة ١٦٦] ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّهِمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ [عن ٣٧]

(١) صحدي حديث رقم ٤٦٢٥

(٢) صحدي حديث رقم ٦٥٢٧

(٣) مسلم حديث رقم ٢٨٦٣

(٤) مسلم حديث رقم ٢٨٦٤

(٥) به الحفاظ في الفتح ١٨٥/١٤ إلى أبي يعلى ، قال وصححه ابن حبان

الشفاعة

الشفاعة

الشفاعة هي توحه نبيا محمد ﷺ إلى ربه لرفع الكرب عن العباد في المحشر بعد أن يظلموا انتظارهم لفصل القضاء، وكذلك توجهه ﷺ ودعاؤه ربه ليحرح المدسسين من أمته من النار، أو ليرفع درجة المتقين في الجنة

فيحب على المسلم أن يعتقد شوت الشفاعة لنبيا محمد ﷺ لوقوع الإذن بها في القرآن، والتصريح بها في السنة. قال تعالى ﴿عَمَّوْ أَنْ بَعَثْنَا رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء ٧٩]، وقال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَدَبَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه ٢٨]، وقال تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ رَضَى وَهُمْ مِنْ حَشِيَّةٍ مُشْفَعُونَ﴾ [الأنبياء ٢٨]، وفي الصحيح قد ﷺ «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا»^(١)، وقد ﷺ «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا، فَأَرِيدُ أَنْ أَخْتَبِي دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)

قد العلماء وقد بلغت الآثار الدالة على الشفاعة للمذنبين من هذه الأمة بسعت في مجموعها حد التواتر، وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عبيها، وأما قول الله تعالى ﴿فَمَا تَشْفَعُ لَهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكُونَ مِنْ أَتْلَفٍ﴾ [المدثر ٤٨]^(٣)، وقوله تعالى

(١) مسلم حديث رقم ١٩٦

(٢) مسلم حديث رقم ١٩٨

(٣) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٥٧٣/١

﴿مَّا لِلطَّالِمِينَ مِنْ خَيْرٍ وَلَا شَيْعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر ١٨] ^(١)، فهو في الكفار، وليس للمؤمنين كما هو السيوف في الأتيين

والشفاعة أنواع كما ذكرها العلماء ^(٢) ودلت عليها الأحاديث

أولها شفاعة نبي محمد ﷺ لتخليص العباد من هول الموقف وهم يتطرون الحساب، حين تدور منهم الشمس ويكوبون في العروق على قدر أعمالهم، وهذه هي الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذي يحمله أهل الجمع كهم كما جاء في الصحيح، قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ بِي قَاك؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسَمُّهُمْ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ» ^(٣)، وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيَتَلُغُ النَّاسَ مِنَ النَّعْمِ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطِيقُونَ وَمَا لَا يَخْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يُشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ اتَّوَا آدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ . . . ، ثم يأتون عدداً من الأسياء بعده، وكل يقول نفسى نفسى، إلى أن يقولوا . . . ادْعُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَعَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَاتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقْعُ سَاجِداً لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يَقَالَ يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشَفِّعْ ^(٤)

الشفاعة الثانية إدخال قوم العجة بغير حساب، ويدل عليها قول النبي ﷺ: «أُعْطِيَتْ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قُلُوبِ رَحُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزِدْتُ رَبِّي ﷺ، فَرَأَيْتَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا» ^(٥)

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٣٩/٣

(٢) انظر شرح مسلم ٣٥/٣

(٣) أي يحيط بهم الناظر لا يحصى علمهم شيء لا استواء الأرض وعدم وجود ما يستغرم

(٤) مسلم حديث رقم ١٩٤

(٥) مسند أحمد حديث رقم ٢٣

الثالثة: الشفاعة لقوم استوحوا النار بذنوبهم، فلا يدخلونها بسبب شفاعة نبي محمد ﷺ، وتكون هذه الشفاعة لغيره من الأنبياء، وليس شاء الله من الملائكة أو غيرهم، ويدل عليها ما جاء في الصحيح «وَيُكْرَمُ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١)، وفي رواية «وَدَّعَوَى الرَّسُولُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(٢)، وفي حديث حابر عن النبي ﷺ «وَمَنْ زَادَتْ مِثْلَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ فَذَاكَ الَّذِي أُوتِيَ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا الشَّفَاعَةُ فِي مِثْلِهِ»^(٣)

الرابعة: الشفاعة لقوم من العصاة دخلوا النار، فيحرون منها شفاعة نبي محمد ﷺ والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ففي الصحيح من حديث أس في الشفاعة، قال ﷺ «يَقَالُ لِي أَرْفَعُ رَأْسَكَ سَلِّ تَغْطِيهِ وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعْ تُشْفَعُ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يَمْلِكُنِي ثُمَّ أَسْفَعُ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ فَأَقْعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَنِّي وَحَبَّ عَلَيْهِ الْخُلُودُ»^(٤) وفي الصحيح قال ﷺ «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمُّونَ الْجَهَنَّمِيِّينَ»^(٥)، وأسعد الناس بهذه الشفاعة من كان أكمل إيمانًا من غيره.

ولا يهوب المسلم أن يدعو الله تعالى سائلًا شفاعة النبي ﷺ، وأن يدعوه الله تعالى بها الجنة، مع السعي والعمل الصالح والاجتهاد في العبادة وطاعة الله ﷻ، حتى يكون أهلاً لهذه الشفاعة، ولا يجوز له التفريط والانتكال على الشفاعة، فإن ذلك من علامات الجدلان، ففي الصحيح قال ﷺ «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ»^(٦)، وقد قال ﷺ لابنته فاطمة أحب الناس إليه «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا»^(٧)

(١) مسلم حديث رقم ١٩٥

(٢) سنن أبي داود حديث رقم ٧٤٣٨

(٣) ذكره حافظ في فتح الباري ١٤، ١٩٤، وعراه ابن العثيمين

(٤) سنن أبي داود حديث رقم ١٥٦٥

(٥) سنن أبي داود حديث رقم ١٥٦٦

(٦) سنن أبي داود حديث رقم ١٥٧٠

(٧) البخاري حديث رقم ٢٧٥٣

العرض والحساب

الفرق بين العرض والحساب

المراد بالعرض عرض الأعمال على الله تعالى عندما يقف الناس في ساحة القضاء يوم القيامة، ليعترف كل أحد بذنبه مع المسامحة والإعفاء، وعدم التقصي والحساب: المحاسبة في ذلك الموقف بالصغير والكبير من الأمور، والتقصي فيها وترك للمسامحة، قال تعالى ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْزَوْنَ بِهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [القرة ٢٨١]، وقال تعالى ﴿وَقَفُّهُمْ بِهِمْ تَسْتَلُونَ﴾ [الصافات ٢٤]، وقال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة ١٧]، وقال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أَدْبَرَ كِبَافَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ﴾ [١٦] ﴿سَوْفَ نَدْعُوهُ نَذْرًا﴾ [١٧] ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الاشفاق ١٧]، وقال تعالى ﴿إِنَّكَ أَفْقَهُ سَرِيعُ الْجَكِبِ﴾ [الاعمران ١٩٩]، قيل لعلي رضي الله تعالى عنه كيف يحاسب الله تعالى جميع الناس في وقت واحد؟ فقال كما يوزقهم في آن واحد يحاسبهم في آن واحد

حساب الكافر

يعد بالكفر يوم القيامة، ويقال له «لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفندي به قال نعم، قال فقد سألتك ما هو آخرون من هذا»^(١)، ويأتي مبادي من كان يعبد شيئاً فليستهم فليست من كان يعبد الشمس ويشتع من كان يعبد القمر ويشتع من كان يعبد

(١) البحاري حديث رقم ١٣٤

الطَّوَاعِيَّةُ»^(١)، وفي رواية أبي سعيد الخدري لهذا الحديث «فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَليِبِهِمْ وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ وَأَصْحَابُ كُلِّ إِلَهٍ مَعَ إِلَهِهِمْ»^(٢)، قال تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسمِهِمْ﴾ [الإسراء ٧١]

ويوقف لكافر للحساب فيعرض عليه رثه عمله فيجحد، ويقول أي رب، وعترتك لقد كتب عني هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك أما علمت كذا في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول لا وعترتك، أي رب ما عملته فإذا فعل ذلك وحده وحاصم بحم اله تعالى على فيه، ويقال لأركانها انطوى بعمله، وذلك قول اله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَحْشُرُ عَلَى أَوْلِيَّهِمْ وَنُكَفِّرُنَّ أَبْهَمَ وَنَشْهَدُ أَرْحَلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، وقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الْآلِ فِيهِمْ بُرْعُونَ ﴿٢١﴾ حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَخُبْرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْمُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لِمَ تُشْهِدُهُمْ يَمَّ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَطْعَمَا اللَّهُ أَلِيَّتِ أَطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَإِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت ٢١-٢٢]، ويشر له كذبه الذي لا يعاد صعيبة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويسأ بما قدم وأخر، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَسْأَلُهُمْ اللَّهُ سَمِيعًا فَسْئَلُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَشَوَّهَ﴾ [المجادلة ٦]، وقال تعالى ﴿وَرُويَ الْكُتُبِ فَزَيَّ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ بِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْتَ مَا هَذَا لَكِ كَتَبَ لَا يَدْرُ صَعِيزَةٌ وَلَا كِبَرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَحَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَطْفِئُ رُتُكَ أَحَدٌ﴾ [الكهف ٤٩]، ويُعطى الكفار كتب أعمالهم شمالهم أو من وراء ظهورهم، ويساقون جميعًا وما بعدون من دون الله إلى النار، قال تعالى ﴿يَتَكَبَّرُونَ وَمَا يُعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوكَ﴾ [الأنبياء ٩٨]، وقال تعالى عن فرعون وقومه ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا زَرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَنَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ﴾ [مود ٩٨]

تمييز المؤمن من المنافق في المحشر

إذا ذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، ولم يسر إلا من بعد الله من بر أو فاجر كما جاء في حديث أبي سعيد المتقدم «فَيَقَالُ لَهُمْ مَا يَخْبِكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟» فيقولون ... وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يَنَادِي لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعبُدُونَ وَإِنَّمَا نَتَنَظَّرُ رَبَّنَا قَالَ قِيَامُهُمُ الْجَبَّارِ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا

(١) سعدي حديث رقم ٦٥٧٤

(٢) سعدي حديث رقم ٧٤٤٠

أَوَّلَ مَرَّةٍ يَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ يَقُولُونَ أَنْتَ رَبَّنَا فَلَا يَكْلَمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ يَقُولُ هَلْ يَسْكُمُ وَيَسْتَعِ
 آيَةً تَعْرِفُونَهُ؟ يَقُولُونَ السَّاقِ يَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ
 لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمَمَةً فَيَنْحَبِّبُ كَيْمَا يَسْجُدُ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاجِدًا^(١)، وفي ذلك يقول الله
 تعالى ﴿يَوْمَ تُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الْقلم ٤٢]، وحسب دفع
 الكرب والشدة على الصَّافقين الذين عجزوا عن السجود فلا يستطيعونه، ويروى
 الخوف والهول الذي أحده المؤمنين حتى غابوا عن رؤية عوراتهم، وإسما امتحن الناس
 في هذا الموقف بالسجود ليعتبر المؤمن من الصَّافق

وفي هذا الموقف تبيض وجوه وتسود وجوه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
 اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَارْتَدُّوا عَلَىٰ أَعْدَابِهِمْ أَمَا الْكُفْرَونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
 تَبَيَّضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران ١٠٦، ١٠٧]، ويقال للمؤمنين الذين
 أحسنوا طاعتهم لله تعالى في الدنيا، وأقدرهم الله على السجود في ذلك الموقف
 يقال لهم «ارفعوا رؤوسكم إلى نوركم بقدر أعمالكم، فيعطون نورهم بقدر
 أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل، ودون ذلك، ومثل الحبة، ودون ذلك،
 حتى يكون حرهم من يعطى نوره على قدر إيمانهم، ثم يطفأ نور الصَّافق^(٢)، ثم
 ينتقلون إلى منزل آخر وتعشى الناس الظلمة، فيقول الصَّافقون لئدينا اسوا ﴿تَسْرُونَا
 نَفْسٍ مِنْ نَفْسِكُمْ﴾، فيقال لهم ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فيرجعون إلى المكان الذي
 قُسم فيه النور فلا يجدون شيئاً، ويجدون أنفسهم قد صرَبَ بينهم سور، قال تعالى
 ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْفِقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
 فَصُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِنْ فِتْنَةِ الْعَدُوِّ ﴿١١٢﴾ سَادُّوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ مُنْكَرُونَ
 قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمُ الْأَنْفُسَ﴾ [التحديد ١٣]

كيفية الحساب وإحصاء الأعمال

بعد إحصاء الأعمال تخرج للناس الكتب التي حفظت فيها الملائكة أعمال العباد،
 ومسحبت فيها لسيئات والحسابات، كما قال تعالى ﴿يَا سَيِّدُ مِنْ قَوْلٍ لَا تُدِيهِ رَقِيبٌ

(١) صحري حديث رقم ٧٤٤٠ - الحافظ في صحيح الشاذلي وفي الحديث دلل على أن المؤمنين أو منهم من
 يَدْعُوهم أول ما حشر - فتح الباري شرح حديث رقم ٧٤٤٠

(٢) حداكم في حديثك ٣٧١/٢ وهو حديث صحيح وأيضاً صحيح مسلم ١٧٨

١ قوم يدخلون الجنة بغير حساب كما جاء في الصحيح قال ﷺ «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْرِقُونَ وَلَا يَنْطَهَرُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(١)، وسهم من يدخل الجنة بغير حساب بشفاعة النبي ﷺ كما تقدم في الشفاعة^(٢) اللهم اجعلنا منهم

٢ قوم يحاسبون حساباً يسيراً، وهم الذين يُعرضون على ربهم فيعرفهم بدوابهم فيعرفونها، فيتجاوز لهم عنها، وهؤلاء هم الذين يعطون كتابهم يمينهم، ففي الصحيح قال ﷺ «يَذْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَصْعَ كَنَفُهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ أَعْمَلْتُ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ، وَيَقُولُ عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ، فَيَقْرَأُ ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(٣)

٣ من كثرت معاصيه وحاهر بها ولم يتب، وأوتى كتابه بشماله، فهو الذي ساقشه الباري الحساب، ومن يوقش الحساب عذب، ففي الصحيح قالت قالت قال رسول الله ﷺ «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ أَكْثَرَ نَسِيحٍ﴾ * قَوْفٌ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا»، فقال رسول الله ﷺ «إِنَّمَا ذَلِكَ الْغَرَضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَتَأَقَّشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِبَ»^(٤)، وفي حديث حابر عن النبي ﷺ «من زادت حسنته على سيئاته، فذاك الذي يدخل الجنة بغير حساب، ومن استوت حسنته وسيئاته، فذاك الذي يحاسب حساباً يسيراً، ثم يدخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسنته، فذاك الذي أوبق نفسه»^(٥)

(١) مسند حديث رقم ٢١٨

(٢) صحيح بخاري ٧٥١٠

(٣) بخاري حديث رقم ٧٥١٤، والكشف الر

(٤) بخاري حديث رقم ٦٥٣٧

(٥) به الحفاظ في فتح الباري ١٩٤/١٤ إلى الحاكم

الميزان

إتماماً لما وعد الله تعالى به من العدل وإحقاق الحق على أكمل الوجوه بسبب الميزان يوم القيامة لوزن الأعمال، إذ لا أحد أحمث إليه العذر من الله، ولذلك أرسل الرسل كما جاء في الحديث^(١) وهو ميزان حقيقي، له كفتان كما دلت الأحاديث، حيث يحول الله تعالى الأعمال إلى شيء محسوس، له ثقل، وتوضع الحسرات في كفة، والسيئات في كفة أخرى، فمن ثقلت كفة حسناته أفصح ونجا، ومن ثقلت كفة سيئاته حاب وحسر، قال تعالى ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٨٩﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَفَانِتُونَ بِطَائِفَةٍ [الأعراف ٨، ٩]، وقال تعالى ﴿وَصَحَّحَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَّيَدٌ كَتَابٌ وَثَقَالٌ خَبَرٌ مِّنْ حَرَدٍ لَّيْسَ بِنَاسٍ بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبًا﴾^(٢) [الأنبياء ٤٧]

وورد في لومى بالمؤمن عند الميزان أحاديث، منها حديث عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما، أن النبي ﷺ قال «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْعَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُثَرُّ عَلَيْهِ نَسْعَةٌ وَتَسْمِينٌ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ لَا يَا رَبِّ، يَقُولُ أَفَلَمْ تُعَذِّبْ؟ يَقُولُ لَا يَا رَبِّ، يَقُولُ بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا تَطْلُمُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،

(١) أي لا يؤاخذ إلا بعد إتمامه الجمعه، انظر فتح الباري ١٧/١٧١

(٢) وأكثر حساء على أنه ميزان واحد - وإنما جمع في الآية (موازين) لتعدد لأعمال لم يؤد به

فَيَقُولُ اخْضُرْ وَزَيْنَكَ، فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السُّجُلَاتِ، فَقَالَ إِنَّكَ لَا تُنْظِمُ، قَالَ فَتَوَضَّعُ السُّجُلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفِّهِ، فَطَاشَتْ السُّجُلَاتُ وَتَقَدَّتْ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَنْقُلُ مَعَ اسْمِ اللّهِ شَيْءٌ^(١)

(١) مس الرملي حديث. ص ٢٦٣٩

الحوض

قال القاضي عياض «مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به، أن الله ﷻ قد حصن نبياً محمداً ﷺ بالحوض المصروح باسمه وصفته وشرائه في الأحاديث الصحيحة المشهورة، التي يحصل مجموعها العلم القطعي، إذ روى ذلك عن النبي ﷺ من أصحابه أريد من ثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك، مما صح نقله، واشتهرت روايته»^(١)، فقد قال الله تعالى لنبينا ﷺ «إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ الْكَوْثَرَ» [الكوثر ١]، والكوثر نهر في الجنة، وماء الحوض ممتد منه، والظاهر أن الحوض في عرصات القيامة بعد الحساب، وقبل بعد الصراط، فقد جاء في الحديث «لَيَرَدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَهْرَفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَأَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي فَيَقَالُ إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَخَذْتُوا بِغَدِّكَ فَأَقُولُ سَحَقًا سَحَقًا لِمَنْ عَيَّرَ بَغْدِي»^(٢) وفي رواية «يَقُولُ إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَخَذْتُوا بِغَدِّكَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَيَّ أَذْبَارِهِمْ»^(٣)، قال

(١) أنكر جورج وسميحه الحوض وتسموا في تاويل الأحاديث الصحيحة على غير ظاهرهما، وهم معجوجون بسيف النبوة على اثبات الحوض وحمله على ظاهره، وذلك بإجماع السلف وأهل له من خلف ومن كان يكره عبد الله بن رباح وند رباح بن أمه، أحد ولاية العراق، وقد دخل عليه أبو برة الأسدي فقال له هل سمعت رسول الله ﷺ ذكره شيئاً يعني الحوض، فقال أبو برة نعم، لا مرة، ولا مرتين ولا ثلاثاً، ولا أربعاً ولا خمساً فمن كذب به فلا سفاهة له به، من صحح لي ١٤ ٢٦٣

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق ٦٥٨٥

العماء ومثل هؤلاء لا يجاورون الصراط، فدل على أن العرض على الحوض يكون قبل الصراط^(١)

صفة الحوض

ورد في الصحيح عن النبي ﷺ «حَوْضِي مَبِيرَةُ شَهْرِ مَادَّةٍ أَيْتُضُّ مِنَ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكَثْرَانُهُ كُنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا»^(٢)، ومادّه يأتيه من نهر الكوثر في الجنة جاء في الصحيح عن أسر من مائلك، قال «كنت رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرها إذ أغفى إغفاءً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُسْتَمًا فَقُلْتُ مَا أَصْحَبَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ أَتَرَأَيْتَ عَلَى أَنْفِ سُوْرَةٍ فَقَرَأْتُ سَمِ اللَّهَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر﴾ ﴿إِنَّكَ شَاعِلٌ هُوَ الْآتِكُ﴾ ثُمَّ قَالَ أَتَذَرُونِ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ فَبَنَى نَهْرٌ وَعَدِيهِ رَبِّي ﷺ عَلَيْهِ حَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرُدُّ عَلَيْهِ أُمْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ابْنَةُ عَدُوِّ النَّجُومِ فَيُخَلِّجُ الْعَدُوَّ مِنْهُمْ فَأَقُولُ دَعْ إِيَّاهُ مِنْ أُمْنِي، فيقول ما تدري ما أخذت منك»^(٣)

ومن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً، وأول من يردّه نبيا محمد ﷺ كما جاء في الصحيح «إِنِّي قَرَطُكُم عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا»^(٤)

ويُطْرَدُ عن لحوض العصاة وأهل الكائن، ويأديهم رسول الله ﷺ، فيقال له لا تدري ما أحدثوا بعدك، إياهم بدلوا وعيروا فبئس ما هم، ويقول ألا سحقاً سحقاً

(١) نظر سذكره ص ٣٠٢ والمعهده المطبوعه ص ٢٥٢

(٢) سحدي حديث رقم ٦٥٧٩

(٣) مسلم حديث رقم ٤٠٠، ويصحح أي تحليه الملائكة وتمنعه من ورود الحوض

(٤) البحاري حديث رقم ٦٥٨٥، والفرط الذي يسر

الصراط

الإيمان به وصفته

الصراط - الجسر المصنوب على جهنم لعبور المسلمين منه إلى الجنة، ومنه يسقط أهل النار في النار

والصراط مما يجب الإيمان به، لما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة، قال الله تعالى ﴿وَلَدُ تَكْوَرٍ ۖ لَا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رِجْلِكَ حَتَّىٰ مَقْعَدَهَا ۖ﴾ [مريم ٧١]، فالورود المذكور في الآية هو المرور على الصراط، كما يفهم من الحديث الوارد في الصحيح، قال ﷺ «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدُ الَّذِينَ بَايَعُوا نَحْنَهَا قَالَتْ بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاَنْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ ثُمَّ تُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا»^(١)

قال كثير من المفسرين المراد بالورود مرور المسلمين على الجسر بين طهريته، وورود المشركين أن يدخلوها وفي الصحيح قال ﷺ «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوُلْدِ فَيَلِجَ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»^(٢)، يعنى الورود قال الزهري كأنه يريد هذه الآية ﴿وَلَدُ تَكْوَرٍ ۖ لَا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رِجْلِكَ حَتَّىٰ مَقْعَدَهَا ۖ﴾

وقد جاء في الصراط وصفته أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما، من ذلك

(١) مسلم حديث رقم ٢٤٩٦

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٣٢ وانظر تفسير ابن كثير ١٣٣/٣

حديث أبي سعيد المتقدم، وفيه • ثُمَّ يَأْتِي بِالْجَنَرِ فَيَجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ
فَمَا بَا دُشُونَ اللَّهِ وَمَا الْجَنَرُ؟ قَالَ مَذْحِجَةٌ مَرَّةً عَلَيْهِ حَطَاطِيْفٌ وَكَلَالِيْبٌ وَحَسَكَةٌ
مُعَلَطَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عَقِيْقَاءُ^(١١) وَهِيَ رَوَايَةُ أَبِي هُرَيْرَةَ • وَهِيَ جَهَنَّمَ كَلَالِيْبٌ مِثْلُ
شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا بَعَمْ، قَالَ فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ
غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَغْنَمُ قَدْرَ عَظْمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَحْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ^(١٢)، • الْمُؤْمِنُ عِنْدَهَا
كَالْظُرْفِ وَكَالْبُرْقِ وَكَالرَّيْحِ وَكَالْحَاوِيْدِ الْحَيْلِ وَالرَّكَابِ فَجَاحٌ مُسْتَمٌّ وَدَاحٍ مُخْدُوشٌ
وَمُكْدُوشٌ فِي بَدَنِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ أَحْرَهُمْ يُسْحَبُ سَحَابًا^(١٣)

والمرود على الصراط عام لكل أحد حتى الأسياء، ففي الصحيح من حديث
أبي هريرة المتقدم • وَيَضْرِبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَسْفَلَ وَأَمْسِي أَوَّلَ مَنْ
يُحْيَرُهَا وَلَا يَكَلِّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اإِهْمُ سَنَمُ سَنَمُ^(١٤)

القصاص من المظالم

يُحَسِّنُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ قِطْرَةٍ، قَبْلَ هِيَ الصَّرَاطُ، وَقَبْلَ قِطْرَةٍ أُخْرَى عِنْدَ
الصَّرَاطِ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَنْقَاضُوا الْمَظَالِمَ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَتَّى يَنْظُمَةَ، فِي
الصَّحِيحِ قَالَهُ ﷺ «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيَجْبُونَ عَلَى قِطْرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ
فَيَقْصُرُ لِيَنْقُصَهُمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمٍ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا هَذَّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي
دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحْلَهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ
فِي الدُّنْيَا»^(١٥) وَهِيَ رَوَايَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا الْمُفْلِسُ
فِيمَا مِنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ
وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا،
فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فُتِنَ مِنْ حَسَنَاتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ
مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١٦) وَإِذَا مَرَّ النَّاسُ عَلَى الصَّرَاطِ، وَسَقَطَ

(١١) صحدي حديث رقم ٧٤٤٠

(١٢) صحدي حديث رقم ٦٥٧٤

(١٣) صحدي حديث رقم ٧٤٤٠

(١٤) صحدي حديث رقم ٧٤٣٨

(١٥) صحدي حديث رقم ٦٥٣٥

(١٦) مسلم حديث رقم ٢٥٨١

في النار من سقط فيها من الكفار والعصاة، معجى الله تعالى بعد ذلك المؤمنين بعد
 أن يسوفوا، الجراء على حسب أعمالهم، أو يخرجون منها شفاعاة من يشفع فيهم من
 الملائكة والسيين وإخوانهم المؤمنين^(١)

(١) بطر تفسير بر كثير ١٣٤/٣

الجنة والنار

- ٨ -

النار

جهنم - أعادنا الله منها -

جهنم مخلوقة موحدة، وهي اسم لجميع طاق النار، والنار دركات، أي طفت ومدرب، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمَكِينِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١) [النساء ١٤٥] وقد ذكر الله تعالى النار في كتابه، ووصفها على لسان نبيه ﷺ، وتوسعت أسماؤها في لقراء، قال العلماء تنوعت لدرجاتها وشدتها وظلمتها، قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ يَنْظُرُ ۝١٥ رَاۓً يَشْعُرُ﴾^(٢) [المعارج ١٥، ١٦]، وقال تعالى ﴿وَلَا تُدْرِكُهُ سُمْ ۝٣٧ لَا يَنْفِي وَلَا يَنْدُرُ ۝٣٨ لَوَاسِتٌ لِلْبَشْرِ ۝٣٩ عَلَيْنَا بَعَثَ عَشْرَ﴾^(٣) [الملك ٣٧، ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى ﴿كَلَّا لَيُنَدَّىٰ فِي الْأَطْلَمِ ۝١٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لِعِطَمَةٍ ۝١٥ تَرَىٰ اللَّهُ الْوَفْدَ﴾^(٤) [الهمزة ٦٤] وقال تعالى ﴿وَلَا تَحْمِيصٌ شِعْرَتُ﴾^(٥) [التكوير ١٢]

وقد حذر الله تعالى من النار وتوعد بها الكافرين، وحوّث بها العصاة والطاعة والمسلمين من المسلمين، فقال تعالى ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّفْسُ وَالْحَبَارَةُ أُضِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٤]، وقال تعالى ﴿ذَلِكَ عَذَابُ اللَّهِ بِهِ عَادُوا يَجَاهِدُونَ﴾

(١) ينادى بها هوى وتدعى دركاً وتنادى ارتفاعاً وعلا درجاً، فالحق درجات والنار دركات

(٢) والشعور جمع شؤء وهي جلد الرأس

(٣) ولواحه أي مصيرة

(٤) وسمرت أي أوقدت وأصرمت

[الرؤى ١٦] وقد تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِهِمْ طُلُوعًا أَوْ يَغُلُوبًا أَوْ يَنْتُهِمْ
 نَارًا وَسَعَفَوا سَعِيرًا﴾ [النساء ١٠]

وحرّاد جهنم ليس مثل نار الدنيا، بل يريد عليها أصعاقاً كثيرة، فهي الصحيح
 قال: ﴿تَارُكُمُ حُزَّةٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْأً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ
 لَكَابِيَّةٌ، قَالَ: فَضَلْتُ عَلَيْهِمْ بِسَبْعَةِ وَبِشْرٍ جُزْأً كُلُّهُمْ مِنْ خَرَّهَا»

[illegible]

وفي الصحيح قال ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْصَرِ قَدَمَيْهِ حُمُرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاحُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ وَالْقَمْعُمُ»^(٢٧)

وفي الصحيح قال ﷺ يَقُولُ اللَّهُ -تعالى- لَأَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَقْتَدِي بِهِ؟ يَقُولُ نَعَمْ، يَقُولُ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ لَدَمٍ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَيَّتِ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي^(٣)

النار لا تقنى ولا ينقطع عذابها

كما أن العقيم لا يقطع، وكذلك عذاب النار لا يقطع عمر جعل الله مصيره إلى النار يعود إليه منه ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا تَقْصَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْيَىٰ عَنْهُمْ بَيْنَ عَذَابَيْهَا كَذَلِكَ حَرَّرَ كُلَّ كَافِرٍ﴾ [نار ٣٦] ، وقد متهم فيها.

(۱) بخاری حدیث رقم ۳۲۶۵

(۲) مستطوری حدیث رقم ۶۵۶۲

(۳) مسندری حدیث رقم ۶۵۵۷

عنى الدوم بلا موت، ولا حياة نافعة، ولا راحة، قال تعالى ﴿وَدِدُّوا أَنَّكَ تَقُولُ يَنْفِصُ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مَكِينٌ﴾ [الزحرف ٧٧]، وقال تعالى ﴿كُنْتُمْ أَزْوَاجًا لَّا تَعْرِفُونَ إِنَّمَا وَصَّيْنَا الْمَرْءَ بِإِثْمَانَيْهِ وَذَكَرُوا عَلَيْهَا قَوْلًا ظَاهِرًا فَتَحَنَّنَّا عَلَيْهِمْ﴾ [الحج ٢٢] وقال تعالى ﴿كُلًّا نَبْصِطُ لَهُمْ خُزُقُهُمْ نُظْلُفُهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْعَذَابِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَرِيبًا حَكِيمًا﴾ [النساء ٥٦]

قال العلماء^(١)، وهذا في أهل النار من الكفرة، أما العصاة يُعذبون، وبعد ذلك يموتون، وقد تختلف أحوالهم في طول العذاب بحسب آثامهم ومعاصيهم، ويدل لذلك ما جاء في الصحيح، قال ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللَّهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِي مِنْ قَالٍ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ قَدْ امْتَحَشُوا وَعَادُوا حُمَمًا يُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَبْتِثُونَ كَمَا تَبْتِثُ الْحَبَّةُ فِي حَبْلِ السِّلِ»^(٢)

صفة أهل الجنة وأهل النار

نُصِّبَ في الكتاب والسنة على وجه اليقين، أن الأعمال الصالحة والإخلاص فيها مع الموافقة على الإيمان موصل إلى الجنة، وأن الكفر والمعاصي واتسع الهوى والضلال، موصل إلى عذاب الله تعالى في النار

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ١٩٧]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ١٩٧]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ١٩٧]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ١٩٧]

وفي الصحيح قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ حُلٍّ جَوَاطِ مُتَكَبِّرٍ»^(٣)، وفي رواية «كُلُّ جَوَاطِ زَنِيمٍ مُتَكَبِّرٍ»^(٤)

(١) نظر سذكره ص ٤١٥

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥٦٠، وامتحنوا احترقوا وصاروا فحشا

(٣) البخاري ٤٩١٨

(٤) مسلم حديث رقم ٢٨٥٣، والنسب الحاقى لفظ الشاذ في الحصىم بالاطل، والمحوط العنصر لمصر

محذوف، وروى في النسب المخلص بالحقه وليس مهم

والمراد بالضعف ليس ضعف العزيمة أو القوة البدنية، فإن المؤمن القوي حير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف كما جاء في الحديث^(١)، وإنما المراد رقة القلب ولبسه، وإحاطته وحشوعه لله ﷻ وفي الصحيح قال ﷺ «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ»^(٢)

وفي الصحيح قال ﷺ «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ مِيَاهٌ كَأَنَّابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنَاءٌ كَأَنَّابَاتٍ عَارِيَاتٍ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَخْرُجْنَ رِيحُهَا وَإِنْ رِيحُهَا لَيُوجِدُ مِنْ مَسِيرَةٍ كَذَا وَكَذَا»^(٣)

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٦٤

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٢٢ ومسمى (لو أقسم على الله لأبره) لو حلف يميناً طمأن في كرمه لله تعالى بأبره لأبره (ومدفع بالأبواب) أي لا يوجد له إذا أراد الدخول لعدم وجاهته عند الناس، انظر شرح صحيح مسلم ١٧ ١٨٧

(٣) مسلم حديث رقم ٢٦٢٨ و(كاسات عاريات) تسر بعض بدنها وتكشف بعضه، أو تسره بناسر من يصف ما تحته اظهاراً له وللجمال فهي كاسه عارية، و(رؤوسهن كأسمه شج) تعظم شعورهن وتكريمه حتى يشه في ارتفاعه سام البحر، يلفش بذلك الاساء

الجنة

الجنة موحدة الآن حلقها الله تعالى وأعدّها للمتقين، يدل على ذلكصوص
القرآن والأحاديث الصحيحة، قال الله تعالى ﴿وَسَيُرَوَّىٰ إِلَيْكَ مَعِيرَةٌ مِّن رَّبِّكَمْ
وَحَتَّىٰ عَرَّضَهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ال عمران ١٣٣]، وقال تعالى
﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَعِيرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَحَتَّىٰ عَرَّضَهَا كَعَرَّضَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد ٢١]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَاَهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣٤﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٣٥﴾
عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [التجم ١٣-١٥] وقد رأى النبي ﷺ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ ورأى عده حنة
الماوى ليلة المعراج، وفي الصحيح من حديث أسد قال قال ﷺ ﴿ثُمَّ انْطَلَقَ
بِي جِبْرِيلُ حَتَّىٰ نَاقَنِي سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ فَفَنِيهَا أَلْوَانٌ لَا أَذْرِى مَا هِيَ قَالَ ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ
فَإِذَا فِيهَا جَنَابِدُ اللَّيْلُ وَإِذَا تَرَاتِبُهَا النَّوْءُ﴾^(١) وفي الصحيح، قال رسول الله ﷺ
﴿إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ
الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ يَقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ﴾^(٢)، وفي الصحيح من حديث الكسوف... ﴿قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ
تَنَاولْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكْنُكَمَتَ فَقَالَ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ أَوْ أُرَيْتُ الْجَنَّةَ
فَتَنَاولْتُ مِنْهَا حُقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَثَ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ
مَنْظَرًا نَّظًّا﴾^(٣)

(١) مسلم ١١٣

(٢) سنن أبي داود ٣٢٤٠

(٣) سنن أبي داود ٥١٩٧

وفي الموطأ من حديث كعب بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَمْلِكُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِمَهُ اللَّهُ إِلَى جَدِّهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»^(١)
فهذا قليل من كثير من المصوص التي تدل على أن الجنة محدودة الآن أعدها الله تعالى لعباده المتقين

الجنة لا تفنى ولا يقطع نعيمها

ومن أنعم الله تعالى عليه بدخول الجنة فقد فار، فهو في نعيم مقيم لا يقطع ولا يفسد، قال تعالى ﴿أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهَا إِذَا تُرِيتُمْ﴾ [الرعد ٣٠]، وقال تعالى ﴿وَلَا يَمَسُّ هَٰذَا لَرِّقًا مَا تَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [سورة ص ٥٤]، وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء ٨٧]

وحاء في الصحيح من حديث ابن عمر، قال قال رسول الله ﷺ «إِنَّا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُدْبِعُ ثُمَّ يَتَادِي مُتَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، لَا مَوْتَ وَبَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»^(٢)

وفي الجنة من أوصاف النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال الله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة ١٧]

وفي الصحيح قال ﷺ «أَوَّلُ زُفْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةُ الْبَدْرِ لَا يَبْصُرُونَ فِيهَا وَلَا يَنْتَحِطُونَ وَلَا يَنْتَوِطُونَ أَيْتُهُمْ فِيهَا الدُّنْبُ أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الدُّنْبِ وَالْفِصَّةُ وَمَحَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ»^(٣)
وفي الصحيح قال ﷺ «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا

(١) موطأ حديث رقم ٥٦٦ هذا وقد أكرر بعض المصنفين وجود الجنة الآن وهو لا يتقدم الا يوم النصف
لأنه في رحمهم لا فناء من وجودها الآن وأنها لو كانت موجودة لثرب على ذلك أنه نفس مع فاء
بها يجوز له تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ انظر التمهيد لطحاوية ص ٤٧٦، وفتح لم ي، باب
ما جاء في صفه الجنة

(٢) سنن أبي داود حديث رقم ٦٥٤٨

(٣) سنن أبي داود حديث رقم ٣٢٤٥ والآية المود الذي يسحر به

أولاد المسلمين وأولاد المشركين

ذكر غير واحد من العلماء الإجماع على أن من مات من أولاد المسلمين قبل النبوة فهو في الجنة^(١)، لأنه غير مكلف، ولما جاء في الصحيح من حديث سمرة في الرؤيا: «وَمَا الرَّحْلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوَصَةِ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَأُمُّ الْوَلَدَانِ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ»^(٢)

واحتسب أقوال العلماء في ما يكون عليه حال أولاد المشركين^(٣)، فمنهم من قال: إنهم في مشيئة الله تعالى، لا يعرف مصيرهم، لما جاء في الصحيح «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: اللَّهُ إِذَا حَلَقَهُمْ أَغْنَمُ بِنَا كُنُوا غَنَمِينَ»^(٤) والصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة، لقوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتِمْ رَبِّي دَرَجَةً﴾ [الإسراء: ١٠]، قال الحافظ في فتح الباري: «وإذا كان لا بعد العاقل لكونه لم تلبه الدعوة، فلا لا يعذب غير العاقل من مات أولياً»^(٥)، ولحدث سمرة المتقدم، فقد جاء فيه: «فقال بعض المسلمين يا رسول الله، وأولاد المشركين؟» فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين»^(٦)، أي مع الولدان الذين هم حول سيدنا إبراهيم ﷺ

(١) انظر شرح مسلم ٢٠٧/١٦

(٢) البخاري حديث رقم ٧٠٤٧

(٣) انظر فتح الباري ٤٨٩/٣

(٤) البخاري حديث رقم ١٣٨٣

(٥) فتح باري ٤٩٠/٣

(٦) حديث رقم ٧٠٤٧

أهل الفترة

المراد بهم من عاشوا في المدة الواقعة بين بعثة نبي من أنبياء الله تعالى ، فكذبوا على فترة من الرسل ، ويدخل فيهم عرب الجاهلية في الجزيرة العربية قبل أن يُبعث إليهم نبي محمد ﷺ ، وكان منهم حنفاء على دين إبراهيم ﷺ ، كورقة بن نوفل ، وعمر بن عتبة ، وزيد بن عمرو بن نفيل

وأهل الفترة في حملتهم إلا من عصمه الله كانوا في ضلال بعيد في العقيدة ، وضلال في الأفعال والسلوك ، الشرك بالله وعادة الأوثان ، وشرب الخمر ، ووأد البنات والصعلكة والافتراء من العارات ، وكان في كل أمة منهم بالإضافة إلى الشرك بالله حسياسة في السلوك اشتبهوا بها ، أراد الله ﷻ إصلاحها وتحبصهم منها بمن بعث إليهم من الرسل ، كتيان الفاحشة في قوم لوط ، وتطيف المكيال والميراث في آل مدبر ، ووأد بنات عبد العرب لكن من كمال عدل الله ورحمته بعده أنه لا يحاسب عباده قبل إقامة الحجة عليهم ، ولا يعذبهم قبل أن يدرهم ويحذرهم ، ويسن لهم الشرائع ، ويرسل إليهم الرسل ، وإن كان فعلهم قبل ذلك يوصف بالقبح ، وبالوحشة ، وبالمسكر ، شرعاً وعقلاً ، ولكن لا لوم عليهم ، ولا عقاب عنى ما فعلوه قبل أن يبعث إليهم الرسول ، فإن العقل يدرك في كل فعل حساً وقبحاً ضرورة ، لكن لا عقاب عليه إلا بالشرع وإرسال الرسل ، قال الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء ١٥] ، وقال ﷻ ﴿رُشْلًا مُنْشِرِينَ وَمُؤَدِّينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء ١٦٥] ، وقال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا رَبُّكَ مُهْلِكًا لِقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا لِّتَلْوَ آيَاتِنَا﴾ [القصص ٥٩]

فمن كان في ندبة من الأرض لم تلبه دعوة الإسلام ، أو كان حدث عهد به ، لم يصبه منه ما يصحح الإيمان ، فهو معذور حتى يلبه الأمر ، وتقام عليه الحجة

الباب الثاني

في السلوك

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الإيمان والمفاهيم الخاطئة

عزل الإيمان عن السلوك

من المفاهيم الخاطئة التي أحدثت في علم الكلام، ولم يكن لسلف الصالح بها عهد، فصل العمل عن الإيمان، كانوا لا يعرفون الإيمان إلا بالعمل، ومن قصر عندهم في العمل قصر في الإيمان، فكانوا يحشون من نقص العمل نقص الإيمان، وكان لهذا الفهم الصحيح تأثير إيجابي على حياتهم في العهد الأول؛ لأن من خاف نقص الإيمان بنقص العمل شمر على العمل، ولم يتهاون في الطلب، لأن نقص العمل، لنقص يذهب بالإيمان كله، فلا يبقى له أصل ولا فرع، لذا كانت هممتهم معالي الأمور وتحصيل الأعمال النافعة في كل وجوه الحياة، فملكوا الدنيا شرقاً وغرباً، وأسسوا دولته اتّوحيد وأقاموا العدل، ومكن الله لديهم في الأرض، وأبدلهم من بعد حورهم أمثاء، فصلحت بهم الدنيا وصلاح بهم الدين

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي عامله على الحرية «إِنَّ لِلْإِيمَانِ قَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُتَاتًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَحْبَبَ قَسَّيْتُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أُمِيتَ نَمَّا أَمَا عَلَيَّ ضَعْفَتُكُمْ بِعَرِيصٍ»^(١)

ثم تكلّ المسلمون في العرون المتأخرة عصور التحلف إلى ما أحدث من الفهم الخاطئ في الفصل بين الإيمان والعمل الصالح، الذي هو أشبه بدعوة فصل الدين عن الحياة، وذلك على خلاف ما تضافرت عليه آيات القرآن ونطقت به، من اقتران الإيمان بالعمل، وصورت كتب الكلام أن الحلاف في هذه المسألة وهي هل لعمل

(١) لبحري، كتاب الإيمان، باب في الإسلام على خمس

الصالح من الإيمان؟ من قَبِلَ الحُلاَفَ المَظْطَى^(١)، فَرَجَعُوا عَنِ أَقْصَاهُمُ المَقْهَرِي، فَفَهَرْتَهُمُ الأُمَمُ، وَلَمْ تَسْتَقِمْ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُمُ الدِّينُ

أَحْلَدَ عَامَةُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ إِلَى الْإِعْتِقَادِ السَّائِدِ أَنَّ الْمَكْلَفَ لَا يَزَالُ مُؤَمَّنًا، مَهْمَا عَمِلَ مِنْ مَعَاصٍ، وَأُظْهِرَ مِنْ فُسَادٍ، وَمَهْمَا فَرَطَ فِي حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ الْعِدَّةِ، حَتَّى صَارَ الْمُسْلِمُ بَدَلَتْ لَا يَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِ فِي ارْتِكَابِ الْمُؤَقَّاتِ وَالْمَحْرَمَاتِ، وَفِي الْإِعْرَاضِ عَمَّا كَلَفَهُ مِنْهُ مِنَ الْعَادَاتِ يَتْرُكُ الْفَرَائِصَ، وَيُرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ وَالْمَحَالِفَاتِ، يَأْكُلُ الرِّبَا وَيَأْتِي الزِّنَا، وَيَتَعَدَّى وَيَظْلِمُ، وَيَكْذِبُ وَيَغْشَى، وَيَتَكَبَّرُ بِأَلْسِنَةِ الْكِبَرَةِ فِي الدِّينِ لَا يَدْرِي مَا هِيَ دُونَ حَسِيبٍ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ رَقِيبٍ

قَصُرَ عَمَامَةُ النَّاسِ دُورَ الْإِيمَانِ فِي النُّفُوسِ عَلَى الْمَسَاجِدِ، وَأُخْرِجُوا مِنْ مَنَاطِقِ الْحَيَاةِ الْآخَرَى فِي السُّلُوكِ وَالتَّعَامُلِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا فِيهَا مِنْ فَرَائِصَ، فَدَيْسَ لِلْإِيمَانِ أَثَرٌ يَذْكُرُ فِي التَّجَارَةِ وَالْأَسْوَاقِ، وَلَا فِي السَّيْرِ وَالرَّحَلَاتِ، وَلَا فِي السِّيَاحَةِ وَالْعَادَةِ، وَلَا فِي الطَّبِّ وَالْعِلَاجِ وَالْمُسْتَشْفَيَاتِ، وَلَا فِي الْجَامِعَاتِ وَمَعَاهِدِ الْعِلْمِ، وَلَا فِي الْإِدَارَةِ وَالْأَعْمَالِ وَالْوَطَانِ، وَلَا فِي الْحَرَكَةِ الْيَوْمِيَّةِ مِنْ حَيَاةِ النَّاسِ

التجارة والمكاسب

فِي الْحِجَارَاتِ صَفَقَاتُ مَحْرَمَةٍ، وَعُقُودُ فَاسِدَةٍ، وَقُرُوصُ رِبْوِيَّةٍ يَسْمُوهَا (تَسْهِيلَاتٍ) مِنْ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِضَدِّهِ، وَذَلِكَ مِنْ تَلَاعِبِ الشَّيْطَانِ، قَبِيلٌ يَتَوَرَّعُ، وَعَدْلٌ النَّاسِ لَا يَسْأَلُ أُنْدًا، أَوْ يَسْأَلُ بَعْدَ إِتِمَامِ الصَّفَقَةِ، وَنَسَةِ كَبِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ تَقِفُ أَمَامَ الْعُقُودِ الْمَشْهُوهِ شَرْعًا، الْمَعْرِيَةِ بِعَرُوصِهَا طَعْمًا، فِي مَفْتَرَقِ طَرِيقِ الْقَبْلِ غَيْرِ مَطْمَئِنٍّ وَالْإِعْرَاضِ بُلُوحٍ، وَالْفِتْنَاوِيَّ مُتَصَارَةً، وَسَهْوَةً يَذْهَبُ مِنْ أَهْلِ الْعَدَمِ عَنِ الْهَوَاءِ فِي الْمَسَاوِي، وَذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ وَقَلَّةِ الْعِلْمِ، وَالْمَسَائِلُ يَسْأَلُ عَنْ الْمُنْشَأَةِ، لَا لِيَكْفَى وَيَتَوَرَّعُ، كَمَا بَصَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَمَةُ «فَمَنْ اتَّقَى التَّشْبِهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ»^(٢)، وَ«دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ»^(٣)، وَإِنَّمَا لِيَحْطَ عَنْ كَاهِلِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَيَصْعَقَ عَنِ كَاهِلِ الْعَالَمِ، فَيَتَحَدَّ جَسْرًا

(١) انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٠٨/١

(٢) البخاري حديث رقم ٥٢

(٣) سريدي حديث رقم ٢٥١٨

المال والتعامل

إذا أردت أن تعلم محل الإيمان في قلوب الناس، فلا تنظر إلى رحمتهم على أبواب المساجد، وأماكن المناسك، حجاجًا وعمارًا، وبكائهم وصحيجهم، ولكن انظر إلى تعاملهم بالمال، وإصافهم غيرهم من أنفسهم إذا راحمهم أو جاورهم، أو شاركهم، أو باعهم. التعامل محك يختبر به إيمان المسلم وورعه، ووقوفه عند حدود الله تعالى، وأقوى أنواع التعامل في احتار معادن الناس ودينتهم التعامل بالمال، فالمدل شقيق الروح، وفيه إعراء وإعواء، يصعب معه على صديق الدين النصيحة، وترك ما ليس له، ما دام يقدر عليه ولو بالاحتيال والعش، أو القهر والعدة، والديار والدرهم بقمك على حقيقة الرجال، ولذلك كانوا يقولون اختبروهم بالمرور والنفوس، فقد تجد الرجل يصلي ويصوم ويحج، ويعجبك مظهره ومسه، فإذا ما حالته في المال رأيت عجبًا، فكأنه إنسان آخر، يحاصم بهائمًا، ويأكل المال بالطل، ويخاصم في المحاكم فجورًا، يبحث عن ثغرة في القوانين، ويستعدي على حصمه بالمحاميين، ليستولي على ما ليس له إذا وجد في القوانين ثغرة، وذلك من قلة الفقه وقسوة القلب، فإن ترك الحرام أفصل من العادة

فما سوء المعاملة بين المسلمين، ووصل إلى حد صار الناس يمدحون به الكفر ويمدون المسلمين، فظلم بذلك المسلمون دينهم الذي يقوم على الحق والعدل، ويحبوا أهل الكفر وقوانينهم التي تقوم على الجور والظلم فما يتعقد الله على عمل في العال والكثير أو يتشارك حتى من أولئك الذين يدل مظهرهم على المحافظة على دين الله تعالى وشرعه، والوقوف عند حدوده أمرًا ونهيًا إلا وتسمع عن تعامهم بعد حين ما يسوء ويخيب الآمال؛ مماثلة في دفع الحقوق والديون، خديف في العهود والمواثيق، تحايل على التصل من الالتزامات، كثير منهم لا يراجع عمله مدد يديه، ليعرف ما إذا كان يتفق مع شرع الله أو يحالعه، فيكون سوء العمل من أساسه على باطل، وما كان أساسه باطلا لا يصير بعد ذلك صالحًا وبعضهم يراجع عمله على الشرع، ولكن يأخذ منه ويترك؛ لأنه يريد كسبًا سريعًا، ويرى أن بعض القيود تعوقه عن الصفقات المعرية، والكسب السريع، فيأخذ من الشرع ما يناسبه،

وما لا يماسيه من الأقوال المعروفة المشهورة في الدين إذا كان محتاجاً إليها يبحث له عن (محل) عن طريق القنوات القصائية أو مواقع الحاسوب، والمهم سوى (وس) قد علمنا لقي الله سالماً)، فصار كل شيء احترافاً، حتى الاستعداد، أما سوى رسول الله ﷺ للامة في كل عصر ومصر. «دَعِ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ»^(١)، فليس لها بيسا مكان إلا من رحم ربك

علم الانضباط

حارب المسمون الكفار في كثير من مكراتهم التي يحرمها الإسلام، وراة العامة من المسمين على غير المسلمين سبئة أخرى، وهي عدم الانضاط في حياتهم، وفي تصريف معاشهم ومعاملاتهم، فكثرت فيهم العش والكذب، والإحلاف والرشوة، والاحياء على أكل المال بالباطل، واستحلال المال العام، والمعنئة على الحقوق، والهرب من الواجبات، والتصل من الالتزامات والعهود، والآسية، واستغلال المراكز والوظائف، والامتيازات والعقود لصالح النفس، والقريب والصدق، والذي يدفع أكثر، إلى غير ذلك من الأمراض الاجتماعية الشائعة في بلاد المسمين، وليس لها حصر ولا عد

انضطت حياة غير المسلمين مع تضييعهم للدين، ثماً وجدوا من فوائد في الانضاط فعودوا أنفسهم على ذلك، وشنوا أولادهم عليه، وأشربوا محته في قلوبهم، ثم سوا من القوايين ما يحفظ هذا الانضاط، وطقوا القوايين بصرامة على الرئيس والمرءوس، فاستقام لهم بذلك ما أرادوا من الدنيا، وازدهرت لهم الحياة، وتقدمت العلوم، وصدروا للعالم حضارتهم واحتراعاتهم وثقافتهم، واستولوا بذلك على ثروات المسلمين وعلى عقولهم، ورهد المسلمون في العمل الذي هو حرة الإيمان فتحلفوا

ولعدم الانضاط في حياة المسلمين اليوم مظاهر سلبية أكثر من أن تحصن، هي سب تحلفهم ودلهم، وشقاء حياتهم وانتكاساتهم، لتأخذ منها مثالين يشترك فيهما في العالب والكثير عامة الناس، يدلان على ماقيها

(١) المصدر السابق

١- الاستهتار بالوقت

الوقت أعلى شيء عند العاقل، وأرحص شيء عند الجاهل، العاقل يرد كل ذرة منه بمواريث الذهب، والجاهل يبذله برحص التراب، العاقل يحرص على الاستداع به في كل نفس من أماسه، ويحسه بأحراء الثواب

لم تعرف لشربة وصفًا يعبر عن نفاسة الوقت واعتناقه في الحير أبلغ من قول رسول الله ﷺ «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِي أَدْحَنُ قَبِيلَةٍ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِبَهَا، فَلْيَفْعَلْ»^(١). وقد بلغ علماء المسلمين في حساب الوقت مبلغًا لا يوجد له نظير، قال رجل لعامر بن عبد الله بن عبد قيس أحد العباد كدسي، فقال له عامر أمسك الشمس

يقول أبو الوفاء بن عقيل عن نفسه لا يحل لي أن أصبغ ساعة من عمري، إن تعطل لسبي عن مذاكرة أو مذاكرة، وبصري عن مطالعة، أعمت فكري وأد مسطرح، فلا أبصر إلا وقد حطر لي ما أسطره، وقد ألف ابن عقيل كتاب (القصون)، قال عنه الذهبي لم يصف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب، يقال بلغ ثمانمائة مجلد وكان يقول كتب أحتار سف الكعك وتحسبه بالماء على مصع الحبر، لأحل ما بينهما من التفاوت في الوقت، حتى تتوفر له ثوان يعتمدها في شيء ينفعه^(٢)

والخطيب البغدادي إذا احتاج إلى المشي في الطريق لا يصيب وقته في المشي دون أن يعود عليه منه شيء، بل كان يمشي وفي يده جرة يطأه، وكان ابن الجوري يجعل أوقات الريات التي لا يقدر على دفعها ليري الأقدام، وإعداد النور، وحرر الكرايس، لأنها أعمال لا بد له منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، حتى لا يصيب شيئًا من وقته دون نفع^(٣)

هذا المقيس الذي يقيس به عامر بن عبد القيس وابن عقيل الوقت، دونه المقيس اليوم في الدول الصناعية المتقدمة، فلم يصلوا بعد إلى احتصار أوقات أكتهم بما

(١) محمد حديث رقم ١٢٥٦٩

(٢) حفيد لأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ٢/٢٤٧. وانظر حاشته شرح عبد الفتاح أبي عبد الله عنه

المترشحين للمحامي ص ١٤٧

(٣) المصدر السابق ص ١٤٧، عن عبد الحافظ لابن الجوري

احتصره ابن عقيل إنها الحصار الناعمة من الإيمان، التي لا ترقى إليها الحضرات المادية المحددة، فلما خرج السلوك من دائرة الإيمان، ولم يكن هناك قبول رادع، ولا عقاب صارم، صيغ الناس كل شيء، صيغوا أعمارهم وأعمالهم، بالجمع في المكاتب وأماكن العمل بتمصية الأوقات، وبالجلوس في الأسواق والطرفات، ومراقبة الناس، وبما اعتادوه من كثرة الريارات، ويسمون ذلك مواصلة، يمضون فيها أكثر أوقات أعمارهم، في أحاديث لا تعود بظائل، بل إلى النعية والمحادثات أقرب فإن لم يكن شيء من ذلك، فالجلوس الساعات الطويلة لنشاطات الصغيرة، التي لا يكاد يحلو منها شيء، أو يلعب الورق والشطرنج وما استحدث من ذلك في مجالات اللهو واللعب، وهذا هو العس الذي حذر منه النبي ﷺ «يُفْضَلُ أَنْ يَمُوتَ مُقْبُوٌّ فِيهَا مِنْ أَنْ يَمُوتَ مُفْرَغٌ»^(١)

الوقت هو الكلمة السحرية التي إذا أحس استعمالها، وعلا ثمنها، وحسنت بالتوازي والدقائق، عند المسلم ربه، وأنتج القرد، وتقدم الأمم، وسيت الحضرات، وإذا أسىء استعمالها واستوت فيها الدقائق والأيام مع السير والأعمار، وصارت سعر التراب، تعطل الحياة، واصمحت الأمم، وحرب الملاد في الأمم المتقدمة، تقلع الحافلة والقطار في الموعد، ويصل البريد في الوقت المحدد، ويبدأ العامل في الرمن المقرر، وإتقانه للعمل ومستوى أدائه في الخدمة من السحية العصبية والعقلية هو في الساعة الأخيرة من الدوام كالساعة الأولى حين بدأ، وكأنه آلة، لا تكل ولا تمل، وفي الأمم التي لا تحسب للوقت حساباً، تحتفي الحفلات من الشوارع، ويصل البريد المحفوظ بعد شهر، والموظف الأمين من يرور المكتب كل يوم!!

لوحص الوقت عند المسلمين صار المسلم لا يحس بالحرص إن تأخر عن عمله، أو تحيف عن عهده، خصوصاً إذا قال عند العهد إن شاء الله، فوضعت هذه الكلمة (إن شاء الله) التي تعني العزم والتصميم، وطلب العون من الله على السعي، وضعت لفتح إلى الإنكاث، وأصبحت تعني عند صغاف الإيمان تيسر النية مسقاً على الإحلاف، حتى صار أعداء المسلمين، يتدرون بها على المسلمين

(١) البخاري حديث رقم ٦٤١٢

٢- المغالبة على الحقوق

من مظاهر هذه الانبساط المادية لسلوك المسلم الإيماني، المعاملة على الحقوق، لا أقصد الحقوق المادية العينية، كالأموال والعقارات، فتلك لها شأن آخر، وإنما الحقوق التي يغفل عنها الناس، حتى إهم قد لا يعدونها حقوقاً، الحقوق المعنوية المضمنة في المدفع العامة، التي يكتسبها الإنسان بصفة أسقيته إلى الشيء، أو بصفته مواطناً، أو بصفته إنساناً، أو بما وضعته الدولة لرعاياها من نظم وقوانين لتحقيق الصالح العام، مما لا يخالف الشرع، أصبحت هذه الحقوق غير معروف بها عدلاً بين عامة المسلمين، وسلبها والاستيلاء عليها أمر لا يثير الاستنكار ولا الاستعراب، فمن يقدر على شيء بالمراحمه والمعالجة، أحذه دون استحياء ولا تردد

الاردحام غير المظم شعار الناس حتى في المقابر للعرء، مع أن الحادث حادث موت، والموت اعتبار، ولكن لا تأثير له على النظام، فإلطف يعذب التطفيع لم يعد الناس في حياتهم نظام (الطواير) واحترام الحقوق، لا في المقابر، ولا في الأسواق، ولا في الحج وأماكن العادة، ولا في ركوب الطائرات والحافلات، ولا في العيديات والمستشفيات، ولا وهم يقودون المركبات في الطرقات

فهي الطرق المبدأ السائد هو المعاملة، والاستيلاء على ما لغيره، العذر والضعيف هو الذي يلتزم نظام السير، والباقي يسطو على الطريق من أي جهة كانت، فبذ ما كمنه، أو لم تسمح له بالتعدي سمعت من الكلام ما لا يمكن الصرع عليه، فإن سكنت سكنت عن ظلم وذن، وإن تكلمت أوقف سياسته وأخرج السلاح ليقاتل، وتساءل نفسك. أين أنت؟ لا تصدق ما ترى!! ما حولك من الظواهر والمركبات وهيئات الأشخاص، كلها ظواهر مادية، أهلها مسلمون، والأحلاق؟ إلى المستعدين، لا يمان في القلب يردع، ولا قانون له سلطان على الجميع بعد

المعاملة بالاحتياج والسطو على أوقات الناس وعلى حقوقهم بالسرور والرشوي، أو بالمعروف والوحاهات والوسائط، أصبحت اليوم في الأعراف السائدة مشروعة، من يقدر على شيء من جهد غيره أو وقته أو ماله أو حقه أخذه ولا يبال

السلوك الإيماني في الحفاظ على النظام والأداب العامة وحقوق الآخرين معطل،

يقف السائق سيارته وسط الطريق ليتحدث مع صديقه، ويتوقف بوقفه الجميع حتى ينتهي من حديثه ولا يحس بالحرج

من احراج إلى الطريق العام لأي طرف من الظروف ركب حبة وسط الطريق، وأعنفه على الناس ألباماً عديدة، لا يستأذن أحداً، ولا يرى أنه اعتدى على أحد، والجميع يجب أن يعفروه، وكان الطريق ميراث أبيه، رحم الله مالك، أوقفه جمال على ظهره الماء في الطريق لمسألة، فلم يجه حتى نحاء عن الطريق، وقال له الطريق منك المسلمين جميعاً، ليست ملك أبي ولا أهلك

وإذ كان السب الذي أعلقت الطريق من أحلها تعدياً حصل رواح، أضاف المعتدي إلى مع الطريق مع راحة الجيران، بمكرات الصوت التي تث كلاماً ساقطاً صاخاً، يسمونه عداء، وتمتد هذه الأصوات المكرة إلى فروع العجر، فإذا ما حان وقت الأذان هدأت الأصوات، وحملت الشياطين، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِمَا وَاتَّخَذُوا﴾ [الأحزاب ٥٨]

كل حقوق الفرد سواء كانت مادية أو معنوية، سواء كفلها له الشرع، أو كفتها به القوانين الموضوعة للمصالح العام بما لا يخالف الشرع، كقوانين السير في الطرقات والمرور، وتنظيم الأسواق وتنظيم الأعمال والإدارات وغيرها، مما يحقق المصلحة العامة كلها يجب طاعتها واحترامها، وعدم الاعتداء عليها، فلا يجوز المساس بها شرعاً، ومحالها تعد عصياناً، قال تعالى ﴿وَلَا تَسَدُّوْا بُرُوجَ اللَّهِ لَا يُحِبَّ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة ١٩٠]، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَنَسُوا فِي الْأَرْضِ بَغْيٌ كَثِيراً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى ٤٢]

والحقوى بأوعها مادية أو معنوية لا تونة لمن يتعدى عليها إلا باستحلال أصحابها، قال ﷺ «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»^(١)

(١) البخاري حديث رقم ٢٤٤٩

استحلال المال العام

استحلب القعدة العريضة من الناس المال العام، فمن قدر على شيء منه وأسر
المساءلة تعدى عليه ولم يبال، ولا يرون للمال العام حرمة ولا ضوابط

المال العام فيه حق لكل الأمة، والمعتدي عليه من غير وجه حق متعد على كل
الأمة التي لها حق في ذلك المال، والضرر المترتب على كل الأمة أشد من الضرر
المنوِّب على التعدي على فرد واحد، فمن امتدت يده مثلاً إلى آلة أو جهاز، أو سيارة
في (مصنع) أو مؤسسة، أو مستشفى، أو مرفق يقدم خدمات عامة، فقد عطل تلك
الخدمة، وشلَّ حركة ذلك المرفق، وأوقع ضرراً بالغاً بعامة الناس، يؤدي إلى تعطيل
مصلحتهم، وتصنيع حقوقهم، وقد يؤدي إلى إتلاف حياتهم

النقص في الأجهزة، وفي المواد والإمداد، وفي كل النسخ التي لا تأتي إلا عن
طريق المال العام، وما يؤدي إليه هذا النقص من إصرار بالمحتاجين إليها من أهم
أسباب إمداد الأيدي إليها من (الأموال) عليها في مصدرها الأول، الذين سسحبوا
المال العام، فلا يصرف منها إلى الجهات التي تستحقها إلا القليل، وهذا القليل أصب
لا يسبب منه، بل بباله ما يطوله من الأيدي التي هي الأخرى تسحب المال العام بعد
تسليمه إليها، والجميع يبيعون هذا المال العام بأعلى الأثمان إلى تجار القطع
الحاص

هذا التعدي يُعد من أهم أسباب النقص في السلع والمواد والخدمات في مصدرها
الأول، الذي يقدمها مجاناً كالمستشفيات، أو سعر في المتناول الميسور، كالمصنع
والمؤسسات، وتوفرها خارجها بأصعاف ثمنها، مما لا يقدر عليه عامة الناس
والعامة من عباد الله لا يقدرون على إيواء مرضاهم في المصحات الخاصة،
ولا يقدرون على شراء السلع والمواد الأولية اللازمة لساء بيت مثلاً، أو تكوين أسرة
من المحلات التي تبيعها بأصعاف ثمنها، ويكون مصيرهم سبب سرقة من تعد
أيديهم إلى المال العام إما إلى اليأس المؤدي إلى هلاك المريض، أو الحرمان
المستمر للمحتاجين، وإما اقتحام الحرام بأكل الربا والرشاوى وانتهاك المال العام
كما ينتهب غيرهم، وتتولد على هذا الانحراف سلسلة من المعاسد، تنمو وتكثر وتوسع
أساليبها في الاحتيال والفساد والإفساد

وكل ذلك يتحمل تبعته وأوراره من تاحر في حقوق العباد وخدماتهم المجدية،
وسمى ماله من السلع المخفصة شتى الطرق والوسائل غير المشروعة، كافتعال
الرمائل المرودة باسم الإدارات والمؤسسات، واستغلال التوحيات والمصائب
والنعوذ، وهو مطلوب عند الحساب بالحقوق من كل من تصرر منه من عدد الله
هدا لون من لتعدي على الحال العام على المستوى الأدنى، من أصحاب الوظائف
الصغيرة، أما على مستوى المؤسسات ومجالس الإدارات، فالبدء السائد بينها إلا
من ربح ريك أن المؤسسة وما تنتجه ملك من أملاك رئيس المؤسسة، ينميه ويأخذ
عمولاته، ويستثمره ويستغله مادياً ومعنوياً للرفع من مستواه، وخدمة أملاكه ومشاريعه
ومزارعه، وشغله الشاغل الحرص على المصعب، وبذل النفيس والرحيص في الحفاظ
عليه، لأن يفقد يفقد كل شيء، عدا سلوك المؤمن، فإنه غير موحود أصلاً،
فلا يصاب فيه

وقد توعد لبي ﷺ من كنتم مخيطاً من الحال العام، فكيف بما فوفه، فقال «مَنْ
اسْتَمْعَلَكُمْ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكُنْتُمْ مَخِيطًا، فَمَا قُوَّةُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ»^(١)، وأشار السبي ﷺ وهو يمر بالقيع إلى قر، وقال «هَذَا قُلَانٌ بَعَثْتُ سَاعِيًا
عَلَى بَنِي قُلَانٍ، فَقُلَّ نِيرَةٌ، فَفُرِعَ الْآنَ مِنْهَا مِنْ نَارٍ»^(٢)، ودرع معه ألس عوصها
درعا، وهو الثوب السامة الكاملة أي ألسها في النار وقال ﷺ «مَا بَالُ الْعَامِلِ
نَسْتَمِيلُهُ قِيَامَتَنَا فَيَقُولُ هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ
فَنَظَرَ هَلْ يَهْدِي لَهُ أَمْ لَا؟ قَوْلَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بَيْنَهُ، لَا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا، إِلَّا جَاءَ
بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا، جَاءَ بِهِ لَهُ رُغَاءٌ، وَإِنْ كَانَتْ بَقَرَةً، جَاءَ
بِهَا لَهَا خُورَارٌ، وَإِنْ كَانَتْ شَاةً، جَاءَ بِهَا تَيْعَرٌ، فَقَدْ بَلَّغْتُ»^(٣)

(١) مسلم حديث رقم ١٨٣٣ وحديث «مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَتْرَلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَتْرَلًا، أَوْ لَيْسَ لَهُ رَوْحَةٌ
فَلْيَبْرُوجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا» خرجه أحمد وأبو داود واللفظ له وسكت عنه هو والعلزي، قال
حطبي هو محمود على أحد وجهين أحدهما أن ذلك يكون من عمارته لبي هي أجرة شته وليس له أن
يرتكب شيء سواه الثاني أن لعمام السكى والخدمة، فإنه لم يكن له مسكن ولا خادم متوخر له من
يخدمه، فكيف بهه شته ويكره له مسكن يسكنه مدة مقامه في عمله فصح لرباني على المسد ٩ ٥٦

(٢) سى السائي حديث رقم ٨٦٢

(٣) البخاري حديث رقم ٦٦٣٦

وتوعد الله ﷻ العال، فقال: ﴿وَمَنْ يَسْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران ١٦٦]، وأحبر النبي ﷺ أنه يتبرأ من العال من أمته يوم القيامة فقال «يقول: أغثنِي، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً»^(١)، وأحبر عمر أحد شملة من المعص قبل القسم أنها تشعل عليه ناراً^(٢)

ولا خلاف بين الفقهاء أن من أخذ شيئاً من المال العام من غير وجه حق، أو أتفعه، لومه رده، أو رد مثله أو قيمته، على القاعدة في ضمان التعدي، وإسما الحلاف بينهم في قطع يده، فمنهم من أوجب فيه القطع، وهم المالكية تمسك بالعموم في بة السرقة، ومنهم من منع القطع وهم الجمهور، لنسبة، فإن لكل الأمة حقاً في بيت المال، والحدود تدرأ بالشبهات^(٣)

السفر والسياحة

السفر والرحلات، والقنادق والسياحة، ليس هناك فارق يذكر بين ما هي عليه في بلاد المسلمين، وبلاد العرب، ابتداء من اللغة، فليست اللغة العربية لغة سياحة، الكلام بلغة الغرب، ولباس النساء عاملات أو نزيلات لباس الغرب، ضجيج الموسيقى ولاشرطة والمسلسلات لا يفارق المسافر، لا في الحافلة، ولا في الطائرة، ولا في لبحرة، ولا في صالات القنادق التي تعمر ليلها بالحمور والقمار، والعاء والساء، وما إلى ذلك من حائل الشيطان، لا تسمع من يقول سم الله، ولا توكب على الله، ولا من يكبر الله ويوحده، لا هو راكب ولا هو سار، بل اسندلو بالدكر والتكبير عند مرور الطائرات التصفيق والتهريج، كما كنت تفعل الحاهية عند اليب بذلك الذكر والصلاة، ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْآلَتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال ٣٠] - أي صغيراً وتصفيقاً

وليس في حدود السياحة ومواعيدها مكان للصلاة، فلا إقلاع الطائرات مطور في حسنه إلى صلاة المسلمين التي ربطها الله تعالى بأوقات محددة، ولا في جدول الحافلات مكان للوقوف للصلوات، إلا إذا وافق وقت أكل، أو راحة لسائق

(١) نظر سحري حديث رقم ٢٠٧٣

(٢) سحري حديث رقم ٢٢٣٤

(٣) نظر موسوعة لغة بكونية مادة (ب المال) فقرة ٢٦

والراكب، فعلى من يريد الصلاة أن يتحين تلك الأوقات ويبادر، فيه إن انتظر ليأكل، فلا ينتظر ليصلي إلا على مضض وكره، ولو قلت لسائق الحافلة قف لي قليلاً لأشتري شيئاً رأته في الطريق لاستجاب لك، ولوجدت من الركاب قولاً ورضاً، لكن إن حان وقت الصلاة وطلب الراكب من السائق أن يقف ليصلي خوف خروج الوقت مع بدة من يفعل ذلك لما وجد استجابة إلا على مضض وكره، واستعجاب واستهجان، ولموه بالشدوذ وقلة الفهم في الدين، لأنه (عطل المسلمين)، فهل هذه أخلاق المؤمنين؟^{١١٩}

الطب والمستشفيات

الطب والعلاج والمستشفيات، لا يختلف حاله وحال العاملين فيه عن العاملين في السياحة والصدى والمستشفيات الأوروبية، فلا الطبيب ولا من يساعده من العاملين والعاملات حتى المصلين مهم يتقيد بتعاليم الشرع والدين، إلا من رحم ربك، وهم من الندرة يمكن. لهم في الاستهتار وعدم الصلاة في كشف عورات المرضى، والحلوة والاحتلاط المحرم ما يندى له العجين، يطبقون في ذلك ما تعلمونه في مستشفيات أوروبا مع المريض، والأوروبيون يبيحون إحلاء الرجل بالمرأة، ويكشفون العورات دون عصاصة ولا حياء، حتى في الطرقات والأسواق، والحمامات، فليس في ذلك عندهم حرج ولا بأس^{١٢٠}

إذا دحبت صالة الولادة في مستشفى من المستشفيات رأيت العجب، ساطر لا يقبها صاحب نفس كريمة، ناهيك بمن له من دين المسلمين نصيب، أجساد نساء شبه عارية تتوحد، هنا وهناك، والداخلون والخارجون من الطنفة والمدرسين والعاملين المنطقلين، والمراحمين، أطباء وغيرهم، أكثر من القائلات والمداوين تعاليم الإسلام تقول: المرأة للرجل كلها عورة ما عدا وجهها وكفيها، ولا يجوز له أن يمس بشرتها إلا للمصرورة، والمرأة يجوز لها أن ترى من المرأة أعني بدنها وأسمه، ما عدا ما بين السرة والركبة، فهو عورة، لا يجوز للمرأة أن تراه من المرأة إلا للمصرورة

وعليه فالرجل لا يكشف على المرأة ولا يباشرها بيده ما دامت هناك طيبة يمكنها أن تعالج المريضة، لأن الطيبة يجوز لها أن تباشر المريضة بدها، ويجوز لها أن ترى

منها ما عدا ما بين السرة والركبة فإن كان العلاج يستدعي كشف العورة، فهي حالة الضرورة، الرجل يعالج الرجل، والمرأة تعالج المرأة، فإن تعذر هذه الموافقة، فمع بعد الرجل طبيباً رجلاً يعالجه، ولم تجد المرأة طبيبة تعالجها ووجدت ضرورة، جاز للرجل أن يكشف عن المرأة، وللمرأة أن تكشف عن الرجل

أما حديث الربيع بن معمر التي قالت: «كنا مع النبي ﷺ نسقي ويداوي الجرحى، ورد القسي إلى المدينة»^(١) فمحمول عند العلماء على أنهم يداوي الأرواح والمحارم، أو على أنه كان من غير مباشرة ولا مس للبدن، قالوا ويدل لذلك اتفاق العلماء على أن المرأة إذا ماتت، ولم توجد امرأة تعسلها أن الرجل لا يباشر عسلها مس يديه، بل يعسلها من وراء حائل عند بعض العلماء، وعند أكثرهم يممها، ويسقط عنها فرض العسل^(٢)

والضرورة لئلا تستدعي كشف العورة للعلاج يجب أن تقدرها بقدرها، دون توسع أو تساهل وعدم مبالاة، كما هو الحال في المستشفيات التي يسهر فيها في العدة بكشف عورة المريض، وحرمة العورات في تقاليد المستشفيات ثانوية

فمثلاً إذا كان يكفي في علاج الجرح مثلاً كشف الفخذ، فلا يجوز لطبيب أن يكشف ما زده عليه، وإذا كانت الطيبة أو الممرضة يمكن لها أن تقوم بالعمل وحدها، فلا يجوز لها أن تعرض المريض أو المريضة مكشوف العورة أمام جماعة من رفق المهنة، الذين ليس لحضورهم حاجة في العلاج

وإذا انتهى الطبيب أو المعالج من الدواء أو الكشف، أول شيء يجب أن يقوم به نفسه، هو ستر عورة المريض، قبل القيام بأي عمل آخر، لأنه المسئول عن ذلك، ولأن المريض لا يعلم متى يهيئ الطبيب عمله، لا أن يترك الطبيب المريض، ويذهب لعسل يديه، وأحياناً حتى لكتابة الوصفة، والمريض على حاله

فعلى العاملين في المستشفيات، الخاصة منها والعامية أن يتقوا الله تعالى في عورتهم المسلمين والمسلمات، وأن يعملوا على أن يسود فيها احترام قيم الشريعة في الحفاظ على العورات، التي فرض الله تعالى على المسلمين سرها، قال تعالى

(١) سحري حديث رقم ٢٨٨٢ وفتح الباري ٦/ ٢٢٠

(٢) بقر فتح سحري ٦/ ٢٢٠

﴿قُلِ لِلزَّوْجِ نَعَصُوا مِنْ أَنْصَرِهِمْ وَتَحَفُّظُوا مَرْجِعَهُمْ﴾ [النور ٣٠]، وقال تعالى ﴿وَلَا يَتَّبِعُكِ رَيْبَتْهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور ٣١]، وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ»^(١)، وقال ﷺ «... والعينان زناهما النظر»^(٢)

ولا يتم ذلك إلا بتوفير الخدمات النسائية للنساء، بأن تخصص للنساء في العيادة طيبة، وفي التوليد (قابلة)، وفي معمل التحليل أو عرفة الأشعة امرأة تقوم لهن بالخدمة والحضور. حيث تحتاج المريضة لكشف صدرها أو عقبها، وكشف ذلك للمرأة غير ممسوح، لكنه للرجل ممسوح، وبذلك يتخلص من محدود آخر ليس له حساب في عرف المستشفيات، وهو الخلوة بين الرجل والمرأة في عرفة ليس معهما أحد

الطبية المسلمة تحسن بالحرج من عدم مراعاة تجنب الخلوة في المستشفيات حتى إن مهن من تركن المهمة من أحله، وكذلك بعض الأطباء يعانون من هذه المشكلة مرارة، فإن المؤمن لا يطبق التمادي على انتهاك حدود الله والإصرار على ذلك كل يوم، وليس حل هذه المشكلة من الأمر العسير إذا حنصت بية من بديرو المستشفيات، فإن تخصيص خدمات الرجال للرجال، وخدمات النساء للنساء كفيل بوحود محرج للمسلم من هذا الأمر

وقد حرم النبي ﷺ الخلوة وحذر منها أشد التحذير، قال ﷺ «إِنَّا كُنْمُ وَالِدُخُولِ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأَيْتَ الْحَمَاقَةَ؟» أي هل يجوز له أن يغتلي بزوجة أخيه؟ قال ﷺ «الْحَمَاقَةُ الْمَوْتُ»^(٣)، محذراً من ذلك، ومؤكداً عليه، وقد ﷺ «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»^(٤)

وكما أن الخلوة ترتفع بوحود محرم للمرأة، ترتفع أيضاً بوجود طرف ثالث ثقة، رجل أو امرأة، ولو غير محرم عند كثير من العلماء، لقول رسول الله ﷺ «لَا يَدْخُلَنَّ

(١) مسلم حديث رقم ٣٣٨

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٥٧

(٣) بخاري حديث رقم ٥٢٣٢

(٤) البخاري حديث رقم ٥٢٣٣

رَجُلٌ يَمُدُّ يَوْمِي هَذَا عَلَى مُنْيَةٍ إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَوْ اثْنَانِ^(١)، وعنده فقداء المريضة في العرفة مع الطبيب بحضور الممرضة مثلاً ترتفع معه الحلوة، ولا يكون مسموعاً^٢ والذي يحل المسألة برمتها أن تترك خدمات النساء طبيبات وغير طبيبات لنساء ويساعد منها الرجال، ولا شك أن في ذلك فائدة علاجية أيضاً علاوة على الفائدة الأخلاقية الدبية، فإن استجابة المريضة إلى امرأة مثلها أسير عيها وأرفع لذكفة، حيث تستطيع أن تروح لها بكل ما في نفسها، الأمر الذي قد يساعد على تشخيص الداء ومعرفة الدواء

وسبب البعد عن هذا المسار الصحيح في إدارة وحدات العلاج والمستشفيات، ووجود الرجال في أماكن خدمات النساء، وأحياناً يكون هؤلاء الرجال المهنيون في الأشعة أو غيرها من غير المسلمين، كالتنصاري والهندوس، فيزداد الأمر بذلك سوءاً. سبب ذلك صارت المرأة المحافظة على حياتها تحسب لدخول المستشفى ألف حساب، وقد تتأخر وتبتاطأ كارهة، حتى يفوت الأوان ولا ينفع العلاج

فرائض الإسلام وسه تعيش عرة داخل المستشفيات، حيث يوقع الحفاظ عيها والتقيدها، لما يشاهد فيها من الاتعاض اليومي المتواصل بالموت والأوجاع والأسقام والآلام هل رأيت طبيباً، أو ممرضاً واقعاً إلى جنب محتضر يلقه لا إله إلا الله^٣ وقد خاطب النبي ﷺ جميع المسلمين بذلك فقال «لَقُوا مُؤْتَاكُم لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣)، ثم يعمص له عييه، ويشد له لحييه، كما هي السنة في العمل من حصر أحده

أحبري طبيب أنه حاول أن يشيع ذلك بين زملائه، فوجد نفسه كأنه يحاطب أن جهل، ولا يحاطب مؤمنين، والأسوأ في هذا أن المريض إن حصر أحده فيما يسمى بعرفة لعديبة، تحصره في العالب ممرضة يودية، أو نصرانية، لأنه لم يعمل حساب لما يسعى من حقوق المسلم عند الموت

يرك الطبيب عرفة عمله، ويطلب الإسعاف مريض، فلا يُعثر له عني أثر، وتُربط

(١) مسلم حديث رقم ٢١٧٣ والنسخة المرأة التي عاب زوجها

(٢) نظر فتح ساري ٤ ٤٤٨ ومواهب التحليل ٢/٢٥٥

(٣) مسلم حديث رقم ٩١٧

أيدي المريض على السرية بحمل شديد، قد يؤثر فيه ويسبب له عاهة مستدمة لا يبرأ منها، ويترك أحياناً مربوط اليدين موثقاً وهو في الرمن الأخير محتاح إلى أن سل شفيعه بالماء، فلا يجد من يحل وثاقه، ولا من ياوله الماء، أوثقت الممرضة بأمر الطبيب، وذهب كل إلى حاله، والصباح رباح! أوثقوه حتى لا تمتد يده (الأثمة) إلى أسوأ الدواء، المركب في يده وكفه ، ولكن ما الحيلة، فالمرضى أشبه بالأسير^(١) هناك ممارسات متخلقة وسط العاملين في المستشفيات العامة يجرمها القانون، ويحرمها الشرع وكل عرف ودين، وهي تدخل تحت حياة الأمانة، ومنها ما يدخل تحت السرقة والاستيلاء على المال العام دون وجه حق، أو الإهمال أو السب، ويرتب على ذلك ضرر بالغ بعامه الناس وعجز عن علاج ما كان يمكن علاجه، وقد يكون سبباً في إتلاف الأرواح

من هذه الممارسات

١ احتساء لأجهزة والمواد من المستشفيات، نقص حتى في المواد الأولية، كموايد التعقيم، وتصميد الجروح، والمواد اللازمة للتحاليل الطبية، ويتوفر ما احتسب من ذلك في المصحات الخاصة والعيادات

٢ إذا كان عدم إتيان العامل لعمله وتأديته على الوجه الأكمل في سائر المرافق من الإحلال بالعقود التي أمر الله تعالى بالوفاء بها، في قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا إِلَيْكَ مَنُومًا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة ١]، ومن حياة الأمانة في التكليف الموعد عندها شرعاً، كما قال ﷺ في الحديث القدسي «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ خَدَرَ»^(٢)، أي عاهد عهد المسلمين ثم نكث، والتكليف كدها أمانة، والصلاة أمانة، والصيام أمانة، وأداء الواجب أمانة، كل ذلك أمانات فكيف إذا كان هذا التهون في مرفق يمس حياة الناس وأرواحهم، ويعرضهم لنموت

٣ الطبيب المتخصص يترك مرضاه في المستشفى العام إلى من هو أقل كفاءة، فلا يراهم حتى يخرجوا، أو يفوت الأوان، ويعتني بهم في المصحات الخاصة، ولو حاول أبها المريض أن تكلم هذا الطبيب المتخصص في المستشفى بعد أن

(١) البحاري حديث رقم ٢٢٢٧

ينست من إتيهه إليك لا يقف لك، ولا يلتفت إليك، ولا يرد حتى السلام،
و«يَحْسَبُ آخَرِي مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ»^(١)

٤ المتخصص في التحاليل الطبية أو الأشعة التشخيصية لا يدقق عمله،
ولا يثق به، ولا يعطيه من جهده ووقته ما يصمر صحة النتائج ووضوحها التي عني
أساسها بتقود مصير المريض، حتى صار الأطباء لا يطمنون إلى النتائج التي تعطيها
لعرنتها، ويطلبون من المريض إعادتها في مكان آخر

٥ المهنيون في الخدمات، كالأشعة والتعريض وغيرها، غير مؤهلين إسميًا قبل
الأنهليل مهنيًا لتعامل مع المريض، لا يرفقون معاصر ولا متوجع، لا في ثقته ولا في
تحيكه، ولا يسمعون حتى إلى كلامه وشكواه إذا طلب منهم عمل ما يريجه،
أو يعيهم على أداء عملهم على وجه أفضل، لأن جميع المرضى في نظرهم جهال
ومتطلبون بالكلام، فعليهم أن يسكتوا ويسمعوا ويطيعوا، حتى ينتهي الواحد منهم من
عمله بالطريقة التي يريدها، وهم أدرى بمصلحة المريض^{١١}

٦ الكثير من الأطباء والمساعدين والمداوين لا يحسون بالمسئولية الطبية عن
التقصير، وقد يشأ عن إهمال الطبيب أو الممرض وتقصيره جدياً، يرتب عيبه
ذهب من، أو إصانة معاهة مستديمة للمريض لا يقوم بعدها، ويحصى الطبيب
أو المعالج تقصيره حتى لا تلحقه مساءلة القانون، وأحياناً يشعر بحطته الذي لا يكون
ظاهرًا بجرمه القذون، فيخفيه عن المريض ودويه، ويحسب أنه كسب القضية، والله
تعالى عليم به ما أخفاه، وهو عليه رقيب ولا شك أن كل مظلوم سيقف مع من
ظلمه حين توضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴿وَصَحَّ لَوَيْلٍ الْقِسْطُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَلَا
تُظَنُّمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَدَكَكَ مَثْكَالَ حَبْكٍ بَيْنَ حَرْدَلٍ أَيْبًا بِهَا وَكَلَىٰ بِأَبِ حَبِيبٍ﴾
[الأنبياء ٤٧]، والخطأ يرفع الإثم عن المحطى لقول الله تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
حُجٌّ بِيَمَّا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب ٥]، ولكن لا يعفيه من دفع الذية إن كان فيما أتته
الطبيب ذية مقدرة، كالنفس والأعضاء، وإن لم يكن في الجزء المتلف ذية مقدرة،
فالواجب الأرض أو الحكومة، وهو التعويض المناسب للمضرر الواقع على المتضرر،
بحكم به أهل العدل والخبرة

(١) مسلم حديث رقم ٢٥٦٤

المصحات الخاصة

هنا بعض ما في المستشفيات العامة، أما المصحات الخاصة، فأمرها العالي
تحرص الصريح، بعض المصحات لا يقل إيواء المريض إلا أن يدفع مقدماً مبلغاً
محترماً، حتى لو كان المريض حالته لا تحتل الانتظار، أو يتألم ويصرخ، عنيك أن
تركه في الاستقبال حتى تحضر المطلوب، لأن تعليمات الإدارة هكذا، ولو رجعت
فوجدت المريض قصي نحه، تكون محظوظاً إذا سلمت من أجرة الكشف

لا أريد أن أذكر أصحاب هذه المصحات معاملات الكمار في البلاد الأوروبية
الذين لا تريد إحقاءتهم عن إيواء المريض أو حتى عند حروجه وتركه المصلحة عن
أحد عنوانه ورقم هاتفه لا أريد أن أذكرهم بذلك فأصحاب المصحات أكثرهم ما
شاء الله درسوا في تلك البلاد، وتخرجوا في جامعاتها، واشتعلوا مع أهدها،
وعلموا سيرتهم في هذا الباب تمام العلم وقد يعتدرون لأنفسهم بأن الناس هناك غير
الناس هنا لكن أريد أن أذكرهم بما يجري حولهم في بلدان العالم الثالث، الذين هم
من حديثنا ولساننا ويسلكون سلوكنا، لم يعرف عنهم اشتراط الدفع قبل إدخال
المريض ولا سمعنا بمن طلبه، لأنه لا معنى لهذا الشرط والمريض داخل لا حارج،
فهو رهينة في ثمن علاجه احمر الأمر، إذ لم يحدث أن أحداً هرب مريضه ليلاً حتى
يكون مبرراً لهذا الشرط، ولو وُجد فهو من النُدرة بحيث لا يستدعي تشريعاً من
أصحاب المصحات بتأدي منه الكافة، ويعرض المعتجيين إلى المصلحة إلى الخطر
ومعبدة الألم تعطيل إيوائهم وإسعافهم، والمتوقع من هذه المؤسسات الإنسانية أن
مصلحة المريض فوق كل اعتبار، ولتشرط المصلحة بعد إيواء المريض من الضمانات
ما تشاء، فذلك من حقها.

تسويق السلعة للمريض دون أن يستشار

لبعض المصحات والعيادات من الوسائل القابولية وغير القابولية ما لا يحظر على
الناس، المبدأ السائد بينها فرض تسويق سلعتها على المرضى من غير تمييز، من صاحب
مهم إليها ومن لا يحتاج، لها أدوية وأجهزة ومعامل لابد من تسويقها وتشجيعها بأعني
الأسعار، فكل مريض عليه من الناحية (الإنسانية) أن يسهم في دعمها

من المصحات ما له تقليد (معتبر) صممته الإدارة، تحصيلاً للمصلحة العليا وهو

أن كل من يتخطى عنتها للإبواء، لابد أن يمر بعدد من التحاليل والشحيصات، لا يعفى منها بحال من الأحوال، سواء كانت لها صلة بشكواه التي أوجده المصحة، أو لم تكن، لأن الاحتياط واجب!

بحرح المريض بعد الإبواء بقائمة حساب طويلة مملوءة بخدمات طبية وفحوصات وأدوية، بعضها تسلمه وبعضها لم يتسلمه، أو على الأقل لم يعلم به إلا عند دفع الحساب

وما استلمه المريض من الخدمات لم يستشر فيه، وهذا هو السبب أنه لم يعلم به إلا عند دفع الحساب، وكان المريض من حين سلم نفسه إلى المصحة، سم معها رثده وأهينته في التصرف، وحقه فيما يريد وما لا يريد، وأعطى للمصحة الوصاية المطلقة عليه في أن تفعل به ما تريد الشرع والعرف والقوانين المحصورة في الشرع وفي العرف، تحرم أن يأخذ أحد مالا من غيره على خدمة أو عمل لم يعلمه به، ولم يؤخذ إده فيه مسقًا، ولا يعرف هذا في الشرائع المتعددة، فصلًا عن الإسلام، وأي مال يؤخذ من الإنسان على عمل دون إعلامه به، وأخذ رضاء مسقًا، هو من أكل المال بالباطل في دين المسلمين، حرام، لا توبة لصاحبه إلا برده، قال تعالى مشيرًا إلى وجوب التراعى في تبادل المصاعف ﴿يَأْتِيهَا إِلَيْكَ ءَامُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ عَنْ رَضَىٰ بَيْنَكُمْ﴾ [النساء ٢٨]، وقد ﷺ «إِنَّهُ لَا يَجِلُّ مَالٌ أَمْرِي إِلَّا بِطِبِّ نَفْسٍ مِنْهُ»^(١)، وقال ﷺ «يَحْبِبُ أَمْرِي مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَبِرْضُهُ»^(٢)

الواجب على المصحة أن تكتب الدواء للمريض، والمريض هو الذي يشريه، إن شاء منها وإن شاء من غيرها، فقد تكون له مصادر للدواء أقل تكلفة، خصوصًا أن تسعيرة المصحات كلها توضع في قائمة الحساب على سعر السوق السوداء، حتى لو كان مصدر الدواء مخازن الصحة، وعلى المصحة أن تخبر المريض أنه يحتاج إلى التحليل الفلاني والتصوير الفلاني، وأنه يكلف كذا وكذا، فما وافق عليه عمل له،

(١) مسند أحمد حديث رقم ٢٠١٧٢

(٢) مسند أحمد حديث رقم ٢٥٦٤

وما لم يوافق عليه لا يعمل، لأنه هو الذي سيدفع الثمن، وهو أحرص على مصدحة نفسه من غيره

والواجب أن تُبين الأجرة على ما يقدم له من خدمات سود واصحة، بحسب ما مستقفاً، بحيث لا يباحأ عند الحساب شيء لم يعلمه، فإذا قيل له مثلاً أجرة عرفة العمليات كذا، فمعناه أن كل ما يقدم له داخل عرفة العمليات داخل فيما ذكر، إلا إذا استثنى شيء بعينه وأحمر به، لأن أي عقد لا يكون بهذا الوضوح، واكتفه جهالة أو غموض، فهو باطل شرعاً وقانوناً والعقود الناطلة بسبب الجهالة محرمة في الشريعة لمهي النبي ﷺ عن عقود العرر^(١)

هذا قبيل من كثير مما يجري في المستشفيات والمصحات الخاصة، لو جمع لحرحت منه كرايس، يمر عليها من الكرام على مرأى وسمع ولا يبقى له دال ولا نعم لحكم على الجميع، فما قلناه هو الشائع والكثير والغالب، ولكن من الأطباء والعلميين من له من ديبه وكريم خلقه ما يحرص معه على مصدحة المريض العلاجية والمالية حرصه على أمر نفسه، ويجسه من النفقات والمصاريف غير اللازمة ما وحد إلى ذلك سبيلاً ولا يألوا. وقد رأيت نماذج من ذلك أجلهم وأحترمهم وأكبر فيهم هذا، الحسن، ولهم في نفسى مرلة لما يقدمونه من خدمات في المستشفيات المحانية على مستوى من الكفاية العالية للعامة من عباد الله دون تمييز، فأحر هؤلاء عند الله عظيم وثوابهم حريص، والله لا يصعب أجر من أحسن عملاً

معالج المريض طيب، أو مساعد في علاج، أو مالك مصدحة لو أحسن له عمله، وأتقنه بالرحمة المطلوبة والشفقة المعهودة، فكان في رحمة الله تعالى ورضوانه، ولخرج الله عنه كرب القيامة، التي لا يقدر على دفعها أحد غير الله ﷻ، فإن من فرح عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرح الله عنه كربة من كرب يوم القيامة كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ، فكيف بمن عمله كله تفريح كرب عن مرضى المسلمين؟ لكن إن فرط وأهمل، أو استغل المصطري من المرضى والمحتاجين، على نحو غير مشروع، فما أكثر حصومه بين يدي الله تعالى

(١) مسلم حديث رقم ١٥١٣

الجامعات والمعاهد

الجامعات والمعاهد والمدارس، حلت من التذكير بالله تعالى ، وتعليم ما يجب من أحكام الدين، الطلبة والأساتذة والإدارة، يفكرون في القول والرسوم، وساعات العمل والعلاوات والتسجيل والنجاح والامتحان، لكن لا يفكرون في التحصيل العلمي المتدني، ولا في الفضيحة المتردية، ولا فيما يروونه من التهاون في فرائض الله تعالى والتفريط في إقامة شعائره، ثم لا يحركون ساكنًا للإصلاح، ولا لاسهك حدود الله تعالى وحرماته

فهو دحبت ساحة من ساحات الجامعات، لأنكرت نفسك، هل أنت في معهد عمي، أم منهي ليلي؟ لما تسمع من الأنعام الراقصة والصحب والصحيح، والكلام البديء أثناء المحاضرات، ولما ترى من أشكال وجوه سوء، لا تقيم وزنًا لأسد ولا حرمة لعقيفة تحتشم وتراعى الآداب، ليسوا من الجامعة ولا من طلابها، جاءوا حصيفًا للسمعة وقضاء الأوقات، واستدراج من كل على نمطهم في الهيئة والماس، والبهود وعدم المسالة

لا تسمع في الجامعة ادانًا ولا ترى صلاة جماعة، بل الأستاذ لا يأذن للطلاب بالصلاة حتى لو كان وقت المحاضرة يستعرق وقت الصلاة كلها، فالمحاضرة في نظره أفيد من الصلاة^{١١}

معظم الأساتذة والطلبة على جهل كامل بكثير من الأساسيات في الدين، وفروض الأعيان، ويريد الأمر سوء، جهلهم بأنهم يجهلون فلو سألت أحدهم عن وقت من أوقات الصلاة متى بدأ ومتى ينتهي؟ وما الوقت الذي يجوز تأخير الصلاة إليه من غير عذر؟ ومى يحرم التأخير؟ لما وجدت عدد أكثرهم جوائًا، ولا يرون في جهلهم بهذه الفروض تقصيرًا، ولا نقصانًا، فسواء عليهم علموها أو جهلوا، فهي في نظرهم لا تقدم ولا تؤخر، لأنها ليست شهادة علمية يترقون بها، أو يتوظفون، وليست عمدًا من علوم الدين تسي المناصب الرفيعة والأماكن المرموقة، ولو اقترحت تدرس هذه الأساسيات في مقررات الجامعة، ليكون شأنها شأن أي علم من العلوم الأخرى التي يحتاج إليها الطالب، لوحدت منهم معارضة شديدة، لأنها ليست من علوم العصر، التي يحتاجون إليها في نظرهم

تعقد دورات التقوية للإداريين والمدرسين والطلبة، في مجالات محتلفة من المعرفة، في التربية، في المحاسبة، في الإدارة، في اللغة العربية، لكن ما سمعنا بعد بدورة تقوية في هذا المجال، لم لا تعقد حلقات لأساتذة الجامعة في تعميم ما لديهم من أساسيات الدين؟^{١٩}

الجامعات الخاصة

وراء حالة التعليم سوءاً بالتساق على فتح الجامعات والمعاهد العليا الخاصة، في كل قرية وكل واد، دون إعداد ولا دراسة، ولا (كوادر) علمية مؤهلة، فمن أراد أن يشيء جامعة أو معهداً أنشأ، فاستوى فتح الجامعة مع فتح الدكان، والورشة، ومحل تأجير لكراسي في المؤهلات والمتطلبات والشروط جامعات لا تدعو إليها حاجة من الحاجة التعليمية، بل قد تفسد أكثر مما تصلح، فالذين يدعون بهذه الجامعات التجارية هم صغار الطلبة، وغير المؤهلين لدخول الجامعات، ليؤسوا بجاحهم الذي يتعذر عليهم في غيرها، ذلك أن المؤسسة التجارية مدرسة أو معهداً، أو جامعة هي من خلال التجربة ملزمة بتصحيح طلابها، وإلا قل الإقبال عليها، وعُدَّ المشروع فاشلاً!!

الموظفون والإداريون

إننا نعاني بصفة عامة من أزمة في الإدارة، على مستوى العالم الثالث الذي منه معظم بلاد المسلمين إن لم تكن كلها، في الدوائر والمصانع والمراكز المحففة، تسبب وإهمال، وتصيير للأوقات، وحياة للأمانة، ورشوة، وفساد للدمم وعدم انصاف، سبها حروج السلوك من دائرة الإيمان، مع غياب القانون الرادع

عنة الدين بين الموظفين والإداريين ما أشدها، التوظيفة في بلاد الروتين، التي منها بلاد المسلمين في الغالب. واحد من اثنين إما وسية من وسائل السمية، أو وسية للاحتيال والسحب والرشوة، والاستيلاء على المال العام، فإن كان العمل من أصحاب المصائب الذين أوتمنوا على المال العام، فأول ما يفكر فيه أن يكون أكثر المال له، والقليل منه لغيره، ويعتبر المؤسسة التي يرأسها من منكه الحاصص، يعميه لنفسه ما دام فيها. حتى إذا ما أحس بإحراجها منها أفرغ حريتها، وأغس إعلامها، وذهب إلى حالة

إن كان مكفياً بداره عطاءات أو مقاولات أصبحت الـ ٢٠% الخاصة به إن كان مواضعاً لا تقبل النقاش وإن كان في مرفق يحتاج الناس إليه في اسحراح شهداء أو توقيعات عالية الثمن. أو دفع مستخلصات مالية، بماطل ويسوف، ويؤجل ويهرب، إلى أن يضطر صاحب الحق إلى واحد من اثنين إما أن يترك حقه، فيكون الموظف المنتسب له في تركه كالعاصب الذي لم يتمتع بعصه، لا هو حصل منه عني شيء، ولا سم من ورده، وإما أن يضطره إلى دفع الرشوة، التي نحن رسول الله ﷺ أحدها ومعطيها، والواسطة فيها، وهي السحت الذي يسميه الناس عمولة

والرشوة أنواع وطرقها تعددت هذه الأيام، فقد تدفع بواسطة العملاء، وقد تدفع مباشرة، وقد تدفع عرضاً من المتجدين والمتجرات من الدين والحنو، فتقضي الحاجات ولو كانت محظورة بقضاء الشهوات وقد تدفع مقبضة بالمصالح والخدمات، فقد صار الناس في المقايضة بالخدمات لا يتسرون ولا سحرحون، وأول شيء يوه به عند التعارف، موقع العمل، والخدمات التي يمكن أن يقدمها من يعرف نفسه، فإن كان في موقع له أهمية في الخدمات الحياتية، وجد لقوله استحساناً عند سامعه، وحفظ السامع اسمه وعنوانه وهاتفه، وإن كان غير ذلك، كأن يكون طالت أو مدرساً، صرف عنه النظر وترك لشأنه. وصار الناس بسبب ذلك يصرفون عن الالتحاق بالأعمال النافعة، التي لا ترجى منها مقايضة عاجلة، ويتقنون عني المواطنين الأخرى التي تصلح للمقايضة، ليصل إليها من يصلح لها ومن لا يصلح، ويدلت أقرب معاهد التعليم ومدارسه من المعلمين النابهين

والمقايضة بالخدمات تجرؤ على طلب ما لا تحله لوائح ولا قوانين لأعرانها، فهي سبب بصفة، وكل سلف مردوداً وتكون النتيجة صباغ الصمير، وحيمة المسئولية، صنع المعنويين على أمرهم حقوقهم، والتجاوز بإعطاء من ترجى المقبضة معه ما يصعب القبول

أما الموظف الذي لا يملك توقيماً غالي الثمن، فالوظيفة له تسية، يحصر مسمى شيء، ويعيب مسمى شيء، ويوكل من يوقع عنه دعاات الحضور والانصراف، مُسْتَعِدَّة بالساعة والدقيقة دوراً، ثم يبحث عن فتوى لتحليل المرتب إن كان من أنصاف المتدربين، وإلا فهو في عنى عن الحلال، لأنه لم يعد يفكر فيه. وإذا حضر بعد العياب والتأخر

الطويل تجمع مع زملائه، أو زميلاته في غرفة، وقضى الساعات المصعبة في السببية،
 والمؤاساة والحكايات، احتلاط مشوه، وحلوة محرمة، وعزل مطر، ومكلمات في
 الهدف في المكاتب مع السات والنساء لمواعيد اللقاء، من الكبر والشباب على
 السواء، محصور الناس دون استحياء. ولشيوع هذا الحلق القديم، وشیوع المعاصي
 صار العرف لا يستكر ذلك، ويقف صاحب الحاجة وربما كان الوقوف يؤلمه لسه
 أو مرضه على الموظف الرمن الطويل، وهو في مكائفة من هذه المكلمات،
 لا يمتص إليه، ولا يرفع إليه رأساً، بل يعد حضوره في ذلك انوقف مصيبة برلت به!!
 فقد الإحساس بالمسئولية، وفساد الصمير والتسبب، وتعطيل مصالح الناس،
 وعدم إتقان العمل، وتراكمه، وإهماله حتى تصبغ الأوراق والمستندات، ويضيع معها
 الحق. صار مظهرًا من مظاهر الوظيفة بين المسلمين يأتي صاحب الحاجة الذي
 لا حول له ولا طول من مكان قريب أو بعيد، ليراجع الموظف الذي وصعت له
 (لافة) عند رأسه تذكره بحديث النبي ﷺ. **«إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ
 يَتَّقَهُ»** ^(١)، فيجد المراجع اللافة، ولا يجد الموظف، وإذا وحده بجده حسداً،
 بلا روح، عادت قانطاً، لم يسمع بعد بأن الكلمة الطيبة صدقة ^(٢)، مع أنها في حقه
 واحدة وليس صدقة، فهي حرة من عمله الواجب عليه، ولم يعرف أن التسمك في
 وجهه أحيث، لك صدقة ^(٣)، ولا أن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ^(٤)،
 أين الأوراق؟ احصب الأوراق، أين الملف؟ ضاع الملف، وإذا احص صاحب الشا
 أو أظهر عدم رضاء، وعرف من حاله أنه ممن لا يقع يرتجى منه في مكان آخر، سمع
 ما يسوء، وصحت أذنه ما يثير ويعيط، ولو اشتكى الموظف الذي عطل له عمله بعد
 المراجعات المتكررة إلى رئيسه لينصفه منه، ازداد المكر به، وكان كالمستجير من
 الرمضاء بالنار، وعليه أن يئأس من الوصول إلى حاجته بعد الشكوى حتى لو أظهر له
 المدير التعاطف في ظاهر الحال، لأن رئيس الإدارة في بلاد الروتين يعد الشكوى في

(١) رواه أبو يعنى رحمه الله تعالى في كتابه وثقه ابن حبان وصححه جماعة، مجمع تروك ٤ ٩٨

(٢) حديث خرجه سحاري انظر السحاري مع فتح الباري ٥٦/١٣

(٣) سمردي حديث رقم ١٩٥٦ و٥٧ - حور غريب

(٤) مسلم حديث رقم ٢٦٩٩

أحد موظفيه طعناً فيه شخصياً! ودليلاً على عدم كفايته، وضعف قدراته على تسيير العمل ونجاحه، فالمسألة مسألة اعتبار!

عمر عليه السلام وهو خليفة المسلمين يقف له بلال أو سلمان فيقول له: «لَوْ رَأَيْنَا فِيكَ اغْوِيحًاخًا لَقَوْمَنَا بِسُوءِنَا، فيقول الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من إذا رأى في اءوجاجنا قومني بسيفه»^(١) وكان من حطة أبي بكر عليه السلام عندما تولي أمر المسلمين «إن أحسب فأعيبوني، وإن أسأت قوموني». والمدير في أيامنا لا يسمح أن يهيم مرءوسه بتقصير، ناهيك أن يتهم هو ذاته!! والسبب أن الموظف لم يؤمن بعد أن الوظيفة تكليف ومستولية، كما فهمها أبو بكر عليه السلام والمؤمنون، يوم كان الإنسان حراً من سلوكهم، وليست مزايًا ومنافع ذاتية، ولم يؤمن بعد بأن وقته حلال ساعدت عمه مدك وظيفته، وليس له منه شيء لنفسه، وأن أجره ومرته لا يحل له منه إلا بقدر ما أعطى من عمل حقيقي لوظيفته، وأنه يحرم عليه منه إلا بقدر ما أعطى من عمل حقيقي لوظيفته، وأنه يحرم عليه منه بقدر تفريطه وتقصيره، فهو على ذلك تعاقب وأحر نفسه، والوفاء بالعقود واجب، قال تعالى ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة ١]

لأنه لم يوصل إلى الخدمات اليومية المعتادة في الإدارات من شعاعيات ووحدات ووسائل ومعارف، ومن لا يقدم بين يدي طلبه شيئاً من ذلك لا يفتح إليه، ولا يؤبه به، وهكذا يفعل التخلف، وضعف الإيمان، وعزله عن السلوك، وغيث القلوب الرادع، والشعور بالنقص فعلة في إفساد أخلاق الناس ومصالحهم، وبطام حياتهم، والروح بهم في معاناة يومية، تأكل طاقاتهم وأموالهم وأوقاتهم وحساساتهم، وتشدهم إلى تحبب بعض، في الوقت الذي احتفت فيه هذه المفردات الواسطة والشميع والمحسوبة من قواميس الإدارة في البلاد المتحضرة، ليس اختفاؤها ديانة، ولكن لاحترام القانون، فصم الجميع الوصول إلى الخدمات والحقوق دون عداء، ومن أقصر طريق، ووجهوا طاقاتهم وأوقاتهم وجهودهم الصائفة عند غيرهم إلى عمل ما يفعهم ويقع الناس، فمتى يفتق المسلمون، ويدركون أن في إيمانهم حقيقة مفقودة هي السلوك^(٢)

(١) حاشه ابن مكي ١٢٢/١

فتن كقطع الليل

حاء في الصحيح عن النبي ﷺ «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فَإِنَّا نَقْطَعُ اللَّيْلَ الْمُظْلِمَ بِضُحَى الرَّجُلِ مُؤْمِنًا وَيُؤْمِي كَافِرًا أَوْ يُؤْمِي مُؤْمِنًا وَيُضْحِي كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١)، وقال ﷺ «يَتَأَمُّ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُخْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرَهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوُكْبِ ثُمَّ يَتَأَمُّ النَّوْمَةَ فَتُخْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرَهَا مِثْلَ الْمَجَلِّ كَجَمْرِ دُخْرَجَتِهِ عَلَى رِخْلِكَ فَتَقِظُ فَتَرَاهُ مُشِيرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ فَيُضْحِي النَّاسُ بِبَيِّنَتِهِ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيَقَالَ إِنَّ فِي بَيْتِي فُلَانٌ رَجُلًا أَمِينًا، وَيَقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَغْفَلَهُ وَمَا ظَرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»^(٢)

الفس جمع فتنة، وهي ما ينلئ به الإنسان ويختبر به في دينه، وقد شبهها النبي ﷺ لكثرتها وتدحسها وتعاقبها بقطع الليل المظلم، وبأنها تموج كموج البحر، وأنها تُعرض على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فهي ملحة متكررة متعاقبة، تسد الألف كإطلام الدامس وتعمر الناس كما يعمرهم البحر لا يسجو قلب من العرض عبيد، والساحي من طودها قليل، من الناس من تأخذة أحذة واحدة، ومنهم من تنكت في فمه نكتة صغيرة، ثم لا تزال تكبر وتفسد، وتعفن حتى يصير القلب أسود مرئدًا، لا يعرف معروفًا، ولا يكره مكروهًا، ومن عصمه الله تعالى منها أنكره، فحرج على قلب أبيض مثل الصفا، كما أحبر النبي ﷺ وفيما يلي نماذج من هذه الفس الممتعة المتكررة في أيامنا التي لا يُتغلب عليها إلا سلاح الإيمان

فتنة الاعتقاد

فتنة العقيدة هي أشد الفتن، وإن كان في غيرها ما يؤدي إليها، وهي أنواع، وعدائ ما تكون دواع فرى وطوائف وأحزاب تنكت سواء السبيل، وهي كثيرة تراند أهميتها على السعير، كما أحبر النبي ﷺ، الساحي منها واحدة، وهم من كان على مثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه، وسلف الأمة، إذ لا يشك أحد في أنهم من الطائفة الدحية، المرحومة، الموصى عنها من ربها، ومن كان على طريقهم كان ناجيًا مثلهم وما عدا سيدهم من لسل، مما تسمى باسم أحر اقرب منهم أو تباعد، فاتباعه هو من الفتنة

(١) مسلم حديث رقم ٦١٨

(٢) سنن أبي داود حديث رقم ٦٤٩٧

في العقيدة، وقربه من رحمة ربه يكون بقدر قربه مما كان عليه سلف الأمة، وبعده عنها بقدر بعده عنهم، فمن شاء أن يسدد ويقارب فليسدّد، ومن شاء أن يباعد ويبعد، قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَسْبَاطَ قَوْمٍ لَفَنُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام ١٥٣] والناس عن عقائدهم لا يترحرون، وهم بها فرحون، مهما كانت باطلة أو ناقصة، كما أخبر القرآن ﴿كُلُّ جَرِبٍ بَمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونُ﴾ [الروم ٣٢]

مهم العلماء الذي يأخذ من الدين ويترك، ويرى في تحكيم شرع الله وحكمه تحقّق ورجوعاً إلى الوري، ومنهم المفرط المحرف للكلم عن مواضعه، المؤول لوضح دلالات لقوان، المنكر لبيان السنة وتشريعها للأحكام، ومنهم المتشدد المكفر لعامة المسلمين، أو المفسق لهم والمدع، كما كان حال الحوارج، ومن يهيج بهجهم، وقربهم، ومنهم المنتسب المعصر للصحابة، الذين زكاهم القرآن، المدعي حبّ آل البيت، أو المتعلق بالتفسيرات الباطنة للشرعة، المعرض عن طواهرها التي بيها النبي ﷺ بأفعاله وأقواله وتقريراته، ومنهم من يجعل لتدين باطناً وظاهراً ويجعل لنفسه الحق في تقسيم أمر الدين إلى حقيقة وشرعة

وبالجملة فكل الفرق والاتجاهات الفكرية والعقائدية في العصر الحاضر هي فروع صرست بنصّة ممتدة ومنعت من أصول أسلافها القديمة (سأنة، أو حارحية، أو معرلة، أو جهمية، أو شيعة رافضة، أو باطية، أو إناصية إلى غير ذلك، وإن لم تنسب بتلك الأسماء) وسيل الله تعالى واحدة، وما عداها فهو من السبل التي أحرر القرآن أنها تفرق عن سبيل الله، فمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال «قَالَ خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا يَكُونُ، ثُمَّ قَالَ «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا، قَالَ ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ «هَذِهِ السُّبُلُ، وَلَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ «وَلَا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوا وَلَا تَتَّبِعُوا أَتَّبِعُوا﴾ [الأنعام ١٥٣]

الافتتان بالأضرحة

ومن فئة العقيدة المنتشرة في بلاد المسلمين شرقها وغربها، الفئة بالأضرحة وكراماتها، والأكل باسمها والتعيش عليها، وجعل أعياد سوية لها تشد إليها الرحال، وتدبح عذبة القرائين، وتلتبس عذها الحوائج، مع الزعم أن من حضرها عفرت ذنوبه، وأعطى سؤله، وقصيت حاجته، وشفيت مريضه، وفُرجت كربته، وحُلت

صانفته، إلى أحر مما لا يقدر عليه إلا الرب تبارك وتعالى، ولم يعط قط لمحجوب، بل ردوا على ذلك عجباً، فجعلوا لها تخصصات كتخصص العيادات الطبية، الفسري العلاجي لمرض الرأس والصداع، و(الشقيقة)، وأحر لمرض العين، وأحر (لريشة) وأحر تذهب إليه إن كسب تريد العمرة أو الحج، إلى غير ذلك من الخرافات والكذب الذي لا يصدق شرع ولا عقل قال تعالى في حق رسوله ﷺ ﴿قُلْ لَا أَمِيكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَمَا مَسِّيَ الشَّيْءُ﴾ [الأعراف ١٨٨]، وما لا يملكه الرسول ﷺ لنفسه لا يملكه لغيره، فقد قال ﷺ لأهل بيته «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بِنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمِيكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ»^(١)، وإذا كان هذا في حق رسول الله ﷺ في حياته فكيف بمن دونه من الأموات؟! هذا من جهة الشرع، أما من جهة العقل، فإنه إذا كان هذا أو ذاك من الأموات قادراً على شفاء مريض، فلم لم يشف نفسه من المرض، وهو حي، فدفع عن نفسه الموت؟

فتنة اللسان

من فتنة القول أن الناس لا يؤاخذون أنفسهم بما تنطق ألسنتهم ولا يحاسبونها، وقد تكون الكلمة كبيرة من موقفات الذنوب، أو تستلزم الشرك، يكررها الدس ويألفونها في حياتهم، ونعيش معهم، «يُضَيِّعُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُنْسِي كَافِرًا أَوْ يُنْسِي مُؤْمِنًا وَيُضَيِّعُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(٢)، كما أحر النبي ﷺ، وفي قوله يبيع دينة عرض من الدنيا إشارة إلى أن من هذه الفتى ما يؤدي إليه الطمع والتمنى لمن عده الدنيا، فيرضيه بكلمة تأخذ منه دينة، مقابل عرض من الدنيا

يجلس الرجل عند من له إليه حاجة، فيجده يتكلم بما لا يجوز؛ يبيع الحرام، ويمدح الباطل، أو يخوض في آيات الله بغير حق، أو يطعن في الشرع باختراعات من عده، فيجمله عليها لأجل حاجته عده، فيبيع عرضاً من الدنيا بدينة، قال تعالى ﴿وَلَوْ رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي بَيْنِنَا فَأَنْعَضَ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَبِيبِ عَرِيَّةٍ﴾ [الأنعام ٦٨]، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا عَلَى كَفَرٍ أَنْ إِذَا جِئْتُمْ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ

(١) مسلم حديث رقم ٢٠٥

(٢) مسلم حديث رقم ٦٦٨

بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَرِيبٍ إِنَّكُمْ إِذَا يَشْتَمُونَ ﴿١١٠﴾ [النساء ١١٠].
 وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْمَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ
 وَالْمَغْرِبِ»^(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُوهُ هَيَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور ١٠].
 «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ
 أَلْسِنَتِهِمْ»^(٢)، فِيهَا بَعْضٌ مِنْ فَتْنَةِ الْقَوْلِ

فتنة الانقياد للشهوات

أما فتنة الانقياد إلى الشهوات ومد العيش إلى زهرة الحياة، فكما فتح على الناس
 من الدنيا ورحلها، فتح عليهم منها باب حديد، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى
 مَا مَتَّعَتْ بِهِ دُونَنَا مِنْهُ رَهْرَةً فَالْجُودُ الَّذِي بَقِيَ مِنْهُ﴾ [طه ١٣١]، فتنة جمع المال، وكسبه
 وتصريفه، فتنة النساء وما أكثرها، إغراء تقليد ما ينفع وما يضر، إغراء في الناس
 والريثة، والتبرج، والاحتلاط، والحروج لحاجة ولغير حاجة، والمرأة راحة،
 وأحب وأم، فما يقع للأاعد منهن يقع للجيران، وما يقع للجيران يقع للأحت
 وللمروحة، فبما أن يطيع الرجل روحه وأهله في رعاتهم، وهي لعب ولهو ورسة
 وتصحر وتكاثروا، وإما أن يكون غريباً مسوداً شاداً معرولاً، وما عساه أن يقدم اليبر،
 وهذا من الفتنة في الأهل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوَلكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ بَعْدَهُ أَخْرُ
 عَظِيمٌ﴾ [التعين ١٠]

اليوب الف سماع العناء، وتصنيع الساعات الطويلة أمام الشدائد الصغيرة،
 والمسسلات لى لا يرى فيها مهما اختلفت أسماؤها إلا مصمون واحد، تشرك فيه
 على تدبيل أهدافها وتخصصاتها. هو استهلاك الوقت والافتتان بالديب، ومديب
 الحياة وشهواتها، وإشراقها في القلب، حتى تملك على المرء نفسه، فيصيح وبسم
 عبيها، ولا يفكر في غيرها، ولا في الحصول إلا عليها، ليزل بعد ذلك العالي
 والنميس في اقتداء تلك العاديات، والحصول على تلك الشهوات، والحنق بأحلاق
 أهله، والنشبه بهم في لباسهم، وفي كلامهم، وفي سلوكهم، وفي اهتماماتهم
 السيئة، فيبدأ أحسن ما عنده للحصول على أحط ما عندهم

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٨٨

(٢) مسر سريحي حديث رقم ٢١١٦

يبد العرس والشرف، ويبدل الدين والعروة، كل ذلك لتوصل إلى بعض ما أشرته نفسه من الفتن، التي يمسى ويصح عليها، والحصيلة كلها اثر سيئة، أهونها ما تورثه من قسوة القلب وبلادة الحس عند المسلم، والتعلق بسليات الحضارة العربية، بتقييد أهلها في كل ما يفسد الأخلاق ويعلم الجريمة ويرفع الحياء الأم والسات يلبسن القصير والعاري، الذي يكشف الصدور والأكتاف، والأساء داخل البيت مع الأحوات غري الأفخاذ، في لباس قصير محدد، ترر منه العورة المعطرة، بل يحرحون بذلك الناس إلى الطرقات مع القعة على الرأس، تطبيقاً لما ألفوا رؤوه من حلال الشائت على واقع حياتهن، ومن لم يصل إلى هذا المستوى في الناس العاري، فهو لا يزال متخلفاً!!

الكيس لا يعطى الفرصة لهذه الشائت الصغيرة في السبب تسرى وقته ووقت أسرته وأطفاله، وتفسد أخلاقهم وسلوكهم، بل يراقبها بحذر، فلا يأخذ منها إلا ما كان محقق لنع، وهو قليل قليل

لأن حر من الفتن، حفلات النساء في الأفراح وأسوع المواليد في الصالات، وفي المادق بالمقوى العائنية بألاف الجنيهات - يحضرها النساء كاسيات عذبات، يخدمهن ولدن وشباب من مختلف الجنسيات، والعتديات يشترطن عند إقامة هذه الحفلات أن يقوم بالخدمة فتيات، وينسبن الإسراف والتهاوي والتجسس والنصص (بالكمرات) الخفية السرية، والظاهرة العلنية، الذي لا تأمه المرأة في مثل هذه الأماكن!!

رب البيت الذي جعله الله تعالى راعياً في أهل بيته ومسئولاً عن رعيته، إن سبس له قيدهم، واتقوا الله تعالى وأطاعوه، وميروا بين ما يفعهم وما بصرهم، فيحمد الله، وهذا هو النادر المستثنى من القاعدة ومن كان على القاعدة والأصل الذي عليه عامة الناس، فإنه إن أراد السلامة ونصح لأهل بيته كما أمره به، ففرص عبيهم داب الإسلام وشرائعه، ومنع عنهم عوائل الشيطان ومصلاته، في ماكنهم وميسهم، ومدخلهم ومخرجهم، وتعليمهم، وحلهم وترحالهم، وترويحهم عن أنفسهم وقضاء أوقاتهم عاش عرة بينهم، واحتاح في مجاهدتهم عن الحق إلى محادثة العدو ﴿يَتَأْتِيهَا الذبِكُ غَافِلًا يَكُ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأُولَئِكَ عَدُوٌّ لَكُمْ

فَأَعَدُّهُمْ ﴿التعاب ١٤﴾، وإن تركهم على ما يهوون هناك وهتكوا، فإن الله تعالى مسئله عن رعيته

ومعنى كونه مسئولا. أن الله سيوقفه للحساب ويسأله عن أهل بيته، هل يدل لهم من الرعية والوقت والصبح والتربية منذ أن ولأه الله تعالى عبيهم ما نعمهم الفضل، وشرع الدين وسس المسلمين، أم تهاون وفرط، وترك الحل عبي العادب، وقضى معظم وقته خارج البيت، في الريارات والحكبات، ومؤاسسة الأصحاب، واللهو والمعب، حتى استفحل الداء، وكر الأساء على سرقه الجيران، وتعاطي المحذرات، وترك الدراسة، ومصاحبة أهل السوء، واتسع الحرق على الرقع، ووحد نفسه عاجزا أمام طوفان حار، وانحراف واضح، ومن سلاحة أضسه كما أصلب غيره

تربية أهل لبيب ورعايتهم، وتفقدهم المتواصل الدائم عادة، يؤجر عبيها ولي أمرهم، وأي عادة بطاع الله تعالى بها، وتكون سببا في دخول الجنة، وتدل بها أعلى الدرجات، لأنها من العمل الصالح الذي لا ينقطع إن أحسها وأعطاه حقه، وهي مقدمة على السنن والفصائل، ولو كانت عبادات محصية، كالأدكار والمسابك المدونة؛ لأنها حق واجب عليه، ولا يفرض في الواجب، يأتي بالسلس والمدود إلا السطل العطل، ومن بعد عن الفلاح جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، فَصَبَّرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَأَسَهُنَّ مِنْ جِلْدِيهِ كُرَّ لَهُ جَنَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وقال ﷺ «... فَإِنَّ لِحَسْبِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنْ لِمَيْدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنْ لِرُوحِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنْ لِرُزُوقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢)، وفي حديث مسدد «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَاعْطِ لِكُلِّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ»^(٣)

غربة الحق

معنى ما جاء عن النبي ﷺ في الفتر أن الساعة لا تقوم حتى يأتي عني الناس

(١) سنن أبي ماجه حديث رقم ٣٦٦٩

(٢) البخاري حديث رقم ١٩٧٥

(٣) البخاري حديث رقم ١٩٦٨

رمان لا يعرفون معروفًا ولا يكرهون مكروهًا^(١)، وأنه ترجع للدين عرته كما بدأ، ويصح القصاص على ديهه كالقصاص على الجمر يستهجر الناس عمنه، ويكره تمسكه كل من حوله، حتى أهله وحيرانه ودويه، فإن صعوبة أن يحمل الإنسان على الحق أهل بيته وحيرانه ودويه، أتت من جهة أنهم لا يكرهون ما أنكره، ولا يستحسنون ما استحسسه. انقلب الموازين واحتلت المعايير، صار المكروه معروفًا، والغريب مألوفًا، والحياء والفصيلة عجزًا وحمودًا، والاحلال تحررًا ورقيًا، والصدوق والأمانة عفة وبلاهة، والكذب والخلف دكاء وقطة يقولون عن أنفسهم أليسوا هم مثل الناس؟^(٢) فم لتقيد والانصا، والتحفظ والحرم وحياء الجد؟ على حين أن حياء الحيران، والأقارب والأصحاب لهو ولعب، والاحلال والطلاق بلا قيود، ما قدروا عليه بإمكاناتهم قدروا، وما لم يقدروا عليه وصلوا إليه بإمكاناتهم الألفة الذكر، شتم الدين، وندب العرض، واستعمال مهارات العصر، فما المانع أن نكون مشهم^(٣)

التقليد الأعمى (زِي الناس)!!

كلمة شاع على الأفواه، ليس مثلها في اقتحام الشر وتبريره لفظ، سلاح فداك يبرره المحظنون أخطاءهم، فدا قيل لأحدهم كيف تفعل هذا؟ مما لا يشك هو نفسه في فساده وإفساده، قال: (زِي الناس) ليس أضل ممن عمى الله قلبه، وأضل معيه، فأعرض عن قول ربه، وهدى نبيه ﷺ، واحتج على إغراضه عن ربه بعمل الناس الساطل، وضلالهم الفاسد، قال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَجِيَةٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، وقال سبحانه ﴿مَنْ عَمِلْ خَيْرًا فَلْيَنْتَظِرْ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال ﷺ ﴿لَا تَكُونُوا إِمَّةً، تَقُولُونَ: إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسًا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تُحِينُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا﴾^(٤)

(١) معنى حديث رواه أحمد في مسنده حديث رقم ١٩٢٥

(٢) من الترمذي حديث رقم ٢٠٠٧

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

من شعب الإيمان

فرائض وسنن مضيعة:

عمدة الناس يعرف من الإيمان كلمة التوحيد، والميم بعض الفرائض كالصلاة ولصيام والحج، ويجعلون ذلك هو الإيمان والدين الكامل! كم في الدين من فرائض غير هذه لأركان مضيعة، يفعل عنها المسلمون! وكم فيه من سنن وآداب هي من العمل الصالح، يزهد فيها الزاهدون!

لا يجوز الإقدام على عمل حتى يعلم حكم الله فيه

من الفرائض المضيعة، التي تسى عليها صحة كثير من الأعمال أو مصادها في حياة الناس، مع العمى عنها، أنه لا يجوز الإقدام على أمر حتى يعلم حكم الله فيه الشائع في الناس اليوم أنهم يقدمون على الأمر الذي لا يعرفون حكمه في شرع، ما دم معلوم الكسب، راح الصفقة، ما دامت تروح إله العس ويشتهه الطمع، أو نحوه النساء، ويرعبه الأهل، وبوافق الأعراف والعادات، ولا يحظر العمل بهذه القاعدة على البال

الإقدام على العمل قبل معرفه حكمه يترتب عليه معاصد لا نحصى، يترتب عليه أن الإنسان قد يمضي أعماراً وأعواناً من عمره لتحل الحرام، أو يحرم الحلال، أو يبدع ما ليس بدعة، ويكر ما هو سنة، قد يعقد العقود الفاسدة، ويأكل أموال الناس بالثم ولطيل، أو يسكر ما لا يجوز إنكاره، أو يفتق ماله وجهده في معصية، بطيئة قرينة وجهاداً وطاعة، يعتقد أنه يحسن بذلك صنفاً، وهو من الأخسرين أعمالاً، الذين هل سمعهم في الحياة الدنيا، وقد يعرض نفسه للمحنة مما يحبه سنة، على حين أن

المحنة أصابته من جهله بالسنة تمضي السنون وهو على ذلك يصرب في عبادات وأخطاء، عقائد باطلة، أو معاملات فاسدة، أو عبادات محتنة، حتى ألف ما هو عليه، فإن حاول منه تصحيحاً لعصر ما أله، ورافق سني عمره هذا الأمد الطويل، سمعت عجباً، كأنك تأتيه بدين حديد ولسان حاله يقول ما سمعت بهذا في الأمة الأحررة، وهذا تكسر الخطورة، فالبدعة عنده أصبحت ديناً، وفطم الناس عما يألفونه دون الصعاب والشدائد، وبحب الجبال بالأظافر أهون من تحويل صاحب بدعة عن معتقده كما يقولون

النصح في الدين من الإيمان

النصح في الدين من الأمور التي كان رسول الله ﷺ يأخذ عليها البيعة، كما يأخذها على عقد الإيمان، ففي الصحيح من حديث جرير بن عبد الله البجلي، قال «دبعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»^(١)، والنصح ضد العش، ومعناه توحى ما ينفع الغير، ويصلح به أمره في دينه ودينه، من قول أو عمل، في الأمور الناطقة، والظاهرة، فالناطقة كحب الحير والمودة للمؤمنين، وفي الحسد ولعصر والكرهية والتكر عليهم، والظاهرة، تنحذيرهم مما يصرفهم وإرشادهم إلى ما ينفعهم، وكف الأذى عنهم باليد واللسان

هذا هو معنى النصح لعاد الله الواحد على عامة الناس، الذي كان حرماً من بيعة الإيمان، ولا إحالك واحداً في قانون الشر قاعدة في التعاضل أشمل للحير، ولا أسعد لغير، من هذا المعنى الذي دلت عليه كلمة النصيحة، فهي تقي بما يجب للمسلم على المسلم من حقوق وما يربح فيه من اداب وسلوك، وتعد كل تقصير في حق الغير، من قريب ذي رحم، أو حار أو أحم في الإسلام عتياً، ونقص لجزم من البيعة على الإيمان والنصح المخاطب به كل مسلم هو النصح لله ولرسوله ولكونه ولدينه ولعامة المسلمين

النصح لله

النصح لله، يكون بتوجيهه، وتربيته، والاستسلام إليه، والالتقاء له، والإيمان

(١) البخاري حديث رقم ٥٧

والحضور لأمره، والتحاكم إليه، وإحلاصه وحله بالعادة دون سواء، وعادته بما شرع من الدين، لا بما تحبه النفوس وتهواه، ومحبة وتقديمها على النفس والأهل والمال، وتطبيق ذلك كله قولاً وعملاً واعتقاداً، بحيث إذا حكم الله بحكم وقف المسلم عنده، وامثله وطقه على نفسه، وألزم به أهله وبيته، ولا يعداه إلى غيره، فالصالح له ثمرته الإيمان والعمل الصالح اللذان هما الطريق إلى رضوان الله والسعادة في الأولى والآخرة

النصح لرسول الله ﷺ

والنصح لرسوله ﷺ يكون بالإيمان سوته، وتصديقه في كل ما جاء به عن ربه، والشهادة له بالرسالة، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأنه أكرم الخلق على الله، وسيد الأولين وآخرين من عباد الله، في الدنيا والآخرة، والتمرام طاعته فيما أمر به ونهى عنه، وموالاته من والآله ومعاداة من عاداه، وتوقيره وتعزيته ومحبة وتقديمها على النفس والمال والأهل، ومحبة آل بيته، وتعظيم سنته وإحيائها بعد موته بالنفقة فيها، والذب عنها، والعمل بها، وشرها، والدعوة إليها، والتحنن بأحلافه الكريمة، واعتقاد أن كل حسنة وحير وفلاح يفعلها أحد من هذه الأمة، هو سيئه ومصدره والداعي إليه، فله من الخير مثله من غير أن ينقص من أجور العامين من أمته شيء والنصح لأئمة المسلمين بطاعتهم في الحق، ومعاونتهم عليه، وتذكيرهم به

النصح لكتاب الله

والنصح لكتاب الله، يكون بالإيمان به، وتحسين تلاوته، وتدبر سوره، وتوقيره وتعظيمه، والحاكم إليه عند الشارح، وحمل نصوصه على الدلالة الواضحة الصحيحة، لئى تحمل عليها ألقاظ الشارح دون تحمل وتكلف، أو تأويل فاسد وعند اختلاف الدلالة وقابلية الاجتهاد، يقدم الفهم الذي عليه حير القرون، الدين شهد لهم رسول الله ﷺ بالفصل والخير

وأهل العلم في هذا أعظم شأنًا من غيرهم، فإنهم المعيون بهذا الأمر، كما قال تعالى ﴿سَيُنْزِلُ الْغَائِبَاتِ وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران ١٨٧]، وأشد من كتمان العلم، تحريف الوحي وتأويله على غير وجهه، فمن حرف كلمًا عن مواضعه، أو أوله على غير وجهه ليدى، أو هوى في نفسه، كان ممن لا حلاق لهم في الآخرة، ولا ينكسهم

الله، ولا ينظر إليهم، ولا يركبهم ولهم عذاب أليم

النصيحة الملقاة على كاهل العلماء

من الإيمان أن يصح أهل العلم لدين الله، ويرهوه عن الأقوال الداطنة المداغمة لما بعث الله به رسوله من النيات والهدى، وأن يفتوا الناس بالصحيح من الأقوال، ويحسموه على الحق، ولا يوافقوهم على جهالاتهم وأخطائهم وأهوائهم، فيكسبهم موافقتهم إياهم على باطلهم بحصوره معهم، وإقرارهم عليه، أو الدعوة إليه مشروعية في أعين الناس، يصلون بها كثيرا منهم، وبدلت بحسب أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم، قال تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِسَافَةِ وَمِنْ أَوْزَرِ الَّذِينَ يُفْتَلُونَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِسَافَةِ مَا بِيَازِهِمْ﴾ [التحل ٢٥]

ومن من في الإسلام سة سيئة فعلية وررها وورر من عمل بها إلى يوم القيامة، وكل من هو مسوب إلى أهل العلم ويقتدي به الناس مع أن يصون نفسه عن حضور الشهاد، لله المخالفات والمحرمات، ولا يتأول له من المحارج ما يتأول لغيره من العامة؛ لأنه يمثل الشرع الشريف، وهو قدوة المسلمين، فإنه أحق من يتبره ويأبى نفسه عن بدله في كل موطن، لأن الله ﷻ احتاره واصطفاه لحمل شريعته، وتبليغ دينه، فليحذر الصواب والأحوط في أقواله وأفعاله، فإنها عند الناس القدوة والشرع

لا يسعى لمن علمهم الله علما أن يجاملوا العامة في أعمالهم الحاطنة، ومعتقداتهم الفاسدة فيقروهم عليها، ولا أن يبرروا للمجتمعات، متمدة كدت أو مخرقة، حروحها عن أحكام الشريعة، تحت ضغط تعبيرات العصر، ومتطلبات المدينة، أو دفعاً لهمة التحلف، التي لا ينفك أعداء الإسلام عن رمي المسمين بها، ليسخنهم على الاقتراب من مفاهيمهم المخلطة، وشعاراتهم غير الدينية، تحت مدأ اليسير ورفع لجرح، أو التأويل للنصوص بما يلائم العصر، أو اسدداً إلى إراء في الفقه متأخرة، خلطت العقائد والتعبيرات بكثير من الخرافات، في كتب تحتاج هي ذاتها إلى تمحيص وتحقيق، لمرارة ما حاء فيها، ومحالفة لما تصدرب عليه النصوص، وما فهمه منها الأولون، وما دبو به في الكتب المتقدمة، خصوصاً أن كثيراً من هذه الأراء المتأخرة صدرت من أصحابها في عصور اتسمت بالركود العلمي، وشطط فيها الحرافات في المعتقدات، وانتعد الناس فيها عن صانع التشريع، وما

كان عليه الأئمة المتقدمون الأعلام، فلا يجوز التعلق بما جاء فيها، والإعراض عما سواه من اليباب الواضحة في هدي حير العباد، وهدي حلقائه وأصحابه، وأئمة الدين الذين هم يقتدى، والنقل عنهم صحيح بالسند المتصل فالأخذ بمثل هذه الآراء والأقوال العريضة المتأخرة في مقابل ما ذكر من النصوص الواضحة المسددة خصوصاً في مسائل العقائد من أعظم الخطر في الدين

والعقل من عمة الناس من التجار والعمال والصناع لا يفعل ذلك في مسألة من أمور الدنيا، والخطب فيها هين، إذ لو عرض له أمران أحدهما مأمون السلامة، والآخر يحتمل السلامة والخطر، فإنه لا يرضى لنفسه إلا بصفة مأمونة، فكيف بأهل العلم الذين نصرهم الله تعالى بدينه، وأخذ عليهم الحيثاق ﴿لَيَنْتَهِنَنَّ بَنَاتٍ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران ١٨٧]، كيف يتركون الواضح المنقول بالسند الصحيح عن المعصوم، وعن حير القرون، إلى أقاويل متأخرة، مخالفة لهم؟ ليس فيها لنفسي بها رواية ولا إسناد^(١)، ولا تدري ظروف أصحابها عند صدورها عنهم، ولا ما إذا كانوا قد تركوها أو أقاموا عليها، ثم هي بعد ذلك قول من لم تثبت له عصمة، يؤخذ من قوله ويترك

والواحب علي من أعطاه الله تعالى علماً أن يذل النصح للمسلمين، لا يذكر على ما علق بمعتقداتهم وعاداتهم من مخالفات، وتسيبهم إلى ما نحن معدلاتهم وعقودهم من فساد، لا يقرأهم عليها، والبحث لهم عن المبررات والمعددين، فهو داعية إلى الله ورسوله، وأولى الناس بالنصح لعباد الله، ورسالته إحقاق الحق، ودعوة الناس إليه، وتصحيح عقائدهم وأعمالهم ابتغاء رضوان الله تعالى، وليس مؤولاً يؤول لنصوص، ويبرر الأخطاء، ويبارك ما تهواه النفوس من العوائد والتقاليد، فإن رصا الناس غاية لا تدرك كما يقول الشافعي رحمه الله «فعبث بالامر الذي يصحح فالرمة، ودع ما سواه ولا تعانه» ومن اتلى بقوى فأول ما يبدأ به نفسه فيحذرهما، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرَٰثَوْهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ٦٤]، كتبت عائشة إلى معاوية رضي الله عنه «سلام عليك، أما بفد: فإنني سمعت

(١) من قبل لا تدري من وشهره به الكتب إلى أصحابها أعب عن رويته ولا إسناد، هذا هو الصحيح.

وكرر ذلك لا يتم إلا بعد التحقيق ومقابلة المطوع بها على مخطوط محمد

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَنْ التَّمَسَّ رِضَاَ اللَّهِ يَسْخَطِ النَّاسُ كَفَاءَ اللَّهِ مُؤَنَّةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَاَ النَّاسِ يَسْخَطِ اللَّهُ وَكَفْلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ^(١)

واحب أهل العلم أن يحملوا العامة على الحق، ويسكروا عديهم جهالاتهم، ويدلوا جهدهم في تعليمهم لتصحيح أعمالهم، لا أن يمرعوا وسعهم في الاعذار لهم، والمحتل لتصحيح أخطائهم وعمل من يفعل ذلك عمل العاشر غير الناصح، المفرط فيما أوثمن عليه، كالطبيب الذي يطمئن المريض ويوهمه أنه صحيح لا يحصح إلى دواء والداء في أحشائه يسري، حتى يقصي عليه^(٢)

تحري الفتوى بصحيح الأقوال

من الأمانة لعلم ألا يأخذ العالم بالتسليم كل ما يجده في كتب المتأخرين، فإن فيه الحق والباطل، والعت والسمير، وليعرض ما وجده في هذه الكتب من كل ما هو من الدين، ويتقرب به إلى رب العالمين، يعرضه على ما فهمه الأولون والأئمة الذين يقتدى بهم من سنن الإسلام وهديه، يأخذ به، ويترك ما تركوه، فإنهم كانوا أكثر الناس عتاً وأقلهم تكلفاً، وأبعدهم عن الخرافات والإحداث في الدين، وألزم بقوى الله تعالى، وهدي رسوله ﷺ من غيرهم، فأصول العلوم الشرعية عن عهدهم قد دوت وأسس، وما أتى به من بعدهم فهو تسيط وتوسيع لما قعدوه ويبين على ما هم أسوء، ويبين لما أحملوه، وما حالقهم أحد في شيء يقول على مخالفة

وما حد من النوازل لا يسمع من النظر فيه، لكن ينظر فيه على طريقة المهتدين المبهدين، طريقة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فيما جد عليهما، كان أبو بكر رضي الله عنه إذا حد عليه أمر ينظر، فإن وجد فيه لرسول الله ﷺ حكماً حكماً به، فإن لم يجد جمع ما كان معه من الصحابة ومشايرهم فاجتهدوا. وعمر كان يعرض النازلة على ما حكم به رسول الله ﷺ، فإن لم يجد له فيها حكماً، نظر هل حكم فيها أبو بكر شيء، فإن حكم بها فلا يتعدى حكمه، فإن لم يجد جمع من معه من الصحابة واجتهدوا هذه مسيرة من أمرنا رسول الله ﷺ بالافتاء بهم، فينعي لمن تأخر عنهم أن يستد

(١) الترمذي حديث رقم ٢٤١٤، وقد اختلف الترمذي في وجهه ووجهه. وصحح من حاد تحديث مروغاً، نظر

تحفة لأخوتي شرح حديث رقم ٢٤١٤

(٢) انظر الملو في السير، مؤلف من ٥

مستكملهم، فينظر فيما فهمه أهل القرون الأولى في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما له تعنى بالدلالة باستنساخ أو تخريج عليه، فلا يتعداه، خصوصاً إذا اتفقوا، كما في مسائل الاعتقاد، فالمجاة لا تكون في اتساع غير سيلهم، فإنهم الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالفصل، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ التَّوْحِيدِ لَأُولَٰئِكَ مَا تَأْتِي وَتُعْصِيه جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء ١١٥]

النصيحة المطلوبة من عامة المسلمين

والصالح لعامة المسلمين المطلوب من كل مسلم أن لا يظلمهم ولا يسمهم، ولا يعصهم ولا يحسدهم، ولا يعشهم، ولا يخونهم، أو يتخونهم، ولا يعسهم، ولا يعتد بهم، ولا يشهد عليهم برور أو كذب، ولا يدعى عليهم باطل، ويوصل إليهم حقوقهم، ولا يجحدوا، ويعين محتاجهم، ويرفق بصعيبهم، ويصبر مطبومهم، ويعود مريضهم، ويعفو عن مسيئتهم، ولا يقطع لهم رحماً، ولا يؤدي جازاً، ويدعو لهم بظهر الغيب، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويبدأهم بالسلام، ويصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عن ظلمه هذا بعض النصائح للمسلمين التي قدس به إيمان المؤمنين، وهو من حصال الإيمان وشعنه، انظر كم فيه من فرائض مصيبة، ومن مهجورة، وكان الكلام عليها صار ضرباً من الخيال، لعدده عن واقع الناس الذين جعلوا الفرائض لا تتعدى أركان الإسلام الخمسة، إلا من رحم ربك

الحب في الله والبغض في الله

الحب في الله هو محبة أحد لصفة فيه تقرب إلى الله تعالى، كاتصافه بالإيمان والتقوى، أو الصديق والعمل الصالح، أو لعلمه الذي يرجئ به هداية الناس ومعهم في الآخرة. والحب على هذا الوجه من الإيمان، وهو راجع إلى محبة الله تعالى ورسوله، فمن أحب أحداً لهذه الصفات، فإنما أحبه لأجل الله، وذلك من طاعة الله ﷻ

وكل مسلم مأمور بمحبة الله ورسوله ﷺ، ومحبة المؤمنين ممن كان عنى صفة من صفات الإيمان والعمل الصالح، سواء كان حياً أو ميتاً، فمحبة الأموات من الأسيء والصحة والتعين والعلماء والعاد الصالحين، واجبة كمحبة الأحياء من أهل الإيمان والطاعة ومن أحب المرء لا يحبه إلا لله وجد حلاوة الإيمان، وكان ممن

يطلبهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ومن أحب مسيماً لإيمانه وطاعته في الله لا شيء آخر، قال له الملك إني رسول الله إليك بأن الله أحسن كما أحسنه فيه، كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ^(١)

وكما يجب الحب في الله يجب العص في الله، وانترك في الله، فمن أحسنه لطاعته واستقامته ونفعه لعاد الله بما يعود عليهم في صلاح دينهم، عليك أن تبعض غيره في الله لمعصيته وظلمه وتفريطه ويعطى كل مسلم من المحبة والعص بقدر ما فيه من خير أو شر، فالمسلم لو لم يكن فيه إلا الإيمان فإنه يُحب لإيمانه ويصبر لإيمانه، ولا يجوز حذلاته وموالاة الكافر عليه، فمن فعل ذلك يوله الله تعالى ما تولى ﴿وَمَنْ يُوَلِّمْ يَنْكُرْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ [المائدة ٥١]، وهو وعيد شديد أكده الله تعالى في آيات كثيرة من القرآن، نفى فيها الإيمان عن ماصر كافراً عنى مسم، أو أئده عليه وتولاه والتأيد المعنوي أو المادي أو الانضمام إلى حلفه وجره بما يقوي شوكته ويسيطر بهوده وشره قال تعالى ﴿تَرَكْنَا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَ مَا قَدَّمْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة ٨٠]، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة ٢٢]، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة ٧١]

ويبعض المسم لعصيانه وظلمه بقدر ما فيه من ظلم وعصيان والعص يكون بالقلب، ويكون بالفعل والهجر والأصل في الهجر والعص للمعصية حدث الثلاثة الذين تحننوا عن عروة توك، فإن النبي ﷺ أمر بهجرهم وترك كلامهم وسد لهم حتى صاقت عليهم الأرض بما رحبت، قال تعالى ﴿وَعَلَّ أَلْثَلَاثَةُ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة ١١٨]، ولكن الهجر مشروع بقدر ما يوقع منه من تقليل المعصية أو دوالها، فإن كان يؤدي إلى نقانها أو قوة المسم بها، فلا يكون مشروعاً وتركه أولى، فقد هجر النبي ﷺ أقواماً وتألف آخرين، وكما تعظم محبة المسم بعظم الطاعة، يعظم بعصه بعظم المعصية، فليس بعص كعص

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٦٧

هجران أهل البدع

من الدين والإيمان هجران المستدع الداعي إلى بدعته، وهجران الفاسق والمعاصي المحاهر بسفه، قال تعالى ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَنَسِكُمُ النَّارُ﴾ [هود ١١٣]، قال القرطبي إنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فإن صحتهم كفر أو معصية، إذ الصحة لا تكون إلا عن مودة^(١) وقال تعالى عن المنافقين ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء ١٤٠]، قال الصالحك دخل في هذه الآية كل محدث في الدين مستدع إلى يوم القيمة، وقد أمرت الآية باحتسابهم والقعود معهم ومجالستهم، لأن من لم يجلسهم يكون قد رصي معهم، والوصف بالصلال صلال، فكل من جلس مجلسهم ولم يكر عبثهم يكون شريكاً لهم في نور^(٢)، وقال تعالى ﴿وَلَا تَأْتِ الْيَهُودَ يَحُضُّونَ وَإِنَّا فَأَنزَلْنَاهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام ٦٨]، قال ابن العربي وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكسائر لا تحل، وقال ابن حوير ممداد مع أصحابا مجالسة الكفار وأهل البدع، وألا تعتقد مودتهم، ولا يسمع كلامهم، ولا مناظرتهم

وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة واحدة، فأعرض عنه، وقد ولا نصف كلمة ومثله مروى عن أيوب السخيتي، وقد الفصيل بن عياض «من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأحرج نور الإسلام من قلبه، ومن روح كريمة من مستدع فقد قطع رحمها»، أي لأن المستدع يطلب هجره^(٣)

وكذا يقولون: لا تجالسوهم وإن ذبوا عن السنة، لأنهم لا يفعلون ذلك إلا لترويح باطلهم، ولو اعتقدوا محبة السنة حقاً ما أقاموا على البدعة قال مالك ولا يُسَمَّ عبثهم، وهجرهم إما هو لإلجائهم بالهجر إلى اعتقاد الحق وليأدب بدلت غيرهم، وقد ترك النبي ﷺ الصلاة على المدين والعات، وحالهما أحسن من حال المستدع الدعية، وبهي الناس أن يكلموا الثلاثة الذين تخلعوا عن الجهاد لمجرد أنه خاف عليهم الصاد

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩٣/٩

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٦ ٢٩٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦/٧

ولا عية في المستدع الداعية، والمجاهر بالمعصية، مذكر حالهما بالفسق لمن سأل عنهما، فإن كان المستدع غير مجاهر بدعته، فإنه يصح ويكفي عسى أن يوب، ولا يجتنب ولا يشهر به، فإن الستر على المسلم مطلوب، وهو من الإيمان، ومن سر عن مسلم ستره الله يوم القيامة كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ فيسعي هجر لمستدع الداعى إلى بدعته، وعلى أهل الفصل أن يهجره حين وميتاً، ولا يشيعوا حديثه رحرًا لأمثاله^(١) وكان السلف يهون عن النظر في كتب أهل البدع والاسماع إلى كلامهم والمقام معهم، لما يورثه من الظلمة وفساد القلب، قال ابن القاسم سمعت مالكا يقول لا يحل لأحد أن يقيم بلد يسب فيها السلف^(٢)

ولهجر المبتدع شرطان

- ١ أن تكون البية في هجره طاعة لله تعالى ، كراهية لبدعة داتها، لأنها معصية وطعم، لا لأمر آخر من أمور الدنيا
- ٢ أن يكون في الهجر مصلحة، إما لأن هجره يجره ويرجر أمثاله، أو يقوي به إيمان من هم على الحق إذا رأوا صاحب البدعة مهجورًا، فإن لم يكن في الهجر مصلحة بقوي به الحق، بأن كان لا تأثير له أصلًا، أو كان الهجران يؤدي إلى مسكر أشد لم يكن مطلوبًا، فصاحب الحق مع صاحب البدعة كالمطبيب مع المريض، يحذر له أسب الأدوية بالمقدار الذي ينفعه، حين يظن أنه ينفعه ويحقق مصلحة الدين، فإن كان الدواء يبيع على المريض أوحاغا أخرى كامة في دمه، ولا مصلحة معه، ففي إعطائه إياه هلاكه^(٣)

قال ابن عبد البر «في حديث كعب في قصة الثلاثة الذين حلفوا دليل على أنه حائز أن يهجر المرء أحاه إذا بدت منه بدعة، أو فاحشة يرجو أن يكون هجره تأديتاً له ورحرًا عنه^(٤) . وفي زاد المعاد^(٥) وفيه أي حديث الثلاثة الذين تحلفوا عن

(١) انظر الآداب الشرعية ٢٢٩/١، وموسوعة الفقه الكويتي، مادة (سب)قرة ٣٧

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤٨٤/١

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٢٨/٢١٢

(٤) التمهيد ٦/١١٨

(٥) ٢٤/٣

عروة تنوك دليل على هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يسوجب العيب، ويكون هجرانه دواء له، بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يريد في الكمية والكيفية عليه فيهنكه، إذ المراد تأديبه، لا إتلافه.

ولهجر لعص الناس أضع، والتأليف لعصهم أضع، وقد كان النبي ﷺ يبالغ قومًا، ويهجر آخرين^(١)

إمطة الأذى عن الطريق

قال ﷺ «الْإِيمَانُ يَضَعُ وَيُسَبِّحُونَ أَوْ يَضَعُ وَيُسَبِّحُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»^(٢) وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «يَتِمَّا رَحُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ حُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخْرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَفَقَرَ لَهُ»^(٣)، وفي لفظ آخر «حوسب رجل فلم يوجد له من الخير إلا حصن شوك نحاء عن الطريق ففقر له»^(٤)، وفي لفظ عبد مسلم، فقال «وَاللَّهِ لَا نَحْيِيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ»^(٥)

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا، ثَقُلَ فِي الْحَنَةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَمَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ»^(٦) وعن أبي هريرة، قال «قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَا أَذْرِي لَعَنِي أَنْ تَمْضِي وَأَبْقَى بِعَذَابِكَ، فَرَوَدَنِي شَيْئًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «افْعَلْ كَذَا، افْعَلْ كَذَا، أَبُو بَكْرٍ نَسِيَهُ، وَأَمِيرُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»^(٧)، وفي رواية قال قلت «يَا نَبِيَّ اللَّهِ عَلِمَنِي شَيْئًا أَنْتَعَمَ بِهِ قَالَ اغْرِزْ الْأَذَى عَنِ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ»^(٨)

وعنى هذا فهم أصحاب رسول الله ﷺ الإيمان وحصانه، إمطة الأذى عن الطريق

(١) نظر مجموع سنن أبي داود ٢٨/٦-٢٠

(٢) مسلم حديث رقم ٣٥

(٣) سنن أبي داود حديث رقم ٦٥٤

(٤) سنن أبي داود ٢٢/١٣

(٥) مسلم حديث رقم ١٩١٤

(٦) مسلم حديث رقم ١٩١٤

(٧) مسلم حديث رقم ٢٦١٨

(٨) مسلم حديث رقم ٢٦١٨

عندهم من الإيمان، لأن دفع الضرر عن المسلمين وإزالة الخير لهم هو مقتضى الدين والصيحة والمحنة للمؤمنين، وهذه الخصلة من الإيمان التي شكر الله فاعبها ووعد الجنة هي على صعرها تشرح صدر المؤمنين، لأنها تدل على حضارة هذا الدين مد أن أكرمهم الله ﷺ على لسان نبيه ﷺ، وما تحمله رسالته الحادثة لمشرة من نظم الحياة الرقية، بالمفهوم المعصري المرقى، التي شملت فيما شملت المحافظة على نظافة الإسكان، ونظافة البيئة، وإزالة الأذى عن الطريق، بتحسينها، وتمهيدها، وإصلاح المسد منها، وإقامة المعوج، وإصاعة المظلم، وتوسيع الضيق وإزالة كل عائق يصد بهاء وحمالها، وطيب هوائها ونقاها، فإن ذلك وغيره مما يوفر الأمن والراحة البدنية والنفسية للسالكين فجاءها، راكبين أو ماشيين، كله داخل في إمطة الأذى عن الطريق، الذي هو من شعب الإيمان، يؤجر عليه العبد وثب وتعمر به دونه، ويقلب به في نعيم الجنة

وكان المسلم حين يحافظ على هذه الشعبة من الإيمان، بهذا المفهوم الشامل الكامل يسير في شوارع أرقى مدن العالم حضارة ونظافة وجمالاً، حيث سسحي الممر أن يصبغ تحت قدميه، لما يخشى من تلوث الطريق، ولما يخشى من الاشمزاز من فعله والإنكار عليه

أين هد الإيمان الذي يؤكد عليه حديث إمطة الأذى عن الطريق مما عليه تصرفات المسلمين في أكثر بلاد المسلمين؟ إنهم لا يحسون بمسئولية تقصير في هذا الجانب الإيماني في حياتهم اليومية، يحرج الجار كرامة بيته بما تضمنه من عفونات وروائح كريهة فيبقىها وسط الطريق ولا يبالى، هذا إن كان مع جاره على مودة ووافق، وإلا فلا يجاوز بها باب حارة على عجلة منه، فيدخل فيمن لا يأمن جاره بوائقه، ويكون ممن حرم الله تعالى عليه الجنة كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ^(١)، يدل أن تدحبه إمطة الأذى عن الطريق الجنة

وشأ عن هذا التهاون حائل من الأوساخ والمخلفات والعفونات في طرقات المسلمين، وضطروا لحرقها بالنار داخل المدن ووسط الأسكن، وبدئت تصل سمومها ودخانها وروائحها الكريهة كل بيت، فتلوثت البيئة، ودفع الجميع النثر

(١) البخاري حديث رقم ٦٠١٦

بعضاً، بظهور أمراض بينهم استعصت على العلاج

فبيته من به شيء من التهاون في هذه الشعة من الإيمان إلى أن الله ﷻ لا يعرب عنه مثقال ذرة، ولا يحصى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وكل شيء عنده في كتاب، يصنع الموارد القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وأن من ادعى المسممين في طرقهم، وشأ عن أداء صرر مباشر أو بعيد، مما لا يحصى عن عدم الله هو مستوف عما صنع، ومقتصر منه لمن ظلمه، فانظر يا من تؤدي المسممين في طرقهم كم من حصماء لك بين يدي الله تعالى ١

الإتفاق في السفه والبخل في الواجبات

تعق الأسرة أموالاً كثيرة هي إلى السفه أقرب منها إلى الرشاد، ليست من ضروريات الحياة ولا من لوازمها، منها ما الإتفاق فيه من الكناز وصرح الحرام كالحرير والمحدثات والبرئ والنساء والإتفاق على معاصي أخرى، كأشرطة العدا والحلاعة ولعري، ومشاهدة الدعارة والصورة العارية التي صارت بفصل القوات الفضائية ومواقع الحاسوب في تناول كل من يريد

ومنها ما هو منع وتسلية بعضها مباح، وأعله محرم أو مشوه، لا تكاد تجد بيت في الأحياء داب الدحل المحدود غير مشترك في الث الث الفضائي، أو لم يصب صاحب ينقطع به محطات الحر الليل، أو لا ينفق على السجائر كل يوم ديناراً عنى الأقل، في الوقت الذي يترك الماء الأسود وغير الأسود يجري من بيته إلى الطرقات، ويرمي حرق المحابص وبراز صغاره خارج بيته على خطوات، ولا يستقطع من نفقته الطائشة من يؤخره على نقل ما يكف أداء عن المسلمين أي سفه وتفریط في حقوق المسممين أين من هذا ١١٢ المؤمن الذي يستحق وصف الإيمان يستقطع من قوته الضروري، من حيز يومه، مكثفياً بنصف ما يستح حاجته من الطعام لمن يقوم له بهذا الواجب المتعين، لا أن ينفق ماله على السفاقة، ويرمي بعبه على عباد الله، فيأني الله المشكى

الصبر من الإيمان

ليس كالصبر عون على إتقان العمل، وأداء الحقوق، والتقديم بالواجبات عنى أحسن وجه وأكمل، لنا كتاب أكثر حصال الإيمان وشعه داحدة تحب الصبر، حتى ورد أنه نصف الإيمان

الصبر على العمل ابتداء ودواما

ما من عمل من الأعمال الصالحة بأنواعها، في العادة والعمامة، إلا ويصح إلى الصبر في مراحلها الثلاثة، قبل البدء، وفي الأثناء، وبعد الانتهاء. ففي البدء يكون الصبر بتصحيح الية، والإخلاص، وتصفيته من شوائب الرياء، وهوى النفس، وحب الشاء والمدح، وإطلاع الناس، ولا أشق على النفس من معالجة ذلك، ولعل هذا من أسرار تقديم الصبر على العمل في قوله تعالى ﴿لَا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود ٩١]، وقد تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة ٥].

والصبر في الأثناء هو الصبر على العمل بعد الدخول فيه، وذلك بإتقانه وإكماله وأدائه على أحسن وجهه، وأفضل صورته، ومراعاة كامل أذانه وفضائله، ولعل هذا من أسرار وصف المستحقين لأجور عملهم بالصبر في قوله تعالى ﴿يَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ [التكوير ٥٨، ٥٩]، أي على إتقان العمل وإتمامه، فكثيرا ما يصيب العامل فتور وتطيف وقصور، وأحيانا تفرط وإهمال، لقلة الصبر في العمل، فالتفرط والإهمال، عادة ما يكون عند ضعف الإيمان، مع غياب القابول الرادع في الإحلال بالأعمال التي يتقاضى الناس عليها الأجور، ولا تعود عديهم حسارتها بطريق مباشر إذا أهملوها، كعمال الحكومات، والمصانع، والمؤسسات، في البلاد التي ضعف فيها إيمان المؤمنين وصبر العاملين أو غاب

وأم الأمور ولقصور، مع المحافظة على هيئة العمل وصورته، فيظهر جيب فيما كان من العمل عادة لله حالصة، لا يتنظر العامل فيها مودة صديق، ولا مكافأة دي حبه وسطون، فقد يصلي المصلي، ويصوم الصائم كيفما اتفق، فلا يحسن ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، ولا يترك في صومه الندو والرفث، فلا يصبر على ذلك كله، فإذا ما دعاه صديقه أو ولي نعمته من العباد لأن يقوم له بعمل، صبر عليه، وبدد وسعه في أن يكون العمل على أتم وجه وأحسنه وأتقنه، وتمنَّه سكف الاعداء به، ليرصيه ويحصل على ثنائه، مع تهاونه في أداء ما وجب لله عليه، والله بذلك أحق، ولصبر على أداء ما يستحقه أوجب، مع ما فيه من الجراء الحسن، ووفاء أجر الصابرين بغير حساب

والصبر على العمل بعد الفراغ منه يكون بعدم ذكره وعدم التحدث به، وترك العمل

والشهرة والإعجاب بالنفس، وتحليصه من السمعة والرياء، وكل ما يبطئه ويحطئه، قال تعالى ﴿وَلَا تُطْلَوْا أَعْدَكُمْ﴾ [محمد ٢٣]، وقال تعالى ﴿لَا تُطْلَوْا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى﴾ [القرة ٢٦٤]

الصبر على المصيبة

من الإيمان الصبر على المصيبة، والصبر على المصيبة معناه التحمل والسجود، وصبر النفس، والسيطرة عليها، وعدم إظهار الجرع والهلع، وذلك بتعيب باعث الدين في النفس، على باعث الشهوة والرعة العاجلة وقد ذكر الله تعالى الصبر في أكثر من سبعين موضعا في القرآن، ومدح الصابرين مدحا لم يجعله لغيرهم، فجمع لهم ثلاث حصال شاء الله تعالى عليهم، ورحمته، ووصفهم بالمهتدين، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ﴾ [القرة ١٠٧] وما من قوة إلا وأحرها بتحديد ومقدار، إلا الصبر فقال ﷺ عنه ﴿يَمَّا يَوْفَى الصَّبْرُونَ أَكْرَمُ بِمَرِّ حَسَابٍ﴾ [المر ١٠]، ولا يتم الصبر إلا بمطابقة القلب للسن والأعمال، فلا يقع التحمل باللسان، والعمل مخالف، أو القلب جارح بما فيه، متطوع لشهوة المحرمة، وطاعة الشيطان، فإذا قال المصاب بلسانه إنا لله وإن إليه راجعون، عليه أن يكون في نفسه تسليم لله بقضائه حقا، وعمله على مقتضى الأمر صدق، فلا يصدر منه لفظ اعتراض ولا لوم ولا استعراب بماقص ذلك، فلا يقول مع الأسر حرج سم يا رب؟ ولا كيف حصل هذا لي؟ أو لم لا يحصل لغيري؟ أو لم أتوقع حصول ما حصل لي، ولا يصدر منه عمل مخالف، كلطم الخدود، وشن الحبوب، أو الإحلال بواجب فإن ذلك يتضمن الاعتراض على القدر المأبى للصبر

والصبر على المصائب لا يقيد صاحبه إلا إذا تجمل به عند الصدمة الأولى، أول بروز المصيبة، فمن صبر عندها رزق الهداية والرحمة، وشاء الله تبارك وتعالى عليه، قال ﷺ ﴿إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدمةِ الْأُولَى﴾^(١) وصبر العاقل في أول لحظة، وصبر الأحمق بعد ثلاث، ولا مزية للصبر بعد ثلاث فكل الناس بعده يصبر ويحرج عن مقام الصابرين من أظهر الكائن والجرن غير المتعاد في مدس، أو فراش، أو مطعم، أو أهل عملا أو نكاحا، أو غير ذلك من كل ما هو داخل تحت احتيظه،

(١) البخاري حديث رقم ١٢٨٣

من أحل المصيبة، لأن المفقود عارية من الله ردت إليه، فلا يستدعي إظهار الحزن والكآبة

والقدوة في ذلك ما صنعته الصحابة الجلييلة أم سليم روح أبي طلحة رضي الله عنه، حيث أحضت عن أمي طلحة موت امه وتهيأت له كعادتها في فراشه، وأحسرتة في الصباح بالمصائب، ولشأنها العظيم في ذلك بارك الله لهما في نيتهما، فرفقهما الله من حميتها ذلك سعة من الولد، كلهم قرءوا القرآن وحملوا العلم والنصر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرج عن حد النصر توجع القلب ودمع العين^(١)

الصبر ثلاثة أنواع

صبر على المصائب بالتجلد وعدم الجرع والتسخط على القضاء، وصبر على الطاعات بالمدومة عليها والإتيان بها على أكمل وجه، اسداء ودوام واستياء كما تقدم، وصبر عن المعاصي والحرام يكف النفس عنه، وكلها من الإيمان

الابتلاء بالنعم أشد من الابتلاء بالنقم

من الإيمان صبر دي النعمة على العافية بأداء ما يجب عليه فيها، وهو أشد من الصبر على البلاء، فإن الاطمئنان إلى النعم والحلذات مع صحة البدن ووفرة المال والجاه، واتساع الرزق، وكثرة الأتباع سبيل إلى الظلم والنظر والطغيان، قال تعالى ﴿كَأَيُّ لَاسْتِ لَطْفٍ ۚ﴾ (١) ثُمَّ قَدْ تَسَمَّى (العلق ٦، ٧)، وحذر الله تعالى أهل السعة أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، قال تعالى ﴿تَأْتِيهَا الْيُسْرَىٰ ۖ مَوْنٌ لَا تُلَهِجُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الماقون ٩)، ويقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اسبى مع رسول الله ﷺ «بالضراء فصبونا، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر»^(٢)

والاسلاء بالنعم يأتي من جهة الاطمئنان إلى الدنيا والركون إليها، والاسرسل في الفرح بها، والحرص عليها، وقد حذر الله تعالى من ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ

(١) انظر إحياء علوم الدين ٧٢/٤

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ٢٤٦٤، وقال حديث حسن

لِقَاءَنَا وَرَمُوا بِمُحِبَّةِ الدُّنْيَا وَالطَّمَاثُوتَ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ لَنَا سَآءٌ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس ٨، ٧]

ويأتي أبص من جهة سيات أن ما أعطيه الإنسان منها من مناع وولد ونعم هو
عارية، قد يُسلنه ويفقده في أي لحظة شاء الله تعالى ذلك، ومع سيد هذه الحقيقة
بحرر الإنسان أشد الجوع إذا مسه الضرر، ويتصور وقوع المصيبة كأنه اعتداء عليه،
لا قدر يجب التسليم له، يعقل المنسخط عن أن أصل النعمة هبة أعطيت له بعد أن
كان لا شيء عنده، كما يعقل عن الحقوق الواجبة عليه إراءها، كتشكر والذكر
والركعة والصدقة، والمجدة، والمعروف، وإعانة الملهوف بالمال واليد واللسان،
وهذا هو السر في أن الابتلاء بالنعم أشد من الابتلاء بالقسم، لما للنعم من حقوق
وتعديت، ولأن الضرر على الجوع عند فقد الطعام أحف من الضرر عليه عند حصوره،
ومن العصمة ألا تجدد.

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

حماية التوحيد

سد ذرائع الانحراف في العقيدة:

أقدم للإسلام أول ما أقام في نفوس المسلمين التوحيد، وأركان الإيمان، فلما استقر ذلك واكتمل شرع من الأحكام ما يحمي التوحيد والإيمان، ويحققه على أكمل وجه، وذلك بسد أبواب نواقضه ومفاسده التي تؤدي إلى الشرك وعنده غير الله وبذلك أكمل الله تعالى الدين، وأتم على عباده النعمة، فلم تترك الشريعة باباً من الفصول يرسخ لتوحيد، وتقوي الإيمان إلا فصحه، ودعب إليه ورعب فيه، ولم تترك باباً منحرقات والمفاسد يحل بالتوحيد وينقص عرى الإيمان، أو يذهب به لا سده، وحذرت منه أعظم تحذير، بالنهاي الصريح، أو بصرب الأمثلة وأخذ العبرة من الأسم السابقة، ممن خرجوا عن طريق الحق، وما آل إليه حالهم من الكفر والعصيان، وما برل بهم من العذاب، في سداعاب ظنوها في نادى أمرهم عذاب وطاعة تقرب إلى الله تعالى.

وفيما يلي التبيه على أهم التطبيقات العملية السلوكية، التي شرعت لحماية الإيمان والتوحيد في عقيدة المسلم

إخلاص العمل لله ومراتبه:

إخلاص العمل لله معناه: ألا يقصد به غيره. وقصد غيره بالعمل معناه الرياء، والرياء لا يقبل الله تعالى معه عمل، فإن الله ﷻ يقول للمرائين «اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَعْبُدُونَ عَنْدهُمْ جَزَاءً»^(١) فمن كان عمله لله وإدار

(١) مسند أحمد حديث رقم ٢٣١١٩

الأجرة، كان سعيه مشكوراً، وأجره موفوراً، وعمله مقبولاً، ومن كان عمله لحظ نفسه وريته الدنيء وإرضاء العباد، عجل الله تعالى له من الدنيء ما كسبه له منها، وليس له في الأجرة من نصيب قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ لِحَبِوةٍ لَدُنِّيَ وَيَتَّخِذْ يَوْمَ إِلَهِتُمْ أَئْمَنَهُمْ فِيهَا وَهُوَ بِهَا لَا يُحْصُونَ ﴿١٦﴾ أَؤُنْذِرُكُمُ الْيَوْمَ لَيْسَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْتَرُّ وَحَسْطٌ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَيُطْلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود ١٥، ١٦]، وقال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ آفَاجَةً سَيفًا لَمْ يَهَبْ مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ جَهَنَّمَ يَصْنَعُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الاسراء ١٨، ١٩]، وقد تعالى ﴿مَنْ كَانَتْ تُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ تُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيِ نُزِّلَهُ مِنَّا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى ٢٠]، وليس على النفس شيء أشد من الإخلاص؛ لأنه ليس لها منه نصيب، وكان بعضهم يقول كم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه سب فيه على لون آخر^(١)

وكان من دعاء مطرّف بن عبد الله اللهم إني أستعفرك مما تبت إليك منه، ثم عدت فيه، وأستعفرك مما جعلته لك عن نفسي، ثم لم أوف به لك، وأستعفرك مما رعمت أني أردت به وحبك، فخالط قلبي منه ما قد علمت^(٢)

وأكمل العمل ما قصد به وجه الله ابتداءً ودواماً، ولم يحصل منه لنفس حظ في الدنيا أصلاً، من شهرة، أو مال، أو ذكر حسن، لا ابتداءً ولا انتهاء، وهي المرتبة الأولى في الإخلاص، مرتبة من أنفق حتى لا تعلم شمائله ما تنفق بميمه، فبع من الإخلاص عذبه، ولم يرح من غير الله شيئاً

ويحقق هذه المرتبة وإن كانت دويها من كان عمله له حائضاً، ثم ألقى الله به النداء الحسن في قلوب الناس، وفرح بفصل الله ورحمته واستشعر، دون أن يعبر ذلك عنه وإخلاصه لله، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه قال قيل لرسول الله ﷺ «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَمْعَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(٣)، وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال. يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ يَمْعَلُ

(١) جامع هود و يحكم من ٢٤

(٢) جامع هود و يحكم من ٢٤

(٣) مسلم حديث رقم ٢٦٤٢

الْعَمَلُ قَبِيرُهُ إِذَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ أَصْغَبَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَهُ أَجْرَانِ، أَجْرُ السُّرِّ وَأَخْرُ الْمَلَانِيَّةِ^(١)

المرتبة الثانية أن يكون أصل العمل لله، ثم تطرأ على صاحبه بية الردء والإعصاف بالنفس، فإن كان مجرد حاطر ودفعه عن نفسه، فلا يضره، ولا يفسد العمل اتفاقاً، وإن استرسل معه فيحتاج إلى تجديد بية إن كان العمل لا ترتبط صحة أوله بآخره، كالقرعة والذكر، وإشفاق الحال وتعليم العلم، فإن لم يجدد نيته لله كان العمل الطارئ باطلاً

أما العمل الذي ترتبط صحة آخره بأوله، كالصلاة والحج، فقيل - طرق الرياء أثناءه بفسده، لدخول الرياء عليه، وقيل لا يفسده، عملاً بأصل البية الصحيحة، ويدل على عدم الفساد ما رواه أبو داود في المراسيل عن عطاء الحراسبي أن رجلاً قال يا رسول الله، إن بنى مسلحة كلهم يقاتل، فمهم من يقاتل لندبنا، ومهم من يقتل نجدة، ومهم من يقاتل ابتغاء وجه الله، فأبهم الشهيد، قال كنههم، إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا^(٢)

المرتبة الثالثة أن يكون الناعث على العمل وجه الله وحمد الناس، بأن يريد صاحبه الدار الآخرة وعرض الدنيا، فهذا من العمل الناطل، حرج السنائي من حدث أبي أمامة رضي الله عنه قال «حَاءَ رَحُلٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَرًّا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتَنِي بِهِ وَخُفَّهُ»^(٣)

التحذير من الغلو

مما حمى به الإسلام التوحيد، أنه حذر من الغلو والإفراط في كل ما يعتقد أن مودته من الإيمان، ومحنته من الدين، كالغلو في الأسياء والأولياء والشيوخ، والعبو في الكرامات وحمل لكل شيء ميراثاً، إذا طعنى وجاوز حده تحول إلى صده، فأوجب

(١) سريدي حديث رقم ٢٣٨٤

(٢) جامع خلوة و حكمه من ٢٣

(٣) سريدي حديث رقم ٣١٤٠

محبة الأسياء والصالحين والتصديق بكراماتهم، وجعل محبتهم من الإيمان، لأن من أحبهم أحب الله تعالى وأحب طاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ، ولكن محبتهم ليست هي العبودية، فمحبتهم طاعة، والعلو فيهم معصية، والفرق بين المحبة والعبودية يلتبس على الجاهل والعافل، لكن لا يلتبس على العالم، والمؤمن الميسر.

والعلو فيهم مجاورة الحد في مدحهم وإطرائهم، ونسبة أمور إليهم هي من خصائص الربوبية، ولم يجعلها الله لأحد من خلقه. والمغائى لا يقف به العبود عند حد، بل يبدأ غلوه صغيراً، ثم يتلوح به حتى يجعله يعتقد ما لم يشرعه الله تعالى، فقد على المصري في عيسى عليه السلام، واستهين بهم الأمر إلى أن جحدوه رباً، قال تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ﴾ [النساء ١٧١]، وقال ﷺ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا كُفِّرْنَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُو فِي الدِّينِ»^(١)

التحذير من الغلو في رسول الله ﷺ

مما جاء في كلام وفد بني عامر حين قدموا على رسول الله ﷺ «فَقُلْنَا أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ «الْيَدُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -» قُلْنَا وَأَنْضَلْنَا قَضَاً وَأَعْظَمْنَا طَوْلًا، فَقَالَ «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَغْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَنْجِرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»^(٢). نهاهم عن المبالغة في المدح، وقال لهم تكلموا بما يحصركم من القول، ولا تتكلفوا، كأنكم وكلاء للشيطان، تنطقون على لسانه. وقال ﷺ «لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٣)، وفي المسند عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال للبي ﷺ «يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ مَا أَحَبَّ أَنْ تَرْفَعُونِي قَوْقَ مَنْزِلِي الَّذِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ ﷻ»^(٤)

فليس من محبة رسول الله ﷺ وتوقيره المبالغة في إطرائه بما لا يحب، أو طلب

(١) ابن ماجه حديث رقم ٣٠٢٩

(٢) أبو داود حديث رقم ٨٨٠٦

(٣) البخاري حديث رقم ٣٤٤٥

(٤) مسند أحمد حديث رقم ١٢١٤١، مسنده صحيح ورجاه ثقات

شيء منه هو من حصائص النبوية، بل ذلك مما يعصّب الله ﷻ ورسوله ﷺ

الغلو في الأولياء وتعارضه مع التوحيد

على الناس في الأولياء، وفي الخوف منهم، حتى اعتقدوا أنهم يحرقون من قودهم، ويحصرّون مع أهل (الحصرة) في الأصرحة، وأن لهم تصرفاً ومقامات، يفعلون من تنمى إليهم، ويصرون من يعترض عليهم، حتى صاروا يحشونهم ولا يخشون الله تعالى، ويهونون الله تعالى، ويقدمون لهم الدور، ويطلبون منهم الحاجات، ويعتقدون فيهم النفع والنصر ويحشونهم

يحشف الواحد منهم بالله كادبا، ولا يخشئ سطوته وانتقامه، ولا يحشف بالولي كادبا، خوف من أن يكسر الولي ظهره، أو يخلى له داره، أو يفقده ولده، أو يصيبه بداء لا يقوه منه

وقد أدب الصالحات في تعظيم الأولياء إلى أن صارت مكانة الأولياء في قلوب العامة عند بروز المكره أقرب إليهم من الناري ﷻ، فإذا ما مسّ الواحد منهم صرّ فرع إلى الولي بالنذر والاستعانة، (يا سيدي فلان)، دون شعور ولا تردد، فطر كيف لعب الصالحة في التعظيم فعلها في العقلة عن الحي القيوم

والذين يندرون للولي ويستعيثون به، ويبادونه لتفريح الكروب، وتحفيف المصائب ورفع الشدائد، إذا قيل لهم إنه لا يُرْحَى غير الله تعالى، فهو وحده الذي سفع ويضر، وأن النذر والدعاء عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، وافقوا على ذلك، وقالوا هو الله، والولي واسطة لا يتفع ولا يضر، لكنه أقرب منا إلى الله، وله دلالة على مولاه، لذا نتقرب به إلى الله، فإن نُعدما عن الله تعالى ومعاصيه تحجب عن إحاطة الدعاء

لو سلمنا أن هذا هو حالهم حقيقة، وأنهم لا يقصدون مع الله غيره، مع أن أكثرهم لا يسم من اعتقاد أن للولي تأثيراً وتصرفاً، خصوصاً عندما يبادي الولي ويستعيث باسمه عند بروز المكره، فيه لو لم يعتقد له فعلاً لما ناداه، لأن بداء من لا يقدر على دفع الضر عند بروز الضرّ عث، لا يصدر من عاقل، تدليل أنك لا تجد أحداً يستعيث بماسن، أو يبادي عند الشدة ظالماً، لجرمه بعدم مع الماسن والظالم

أقول حتى لو سلموا من هذا الاعتقاد على بُعد السلامة منه، فإن ما يفعلونه يؤدي

إلى مفاسد، وهي أنه مخالف لما طله المولى ﷺ من عباده، فإنه سبحانه لم يطلب ما أن تتوسط بأحد إذا اتجهنا إليه لسمع دعاءنا، أو يرفع ضمنا، بل قال سبحانه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [احقر ٦٠] ودعاء الأسياء في القرون ربا، ربا، بدون واسطة، وقد أمرنا ربا بالافتداء بهم ﴿فَيُهْدِيهِمْ فَقَدَرُهُ﴾ [الامام ٩٠] ويتر لنا المولى ﷺ أن الاستعانة لا تكون إلا به وحده لا بغيره، فعلمنا في فاتحة الكتاب التي يكررها كل يوم في صلاتنا ﴿يَا كَ نَعُدُّ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة ٥]، أي لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، وإلى ذلك أبصأ أرشدنا ووجهها رسول الله ﷺ «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١)، فما دلت شكك عن هدي الله تعالى وهدي رسوله ﷺ إلى تحرصات ليس عليها أثارة من علم!

شجعت كتب المناقب والكرامات عند المتأخرين، كمجمع الأسرار في مناقب محمد بن عيسى، ومختصر الرموز في مناقب عبد السلام، بحراوات وادعاءات لا أول لها ولا آخر، بسوها إلى بعض الأولياء، زورا وبهتان من غير تمحيص ولا تحقيق عملي، ولا عرض على الشريعة، وفيها ما هو كفر صريح، بشرها على العامة الذين يدعون حب الأولياء، ليرداد التعلق بهذه الكرامات، ومن سمت لها سبب أو دعوى وفائدة ذلك عند الذين يعيشون على هذا الأمر، انوصول إلى أموال الناس والهيمة عليهم باسم بركة الولي القلاسي، وكرامات الولي القلاسي، وأدى ذلك إلى أن صارت الألسنة تلجح بتمجيدهم وتعظيمهم، وبالعوا في أمرهم، حتى بسوا إليهم أن من لم يعتقد فيهم، ويسلم لهم فيما قالوه من حق وباطل، يسلب منه الإيمان، ويموت على الكفر، أو تخلص داره، ويروون في ذلك حكايات، وقعت لفلان، وفلان من الناس، سلب من أحدهم الإيمان لاعتراضه على الشيخ بظاهر الشرع، إلى أن جاء تائيد ويريدون بذلك أنه يجب التسليم بكل ما يسبوه إلى الولي، سواء كان ما بسوه إليه مشروع بحدود قوله، أو كان منكرا من القول وزورا، فلان من التسليم، وإلا جاء المدير وهذه لحكايات هي من كيد إبليس وجوده، لأن الاسلام إليها وبشرها يؤدي إلى إبطال الشرع، يصنعها المتعبدون على أبواب الأصرحة من الحدم

(١) الترمذي حديث رقم ٢٥١٦ - ٥٥ - حسن صحيح

والأنتاع، الدين صدروا من أثرياء الناس، دون كسب ولا صفة
 يروي الشعراي أن شخصاً أنكر حضور مولد الشيخ أحمد الندوي، فسُئِلَ
 الإيمان، فلم يكن فيه شعرة تحر إلى دين الإسلام، فاستعاث بالشيخ، فقال شرط أن
 لا تعود، فقال: نعم، فرد إليه إيمانه^(١)

هذا الكلام وشبهه وأشد منه كثيراً، مسوب إلى عبد السلام الأسمر، ومحمد بن
 عيسى، وغيرهما من الأولياء وكل مسلم يعرف قدر الأولياء، ومربتهم عند ربهم،
 لا يردد قطعاً في أن كل ولي لله تعالى بريء منه، لأنه يستحيل على ولي من أولياء
 الله تعالى محب لله ولرسوله وللمؤمنين، أن تكون كراماته سلب الإيمان عن
 المؤمنين وإحراجهم من الدين، ومحبة أن يموتوا على الكفر، أو محبة إخلاء ديارهم،
 أو إهلاك دررهم وأموالهم، فإن هذا من الفساد في الأرض، الذي لا يصح لأولياء
 الرحمن، ولا يصلح إلا لأولياء الشيطان، وقطاع الطرق

ومن بسب إلى أولياء الله تعالى هذه الكرامات، فقد ظلمهم وأعدى عليهم،
 ونقص قدرهم، واتهمهم بالتعاون مع الشيطان، في إحراج الناس من النور إلى
 الظلمات، ومن إيمان إلى الكفر ﴿أَفَهُ وَبَى الْبَرِك مَأْمُوءًا تُعْرِضُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَأَنَّى يَكْفُؤُوا أَوْلِيَاءَهُمْ الظَّالِمُونَ تُعْرِضُهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة ٢٥٧]

ومن سب إلى أولياء الله هذا الظلم لا يكون من أوليائهم، ولا من محبيهم،
 ولا من مريديهم، ولا من أتاعهم، وإن رعم ذلك، بل حليق به أن يكون من أعدائهم
 ومعصيهم، لأنه سب لهم فعل ما لا يجوز شرعاً، وما هو كبيرة من المعاصي، إن لم
 يكن كفراً. وقد ذكر العلماء في باب الردة إن من قال لغيره أمانه الله كفراً، وكان
 قصد، لذلك، فإنه يكفر، لأن الرضا بالكفر كفر، وإن قصد مجرد التعريض، فهي كفره
 خلاف^(٢)

فتكون سبة مثل هذه الكرامات إلى الأولياء من الشرور، والباطل الذي لا يرصده
 الله تعالى لأوليائه، ومن نسب لهم ذلك فقد عاداهم، وقد توعد الله تعالى في
 الحديث القدسي أن من عادى له ولياً فقد نازله بالحرب

(١) طبقات كبرى ص ١٦٢

(٢) انظر الحرشي مع حاشية الندوي ٦٥/٨

فمثلاً في مختصر البرموي المشار إليه انما من القصائد والكنيات المسبوبة إلى عبد السلام الأسمر أو غيره من الأولياء، لو كانوا أحياء، وهم على ما يُظن بهم من الولاية والعلم ما رصوا بسنتها إليهم، ولأوجعوا قائلها ومروج شره وتوريعه بكلاً وتأديب، بل لأقاموا عليه حد الردقة، لما في بعضها من نشر العدو المفرط في تقدس الدن، ومشاركة الله تعالى فيما علم يقيناً اختصاصه به من العلم والقدرة مما يوجب اعتقده لعبير الله تعالى الردة واستتابة قائله، كالصعود إلى السماء، وإلى الرب تعالى كما يأتي في الكلام المنسوب إليه

قال حليل المالكي في باب الردة، وهو يعدد ما يكون به المسلم كافراً «كإلقاء مصحف في قدر أو ادعى أنه يصعد إلى السماء، أو يعانق الحور»، وفي الشفاء لنقاضي عياض «وكذلك من ادعى مجالسة الله والعروج إليه، ومكالمته، يعني أنه كافر بإجماع المسلمين»^(١)

فهو بصدى عاقل أن ولياً من أولياء الله تعالى يقول للناس في قصائده التي يطلب منهم أن يرددوها ويتعدوا بها، يقول لهم فيها إنه صعد إلى العرش وسدرة المستهي، وأنه صعد إلى الرب تعالى^(٢)، وأن رب العزة تجلى له، وأنه يعلم ما في السماء وما تحت الأرض، وما في اللوح، وما كان وما سيكون، وما هو مشيت في الموح ومسوح^(٣)، وأنه يعلم ما في الكون والملكوت، وأنه يُبيري ويصر، وأحب إليه الموتى على يده^(٤)، وأن الشرق والعرب والعرب والعجم في قبضته^(٥)، وأنه يحصر لأتباعه عند المرج، فيقودون بحسن الخاتمة

وأن له في الجنة النار أمراً وبهياً، وأن له علوما لا تقاد لها^(٦)

كل واحدة من هذه الدواهي توجب الردة والكفر لمن نسبها إلى غير الله تعالى ، فكيف إذا اجتمعت

(١) مواهب الجليل ٢٨٠/٦

(٢) مختصر كتاب روضة الأبرار لمخلوف ١٠٣ والأصل (روضة الأبرار) لبرموي عن مصدق

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق

(٦) مختصر البرموي ص ٩٩

أليس هذا من الدناس في الدين على الأولياء والصالحين؟ ألا يبقى الله ﷻ من يرد مثل هذه القصائد والحكايات، ويقتني الكتب التي اشتملت عليها، ويشربها ويبيعها ويظن أنه يتعبد بها، وهو يجعل لله ندا؟

ألا يبقى لله من يجلس إلى هذه الحكايات والقصائد، أو يسمع من يرددها، ولا يكر عليه ويحذره؟ إن التأليف المشتملة على مثل هذا الكلام، حتى لو صحت نسبتها إلى أصحابها، لا يجوز شرعا تداولها، ولا قراءتها ولا بيعها، ولا يقتدى بأهلها فيها باتفاق الأمة، لما تؤدي إليه من الفساد في الدين

وبعض هذه الكتب اشتملت مع ما فيها من الباطل على كلام من الحق، كالأمر بدفع القرون والسنة، والافتداء بهدي النبي ﷺ، والتوصية بالأدكار المشروعة، والأوراد القلبية

وهي بذلك تكون أخطر على الناس من الكتب التي تجرد لباطل وتمحست لفساد، لأن هذا يعظم الاعتزاز بها، والركون إليها، لما اشتملت عليه من الحق، وذلك لعدم تردد الناس في مصادة ما كان باطلا صرفا، ليس فيه وجه حق، فالريف المحض سرعان ما يصمحل، بخلاف المحتلط بالحق، فإن له ثباتا لما يصح من تبيين حتى يبقى عنه أهل الحق انتحال المظليل، وجهل الغائبين

تخويف الناس بالكرامات وإفساد العقائد

الناس بحاجة إلى تعلم التوحيد تطبيقا وعملا، لا تعلمه مجرد دروس نظرية محسب، تجد الواحد حتى من الدارسين في التخصصات الدينية يدرس مادة (التوحيد) في كتبه المشتملة على ما يجب الإيمان به، وما يجب لله تعالى من التوحيد، وإفراده بالتأثير والقدرة المطلقة، والإرادة المطلقة، والعلم الذي لا يشركه فيه أحد وليس له حد، يدرس كل ذلك وغيره من صفات الباري وكمالاته

ولكنه في الجانب العملي التطبيقي في حياته يساق مع معتقدات العامة، بحرف الأموات والأصراحة، ويسب إليهم من الأفعال والأقوال والعييب والتأثيرات مما يسميه كرامات ما يتفانى مع ما تعلمه في معاهد العلم، ومع ما يتفانى مع إيمانه، فيتطير وينشأ، ويخاف الصر والنقع من غير الله تعالى، ويحسب ألف حسب لكنة من مدح لمبركة في عقله حبل، تريا بري المجاديب وأهمل نفسه، ولو أراد هذا الأخير أن

يسب منه ماله لسله ولا يقدر أن يمتنع، خوف أن يضييه منه صر، فسوى من تعمد ومن جهل، وصار المتعلم سلوكه حجة للجاهل يستند عليها ليقيم على حبه، ولا يسمع من أحد نصحا ولا تعليما

الحلف بغير الله

مما شرع لحماية التوحيد الحلف تعظيماً للمخلوق به، والحالف إما يحلف بأعظم شيء يعتقد، ولما كان الله ﷻ أعظم شيء عند المؤمن، كان حبه المشروع إما هو بالله أو بصفة من صفاته، ولا يجوز له الحلف بغير الله، لأنه لا شيء غير الله يعظم تعظيمه. ومن حلف شيء غير ربه فكأنه عظمه تعظيمه، فسب مع الحلف بغير الله تعالى الخوف من أن يعظم المخلوق تعظيم الحائن، فكيف إذا سب بجرؤ على أن يحلف بالله كادبا، ولا يحسن انتقامه؟ ولا يحلف كادبا بأحد الأمور ممن يعتقد فيهم الإصلاح خوف أن يحل له داره، ويعاجله بالعقوبة، نس الجهل بمقام الله العظيم، سبحانه الله!! لا أحد أصبر على أدنى سمعه من الله

ومن فعل ذلك جاهلا بمقام ربه، غير متعمد لتعظيم غيره عليه، فإنه يؤدب تأديب سبعا، أما من قصد ذلك فجعل منزلة العبد فوق منزلة الرب فقد حرج عن الإسلام، ففي الصحيح من حديث عمر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تُحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ خَالِفاً فَلْيُحْلِفْ بِاللَّهِ، وَإِلَّا فْلْيَصُمْتُ»^(١)، وفي رواية «أَلَا مَنْ كَانَ خَالِفاً فَلَا يَحْلِفُ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٢) وفي حديث عبد الرحمن بن سمره، قال قال رسول الله ﷺ «لَا تُحْلِفُوا بِالطَّوْأخِي، وَلَا بِآبَائِكُمْ»^(٣)، وفي حديث أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٤)، واللات اسم صنم كانوا يعبدونه في الجاهلية

وبذلك يعلم التحذير مما يجري على ألسنة الناس دون أن يقصدوه من الحلف بما طهره الخروج عن الملة، كهو يهودي، أو نصراني، أو برّيء من الإسلام، أو من

(١) البخاري حديث رقم ٦١٠٨

(٢) بخاري حديث رقم ٣٨٣٦

(٣) مسلم حديث رقم ١٦٤٨

(٤) البخاري حديث رقم ٤٨٦٠

القرآن، ومن قال ذلك وحنث لا يرتد إن قصد باليمين مجرد الامتناع عن الشيء، ولم يقصد الإخبار عن نفسه، فإن أحرى بذلك عن نفسه في غير يمين، وقال: هو يهودي فهو ردة، ولو كان هارلاً أو حاهلاً^(١)، قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا»^(٢) وقوله: فهو كما قال، قال المنذري: ليس على إطلاقه في نسته إلى الكفر، بل المراد أنه كذب ككذب المعظم لتلك الجهة، ولا يكون كافراً إلا إن أصر ذلك في نفسه، وهو قول ابن عباس وأبي هريرة وعطاء وقتادة، وجمهور الفقهاء، وقوله: «فمن يرجع إلى الإسلام سالماً»، أنه لن يرجع من الإثم ولو مرّ فيه، لما في هذا الحنف من الاستحسان ولا مبالاة.

أما قسم له تعالى بمخلوقاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْسَ لِي بِالشَّيْءِ﴾ [البقرة ١١]، ﴿وَلَنْ يَأْتِيَنَّكَ﴾ [الصافات ١٧]، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا تَرَىٰ فِي سَنَاءٍ لِّمَن تَعْلَمُ﴾ [الحجر ٧٢]، فهو مما لا يقاس عليه، لأن الله تعالى أن يقسم بما يشاء من الأمور التي تدل على قدرته وعظمته، وليس ذلك لعير الله، ومن العلماء من يرى أن في هذه الآيات حدوداً تقديرية ورب لصحي، ورب الليل... الخ.

وأما قول النبي ﷺ: «أَفْلَحَ وَأَيُّهُ إِنْ صَدَقَ»، الذي ظاهره الحنف بسط الألف، والجواب عليه أن لفظة (وأَيُّهُ) غير محفوظة في الحديث عن يحتج به، كما قال الحافظ بن عبد البر، فقد روى الحديث مالك وغيره من الحفاظ بدونها، وسهم من رواه بلفظ «أَفْلَحَ وَاللَّهِ إِنْ صَدَقَ»، وهذا أولى من رواية من روى (وأَيُّهُ)، لأنها لفظة منكورة، تردده الآثار الصحاح، وعلى فرض صحة ثبوت هذه اللفظة، فهي مسبوحة لنهي النبي ﷺ عن الحلف بها في الحديث المتقدم^(٣)، ولم يرد بعد النهي بإباحة، ولذلك قال عمر وهو يروي الحديث بعد موت النبي ﷺ: «فَمَا حَلَفْتُ بِهَا ذَاكِرًا وَلَا أَثَرًا»^(٤).

(١) انظر الشرح الكبير ٢٨/٢

(٢) صحيح أبي داود حديث رقم ٢٧٩٣

(٣) انظر التمهيد ٣٦٧/١٤ و ١٥٨/١٦ والمصنف ١٧٨/٨

(٤) اسنخاري حديث رقم ٦٦٤٧، (ذاكراً) أي من نفسي، (أثراً) أي ما تلا عن غيري بأد أوفى، قال ثلاث وأبي

نسبة الاختراع والإبداع لغير الله

الإبداع والاختراع معناه الإشاء والخلق على غير مثال سابق، فله سبحانه وتعالى هو الخالق المبدع قال تعالى ﴿أَنزَلْنَا نَارًا فَلَاقَ ثُمَّ يُعَبِّدُ﴾ [النمل ٦٤]، وقال تعالى ﴿يَبْدَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الفرقة ١١٧]، ولا يجوز إطلاق هذا اللفظ بهذا المعنى على غير الخالق سبحانه ، فلا يقال . فلان مبدع، ولا فلان مخترع على معنى نسبة الفعل والتأثير له على الحقيقة ففي حديث ريد بن خالد الجهني قال «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبَةِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَأَنَّهُ كَانَ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ - هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ - قَالَ - أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ يَنْزِلُ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»^(١)

ترجم القرطبي في (المفهم) لهذا الحديث . (باب نسبة الاختراع لغير الله حقيقة كفر)^(٢) ، وذلك يعنى أن من اعتقد أن خلق الأشياء أو إبداعها من فعل غير الله حقيقة، أو اعتقد أن المطر من فعل الكواكب، كان بذلك كافرا، أم من اعتقد أن الله تعالى هو الخالق والمبدع على الحقيقة، وهو الممرر للمطر على الحقيقة، ولكنه تكلم بذلك دون أن يقصد أن لغير الله تأثيرا، كما يشيع الآن على ألسنة كثير من الكذابين في الصحف والمقالات والإذاعات دون وعي ولا إدراك، متأثرين في ذلك بغير المسلمين، أو بمن يتسبون إلى الإسلام اسما فهو محطى من جهنم من جهة محالسه لشرع لدي حذر من إخراج هذا اللفظ على اللسان، ومن جهة تشبهه بمقالة أهل الكفر الذين أمرنا بمخالفتهم قال ﷺ «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ»^(٣)، وقال ﷺ «خَالِفُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى»^(٤)

ولا يدخل في النهي الإخبار عما يتوقع حدوثه ساء على الأسباب التي يبيحها العلم، أو تعرف من التجارب، كأن يستدل باتجاه الرياح أو انحناءها على توقع

(١) البخاري حديث رقم ٨٤٦

(٢) المفهم ٢٥٨/١

(٣) البخاري حديث رقم ٥٨٩٢

(٤) سنن أبي داود حديث رقم ٦٥٢

بروب المطر، أو مرودة الجو، أو حرارته، إلى غير ذلك، وقد روي «إذا شأت بحرية
ثم تشاءم فتدث عين غديقة»^(١)

تسمية المخلوق بالرب والمولى والسيد

لفظ الرب والمولى والسيد معرّفًا بالألف واللام لا يطلق إلا على الله تبارك
وتعالى، فلا يجوز إطلاقه على المخلوق^(٢)، كأن يقال فلان الرب ويجوز إطلاقه
على المخلوقين مضافًا في موضع الإخبار والتعريف والوصف، كما في حديث «أن
تد الأمة ربّتها»^(٣)، وكما في قوله تعالى حكاية عن يوسف **﴿أَذْكُرِي عِندَ
رَبِّكَ﴾** [يوسف ٤٢]، وقوله **﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾** [يوسف ٥٠]، لا في موضع الدعاء
والبداء، فلا يقال للمخلوق يا ربّي

ويجوز استعمال لفظ الربّ مضافًا إلى غير العقلاء كالجماد والحيوان، فيقال رب
الدار، ورب لبانة، ومنه قوله **﴿فَإِنْ مَعَهَا جِدَاءَهَا
وَسِقَاءَهَا، تَرُدُّ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّى يَجِدَهَا رَبُّهَا﴾**^(٤) ولا يجوز أن يحدث
الإنسان بذلك عن نفسه، كأن يقول السيد لعبد اسق ربك، أو أطعم ربك، أو يقول
المملوك لسيد ربي، أو ربّي، ولا أن يقول السيد عدي وأمي، بل يقول
المملوك سيدي ومولاي، ويقول السيد فتاي وفتاتي، وعلامي وحارسي، لأن
حقيقة العبودية لا تكون إلا لله تعالى، وحقيقة الربوبية لا يسحقها إلا الله،
فلا تجوز المضاهاة، لما فيها من التشبه والتشريك، ولا فرق في ذلك بين الحر
والعبد، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي **﴿قَالَ لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ
أَطْعِمُ رَبِّي، وَصَيُّ رَبِّي، اسْقِ رَبِّي وَلَيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي
أَمْتِي وَلَيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَعَلَامِي﴾**^(٥)

(١) عراه الهشي إلى الطبراني في الأوسط، وقال تعريده النوادي. قال الهشي في نوادي كلامه وقد وثقه
عمر واحد، وبه رجاله لا بأس بهم، وقد وثقوا أقوال من نوادي مروءة كما في تعريف بغير مجمع
برواند ٢/٢٢٠ والمصنف ١/٢٦٠، وتعريف التهذيب ٦١٧٥

(٢) تفسير بحرعلي ١/١٨٢

(٣) صحاري حديث رقم ٥٠

(٤) ٢٤٢٨

(٥) البحاري حديث رقم ٢٥٥٢

وفي رواية «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي، كُلُّكُمْ عَبْدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَحَارِثَتِي وَقَتَايَ وَقَتَايَ»^(١)، قال الخطابي سب المسع أن الإنسان مربوب متعدد بحلاص التوحيد لله، وترك الإشراك معه، فكره له المصداقة في الاسم، لئلا يدخل في معنى الشرك^(٢)

واحداً، القرطبي في المفهم أن المقصود من النهي الوارد في الأحاديث السابقة هو الإرشاد إلى احتياط أحسن الألفاظ في الاستعمال، واجتناب المشترك منها، حتى لا يقع المتكلم في الاحتمال، وهو إرشاد عنده وأدب من غير إيجاب ولا تحريم^(٣)

سب الدهر

الدهر: معناه الليل والنهار وتقلبهما، وتصريفهما، وسب الدهر كان عادة في أهل الجاهلية، وجرى مجراهم كثير من أهل العصر، كان أهل الجاهلية يسبون الأفعال إلى الدهر، فجرى على ألسنتهم من مثل قولهم تَأْ لِلدَّهْرِ، وقد فعل بي كذا، وفعلت بي الأيام كذا، تأ للأيام، يا حية الدهر، فيذموه إن حصل لهم ما سوءهم، ويمدحوه إن حصل لهم ما يسرهم، وقد حرم الله ذلك ونهى عنه أشد النهي، ولدي سب الدهر إنما يسبه لاعتقاده أن له فعلاً وتأثيراً، فهو في الحقيقة كالذي سب الله ﷻ، لأن الفاعل على الحقيقة هو الله تعالى، ولذلك جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «قَالَ اللَّهُ ﷻ يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَقُولُ يَا حَيَّةُ الدَّهْرِ فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ يَا حَيَّةَ الدَّهْرِ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ أَقْلَبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا»^(٤)، وقال ﷻ «لَا تَسُبُوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(٥)

وليس الدهر من أسماء الله تعالى، فإن أسماءه توقيفية، وليس منها الدهر، ومعنى فبني أن الدهر أي أنا الذي أفعل ما يسووه إلى الدهر من التأثير، فإن الدهر ليل ونهار، وأن أقلبهما وأصرفهما

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٤٩

(٢) فتح الباري ٥/٤٨٨

(٣) مفهم ٥/٥٥٥

(٤) مسلم حديث رقم ٧٤٩١

(٥) مسلم حديث رقم ٢٢٤٦

ومن نسب شيئا من الأفعال إلى الدهر واعتقد تأثيره حقيقة كان كافرا دون شك، ومن جرى سب الدهر على لسانه دون أن يعتقد تأثيرا ولا خطر سأل أنه سب الله تعالى، فليس بكافر، ولكنه تشبه بكلام أهل الكفر، وفعل ما بهي الله تعالى ورسوله عنه، فالواحب عليه التوبة والاستغفار، وأن يتعلم من أمور دينه ما يصحح به اعتقاده وعمله

التألي على الله

التألي على الله معناه التحكم عليه بفعل شيء أو تركه، وهو لا يجوز، فإن الواحب البادع مع الله ﷻ في الأقوال والأحوال، وعلى العبد أن يعمل بنفسه بكامل العبودية، ويعطى للمولى قدره، وما يجب له من أحكام الربوبية، فلا يتألى على الله شيء، ولا يتحكم عليه بأنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا، طمأ وتحرص فإنه ﷻ يحكم على عباده ولا يحكمون عليه ويقصى على الخلق ولا يقصون عليه شيء، وممن من الناس ولا يمتكون عليه، ويجير على عباده ولا يجار عليه، قال تعالى ﴿وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ﴾ [الأنعام ١٨]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [قصص ٦٨]، ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البروج ١٦]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «أَنْ رَجُلًا قَالَ وَاللَّهِ لَا يُغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- قَالَ مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَخْبَطْتُ عَمَلَهُ»^(١)

والمألي على الله على هذا النحو، إن كان مستحلا لنفسه حتى التحكم على الله، غير معدود باحتجاج خاطئ فهو كافر، ويكون إحباط عمله الوارد في الحديث، لأجل الكفر وأما إذا لم يكن مستحلا لذلك، وإنما قال ما قال لما عبد عليه من الخوف من معصية الله، فحكم بإفاد الوعيد على العاصي فليس بكافر، ولكنه مرتكب كبيرة، ليأسه وقبوطه من معصية الله، وحمله بمقام الألوهية، فيحمل إحباط عمله على أن هذه الكبيرة التي قترفها ذهب بأعماله الصالحة، ورجحت عنها، فكأنه لم ين له عمل صالح يعتد به^(٢)

أما إذا كان الحلف على الله على جهة حس الظن بالله، ممن يعظم الله ويحشده

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٢٦

(٢) نظر فيهم بعد أشكر من تلخص كتاب مسلم ٦٠٧/٦

ويتفيه، فدلث حائر، وقد وقع ذلك مع علم الله صدقهم وإخلاصهم من عباده المحسرين، وهو معنى قوله ﷺ «رُبَّ أَشْعَثَ، مَذْقُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»^(١)، وقد قل أسس من النصر لرسول الله ﷺ عندما أراد القوم القصاص من الربيع «وَالَّذِي بَيْنَكَ بِالْحَقِّ، لَا تُكْسِرُ نِيَّتَهَا»^(٢)، فأمر الله قسمه، ورصي الطلب بالدبة بعد أن كانوا يريدون القصاص، وكان السراء من مائلك من النصر أحو أسس أحد هؤلاء الدين لو أقسموا على الله لأبرهم، قال يوم حصن تُستر حين اشتد القتال أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم والحقتي سبيك، فأمر الله قسمه واستشهد^(٣)

التشريك في المشيئة والقدرة

مما حمى الإسلام به التوحيد أنه لا يجوز أن يُشرك مع الله غيره من المحبوبات في مشيئته أو قدرته، فلا يقال ما شاء الله وشاء فلان، ولو لا الله وفلان، وأن بالله وبث، كل هذه لألفاظ ورد النهى عنها، لما فيها من تشريك غير الله معه في المشيئة والقدرة

والصواب أن يقال ما شاء الله ثم ما شاء فلان، ولو لا الله ثم فلان، وأن بالله ثم بـث، لما في العطف بـثم من تقديم مشيئة الله تعالى وقدرته على قدرة غيره ومشيئته، بخلاف العطف بالواو، فإنه مبهى عنه، لأنه يقتضي التشريك، فقد حرج السائي أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال «إِنَّكُمْ تُنَادُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ وَالْكَفَى . فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِنْ أَرَادُوا أَنْ يَخْلُقُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبُّ الْكَفَى، وَيَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ»^(٤)

وروى ابن عباس عن النبي ﷺ «إِنَّا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ وَلَكِنْ يَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ»^(٥) وفي رواية «أَنْ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٢٢

(٢) صحاحي حديث رقم ٢٧٠٣

(٣) اعتر الترمذي ٦٩٢/٥، والإصباح ٢٨٢/١، والمعجم ١٠٠/٦

(٤) السائي حديث رقم ٣٧٧٣

(٥) سنن ابن ماجه حديث رقم ٢١١٧

وَبُشِّرَتْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهِ عَذْلًا، بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَذَهُ^(١) وإدراك الشريك نواو العطف في قولهم (لولا الله وأنت) مهيى عنه، فما دلت من لا يذكر الله أصلا ولا يخطر له على بال؟ فيقول لمن أسدى إليه معروفاً لولاك لما كان كذا، أو ليس لي غيرك! فكم في استعمالات الناس للألفاظ اليومية من جفوة ومجانبة للأدب في حق الباري ﷻ!

التوسل الجائز

التوسل ولوسيلة له في اللغة معان، منها الرعة في الأمر والتقرب بالعمل الصالح، كما في قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَدْعُوكَ بِتَقْوَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، أي يتساقون في القرب من ربهم بالأعمال الصالحة ويرعون في ذلك، ومن معانيه أيضا أن يتقرب المتوسل بحرمة أصرة تجعل المتوسل إليه يعطف على المتوسل.

والتوسل الجائز هو التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح ليستجيب دعاء الداعي وهو حائر بالاتفاق، وله وجوه، منها تقديم الصدقة بين يدي الدعاء، ومنها الدعاء في السجود، لقول النبي ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(٢)

ومنها التوسل إلى الله ﷻ بعمل سابق أحلص العبد فيه ثمره، كما في حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة في العار، فتوسل أحدهم بما كان عليه من بر والديه، فإبراهيم عنهم الصخرة قليلا، وتوسل الثاني بالعمة حين طأوعته أمة عنه على نفسها، وخاف الله بعد أن جلس منها مجلس الرجل من المرأة وقام، فإبراهيم فبقلا عما كانت عليه، وتوسل الثالث بنمية الأمانة لصاحبها دون علمه، ففرح الله عنهم^(٣) ومن التوسل الجائز في الدعاء التوسل بدعاء عبد مؤمن حاصر، أو يظهر العيب، لقول الله تعالى: ﴿وَسَلِّ عَلَيْهِمْ إِذْ سَلُّواكَ سَكَتٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي ادع لهم عبد أحد الركعة، ومنه قول النبي ﷺ حين أتاه عبد الله من أبي أوفى بركته: «اللَّهُمَّ صَلِّ

(١) مسند أحمد ١٨٤٢، وضع سنن ٢٤٧/١٤

(٢) مسند حديث رقم ٤٨٢

(٣) البخاري حديث رقم ٢٢٧٢

عَلَى آلِ أَبِي أَوْسٍ^(١)، ولما جاء في الصحيح عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَحَلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ، يُقَالُ لَهُ أَوْسٌ، لَا يَدْعُ بِالنِّسْبِ غَيْرَ أُمِّ لَهْ قَدْ كَانَ بِهِ تِيَاضٌ، فَدَعَا اللَّهَ فَأَذْعَبَهُ عَنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ اللَّيْتَارِ أَوْ اللَّزْهَمِ فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ فَلْيَتَفَرَّغْ لَكُمْ»^(٢). وتوسل عمر رضي الله عنه بدعاء العباس عم النبي ﷺ في الاستسقاء، وقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَيْتَا فَتَنَيْتَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَيْتَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيَقُونُ»^(٣) وقال النبي ﷺ لعمر: «لَا تَتَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَايِكَ»، قال عمر: «فَقَالَ كَلِمَةً مَا يُرْثِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا»^(٤)

ومن التوسل الجائر أيضا بالاتفاق التوسل إلى الله تعالى بأسمائه المحسنة وصفاته المعنى، لقول الله تعالى: ﴿رَبُّوْهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقَى فَادْعُوْهُ بِهَا وَذَرُوا لِيَدِيْكُمْ يُجِدُوْكُمْ وَتَسْمِعُوْهُمْ مِّنْ حَيْثُ تُشَاءُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠]، وفي الحديث عن أسس رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَالِيًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَتَانُ يَبِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(٥)

«وَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَحَلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(٦)

التوسل المختلف فيه

من التوسل المختلف فيه التوسل بذات النبي ﷺ وجهاده عند ربه، بأن يقول

(١) صحاري حديث رقم ١٤٩٨

(٢) مسلم حديث رقم ٢٥٤٢

(٣) البخاري حديث رقم ١٠١٠

(٤) مس أبي داود حديث رقم ١٤٩٨

(٥) أبو داود حديث رقم ١٤٩٥

(٦) الترمذي حديث رقم ٣٤٧٥

الداعي اللهم استجب لى دعاء نبيك محمد ﷺ، وهذه الصيغة في الدعاء لم تكن معهودة عند الصحابة، ولا التابعين، ولا متعارفا عليها بينهم. فمن العلماء من معها، وقد لو كانت حادثة لأرشد النبي ﷺ إليها أصحابه، ولقدّموها بين يدي دعائهم، ولنفس إليه، لأنه لم يترك باباً للخير إلا ودلهم عليه، ولم يرد عنه ﷺ ما يحمل أن يدل عليها إلا حديث واحد، وهو حديث الصريير، فعن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضرييراً البصر أتى النبي ﷺ فقال ادع الله أن يعافيني قال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال فادع، قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجّهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فقمه في^(١)

هذا الحديث، صححه أكثر الحفاظ، ومن العلماء من أعده، سداً ومسا، لعدة أمور؛ منها جهالة أحد رواة^(٢)، ولأن في قصته «وأن عثمان كان يحجب عن رعيه»، وعثمان رضي الله عنه لم يكن يحتجب عن الرعية، بل كان يجلس على المصططب بعن الدس الوضوء، ومنها قول الرجل للنبي ﷺ عند اس حريمة والحاكم اللهم شفعه في شفعي فيه^(٣)، وهذا خطأ ظاهر، إذ كيف يشفع الرجل في النبي ﷺ؟ إلا أن يكون المراد بالشفاعة سؤال الدعاء، بمعنى أن الرجل يدعو نبي ﷺ، والنبي ﷺ يدعو للرجل برب بصره، فيصح الكلام، ولا يكون في الحديث حيتد دلالة على المطلوب؛ لأن التوسل بدعاء الغير حائر بالاتفاق، وقد روي عن الإمام أحمد في هذا النوع من التوسل بالنبي ﷺ خاصة قولان بالسمع والجوار، وقيل رواية الجوار عنه محمولة على السؤال بالإيمان به ومحضته، لا بذاته، فلا تكون من محل الرابع^(٤)

التوسل المحظور

منع الشريعة العلن بغير الله في كشف الضر وتغريح الكرب، وسعت اتحاد

(١) الترمذي حديث رقم ٣٥٧٨، وانظر تحفه الأحادي ٢٥/١٠

(٢) وهو أبو جعفر، قيل هو الحطمي، وهو قه، وقيل هو الراري وهو صدوق سيء الحفظ نظر تحفه

الأحادي ٢٤/١٠، وتقريب التذهب رقم ٨١٩

(٣) صحيح ابن خزيمة ٢/٢٢٥، والمستر ١/٤٥٨ تحفه مصطفى عبد قدار

(٤) انظر فاعلة حده في التوسل والتوسل من ٦٣ ٩٤

الوسائط والشفعاء من دون الله، قال تعالى ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ مَكِينًا لَا يُمْكِنُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ثُمَّ مَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الرسم ٤٣، ٤٤]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعَيِّ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم ٢٦] والشفاعة معها الطلب من الله عن طريق غيره، فمنعهم القرآن من ذلك وأمرهم أن يطلبوا الشفاعة ممن يملك الأمر كله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الرسم ٤٤]، وبين لهم أن شفاعة غيره لا تعي شيئاً إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

ومن قال إن هذه الآيات وأمثالها خطاب لأهل الجاهلية الذين يعدون الأوثان، وليس في أهل التوحيد من يعد الأوثان، يقال له. نعم، هي لهم، ولكن القرآن ذكر ما كانوا عليه لسحدير من عملهم، وللاعتار بحالهم، فلا يجوز لمستم أن يفعل فعلهم، ويشبه بهم، فقد قال ﷺ «خالقوا المشركين»^(١)، وقال ﷺ «خالقوا اليهود»^(٢)، فمن فعل فعلهم أو شابههم في أحوالهم أصابه ما أصابهم، وانقران ليس حصصاً بأمة من الناس، ولا عصر من العصور ﴿لَا تُدْرِكُهُ يَدٌ وَمَنْ يُلَاحِظْ﴾ [الأنعام ١٩]، إلى قيام الساعة، وقد قال الله تعالى خطاباً للمؤمنين ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذْ دَعَانِ﴾ [البقرة ١٨٦]، فلم يرشد المؤمنين أهل التوحيد إلى شفعاء وسائط إلى الله تعالى، وقد حاطب النبي ﷺ ابن عباس، وهو من أهل الإيمان، فقال له «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(٣)

إن الداعي لا يحتاج إلى واسطة لسمع الله تعالى دعاءه، مهما كان بعده من ربه في العصور، إن الشيطان بعد أن طرد من رحمة ربه وأبعد، دعا ربه بدون واسطة وأحيب، ولم يُلحجْ إلى الملازمة بتقرب بهم ليحيب الله تعالى دعاءه، بل ﴿قَالَ أَطْرِقْ﴾ [يَوْمَ تَقُفُّونَ ﴿٧﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر ٣٧]، والمشركون ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَحْمَسْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ لَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس ٢٢]، فاستجاب الله

(١) صحري حديث رقم ٥٨٩٢

(٢) سنن أبو داود حديث رقم ١٥٢

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ٢٥١٦

تعالى لهم، كما أحبر سبحانه ﴿وَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ إِدَّاهُمْ يَسْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَنِّ الْحَقِّ﴾ [يونس ٢٣] والمؤمن مهما كان ضالا فهو أسعد حالا برته، وأرجى لرحمته من إديس وحبوده

ومن مقاصد الالتجاء إلى المخلوق فيما هو من شأن الحادث أنه حتى مع التسليم بما بدعيه أولئك من أفراد الله تعالى بالصر والنع، فإن التوسط بالشفعاء فيه تشبه بأهل الشرك والجاهلية، فإنهم أيضا كانوا يقولون عن الأوثان ﴿مَا عَبَدُوهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر ٢٣]، ولم يكونوا يعتقدون قط أن للأوثان قدرة على الحيل والصر والنع، ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَ اللَّهُ﴾ [لقمان ٢٥]، ثم إن شدة التعلق بالوسائط والشفعاء من الأولياء والتماذي على ذلك بحيث تنهض بهم الألسنة كما هو مشاهد ويذكرون وينادون ويستعاث بهم ويسئ الحائق تدرج وتعالى يهديه أن يصل بأهله إلى ما وصل إليه حال أولئك الذين ذكرهم الله ﷻ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر ٢٥] وذلك الشرك بعينه

الاستغاثة بالمخلوق

لا يجوز لأحد أن يستغيث بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، فلا يستغيث المسمم بالنبي ﷺ ولا بالملائكة، ولا بالصالحين، فلا يجوز لمن وقع في كرب أو ضيق، أو محنة أن يقول يا محمد، ولا يا عبد السلام، ولا يا بدوي، ولا يا ابن عيسى، قد تعالى عن المشركين ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الْعِبْدُ فِي النَّارِ صَدًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا بِنَاءِ﴾ [الإسراء ٦٧]، وقال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر ٣٦]، وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَسْكُوتُ مِنْ فَتْمٍ ۚ إِنَّ دَعْوَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَهُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر ١٤]، وقال ﷻ «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعِذْتَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ»، وفي الحديث الصحيح إن العال يأتي يوم القيامة يقول يا رسول الله، أغثني، فأقول لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك^(١)، فالاستغاثة بعير الله تدفع الضر لا تجوز بحال من الأحوال، وأهل الجاهلية على كفرهم وشركهم كانوا يعد الكرب والضرع

(١) البخاري حديث رقم ٣٠٧٣

خرج مالك في الموطأ عن النبي ﷺ أنه قال «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١) وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، قال رسول الله ﷺ في مرصه الذي لم يقم منه «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» لولا ذلك أُنْزِرَ قَبْرُهُ، غير أنه حشي أو حُشِيَ أَنْ تُسَحَّدَ مِنْهُ»^(٢)

وقال ﷺ «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٣)، وقال ﷺ «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ»^(٤) وعندما ذكر أم سمية وأم حبيبة رضي الله عنهما لرسول الله ﷺ كيسة رأتها في العشة فيها تصاوير، قال «إِنْ أُؤْتِيتُ إِذَا كَانَ بِهِمُ الرَّحْلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَتُوا عَلَى قَبْرِ مَنْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥)

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الأصنام التي عدها الناس في الجاهلية (وَدَّ وسُواعَ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرَ) كانت أَسْمَاءَ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انصُبُوا إِلَى مَجَالِيهِمْ الثِّيَابَ كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوَهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَشَحَّ الْعِلْمُ عُبِدَتْ^(٦)

وقد تهلك العامة على تعظيم القصور وإقامة الأعياد عليها، اتساعا للمألوف وهوى النفوس، وترويض العاقلين، ووعود الجاهلين، معرضين عن هدي النبي ﷺ، غير ما ليس بتحديده وبهية، قال تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التور: ٦٣]

(١) حوطاً حديث رقم ٤١٦

(٢) مسند حديث رقم ١٣٩٠

(٣) حوطاً حديث رقم ٤١٦

(٤) مسند حديث رقم ٥٢٣

(٥) مسند حديث رقم ٤٢٦

(٦) مسند حديث رقم ٤٩٢٠

النذر للأضرحة والذبح عندها

حذر الإسلام من الذبح عند القبر، وجعله من عادات الجاهلية، فلا يجوز لمسلم أن يسوق حيوان ليدبحه في مكان من الأمكنة، تركا بذلك المكدر، لا سدر ولا بغيره، إلا إلى مكة في حج أو عمرة، قال ﷺ «لا عُقْرُ فِي الْإِسْلَامِ»^(١)، ودلت حمية للتوحيد، لأن النذر والتقرب بالذبح عبادة، والعادة لا تكون إلا لله، فمن توحه بها إلى غير الله فقد صل صلا لا عبدا، وسب هذا الداء ما يشهد في بلاد المسلمين من تعظيم الأضرحة، والتأكل باسمها حتى صار حراسها يتقدمون على حرائنها، وعلى الدور التي تقدم إليها من الجاهليين والعافيين

فيحب على العلماء وعلى كل من أعطاه الله فهما وعقلا من عمة المسلمين إنكار تشييد هذه الأضرحة، وما يقام فيها من احتفال وعادات، واستدخه، والرحر عنه أشد الحر قبل موت الأوان، فلا يجوز لمسلم فعل ما ذكر، ولا حضوره ولا الرض به، ولا السكوب عنه ما أمكه ذلك، لأنه من السكر العظيم، الذي يؤدي إلى الهدم بعقائد المسلمين، ويقاص التوحيد

(١) مسر أبي دود حديث رقم ٣٢٢٢

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مآذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

من مظاهر ضعف الإيمان

التطير والتعاؤل:

التطير أصله: الشيء المكروه من قول أو فعل، أو رؤيه شيء لُمرء، فبتشام من ويوقع حدوث المكروه به. وكان أهل الجاهلية يعولون في مجريد حياتهم على هذا الداء كثير، وبرون الأقدار تبعاً لما حصل لهم من تشاؤم أو تفاؤل، فكانوا يتعمرون الطيبي والطائر وهي السوانج والبوارج إذا أردوا أمراً له بال كسفر ونحوه، فإن أخذت عند انطلاقها ذات اليمين تماءلوا واطلقوا، وأقدموا على أمرهم، واعتقدوا فيه الخير والربح والجاه. وإن أخذت السوانج والبوارج ذات الشمال أحجموا وتركوا ما عزموا عليه، واعتقدوا فيه الشر والهلاك. وكان تصدهم ويشي عرثهم كمة سمعونها لا تعجبهم، أو طير غير من فوقهم، وإذا سقطت الهامة، وهي طائر البوم أو غيره على بيت أحدهم تشام به، ورآه داعياً إليه نفسه، أو أحداً من أهله، فقال لهم النبي ﷺ: **«لَا عَذْوَى وَلَا صَفَرٌ وَلَا هَامَةٌ»**^(١)

كما كنت تصدهم الأرقام التي كان لها أيضاً حظ في اتحاد فرقاتهم، فإذا حرحت قطعة الخشب (نُرم) من الوعاء مكتوباً عليها، امص، بمص إلى سبيله، وإن حرحت مكتوباً عليها لا تمص، لا تمص في أمره مهما كانت حاجته إليه شديدة، وبرى في محاولة الرلم الهلاك المحقق، وكل ذلك من رحس الشيطان الذي أمر الله تعالى باحتشابه

والتطير والتعاؤل ماف لتوكل على الله وماف للإيمان بالقدر الذي سقى في عدم

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٢٠

الله أن سيكون، وأنه لا بد أن يكون كما علمه، لا يتأخر ولا يتقدم، لا يوقعه تطير ولا بدفعه تصاوب، قال تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الاحزاب ٣٨]، وقال تعالى ﴿بَنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الوعد ١١] وقد قال تعالى ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَصِيرَ مَا كُنْتَ عَلَيْهِمْ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام ١٧٠].

وقد حرم الله تعالى التطير على هذا النحو، وشرع للأمة التوكل على الله، والأخذ بالأسباب المشروعة، وترك الوسائل الممنوعة، كما شرع لهم فيما السس عليهم أمره من الأمور الجائرة الاستحارة بالالتجاء إلى الله، والاعتماد عليه والثقة بحتيده، والحروح من عهدة النفس، والتبري من الحول وال طول، إلى حول الله وقوته ومراده، فكان النبي ﷺ يعلمها أصحابه في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن^(١)

وقد بقي في الناس بعض من تطير الجاهلية، فأهل المدن يستدلون بالأرلام التطيع في الأراح والحظ، ويتقيدون بما قاله المنجم والمتنبئ الكذاب، حتى إن من الصحف والمجلات التي يتولاها من له في معتقدات الجاهلية نصيب لها رواية شنة، بعنوان (حظك هذا اليوم). وأهل البادية يكثر فيهم ما يسمونه فتح الكتاب، وحط الرمل، وما يسمونه (السَّير) العادة المتبعة ومعناه أن الواحد لا يستطيع أن يفعل أمرًا معه (لشبر) على الرغم من مشروعيته، ويعتقد أنه لو فعه لوقع له مكروه، وكذلك يحب عليه أن يفعل ما أوحى عليه (السَّير) مع أنه غير واجب، لأنه يخشى من وقوع المكروه لو لم يفعله.

فمثلا لا يستطيع أحدهم أن يصع حجر الأساس لسا بيت إلا إذا أسال الدم عليه، ودبح دجحا ولو دحاجة، فأحلف أساساته بالحجاسة، وهو ما يؤكد أن العمل من الشيطان، لأنه يحب الحشوش وسكى أماكن الحجاسة، ويعبر من الطهارة وكذلك لا تدخل الروحة وهي عروس بيت الروح إلا إذا دُبحت تحت قدميها شاة، ولا بد أن يأكلوا يوم المولد عصيدة، وإلا وقع المكروه.

وعددت الناس في ذلك كثيرة، لا يحصرها عد، وكذا من صعب الإيمان

(١) حديث الاستحارة في البخاري مع فتح الباري ٤٣٨/١٤

ومحتمل الجاهلية، والواحب على المؤمن بالله وحده الحاصص لقصدته وقدره، أن يترك ذلك كله ليسراً من التشبه بأهل الجاهلية، ومعتقداتها الفاسدة، ويعتصم بالله وحده لا شريك له، فإنه لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع الشر إلا هو، ولا يقدر أحد غيره على أن يقدره أمراً أو يؤخره، أو يوقع صراً، أو يدفعه، فلا يقع شيء في الدنيا، ولا في الآخرة إلا ما علمه وقدر وقوعه في الوقت الذي أراد، ولا يدفع شيء إلا ما دفعه، ﴿ثُمَّ يَنْجِ اللَّهُ الْتَّائِبِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ فَلَا تُشْرِكُ لَهُمْ وَمَا يُشْرِكُ فَلَا تُرْسِلَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر ٢٦]، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ بِقَوِّهِمْ سُوءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الرعد ١١]، ولو سأل أحد ممن يعمل الأعمال السابقة لأقر لك بهذا التوحيد، وبالإيمان بالقضاء والقدر، وسلمه تسليماً كاملاً، ولكنه عند التطبيق يترك ما علمه، ويطلق ما ألهه وورثه عن ذويه، دون أن يعيه

ومن دفع الحرج في الشريعة أن الله تعالى عما يحظر على السال من التطير لأول حادثة سبب أمر من الأمور، لأن إزالته عن النفوس غير داحضة في الاستطاعة، ودلت شرطه أن يسارع المكلف إلى الإعراض عنه، ويتكل على ربه لينجو من أثره، ففي حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «الطَّيْرَةُ مِنَ الشَّرِّكِ، وَمَا مِثْلُهَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنَجِّبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»^(١)

ولما قد معدوية بن الحكم لرسول الله ﷺ: «... وَمَتَارِجَالِ يَطْطِيرُونَ، قَالَ ذَلِكَ شَيْءٌ يَحْدُوهُ فِي صَدُورِهِمْ فَلَا يَصُدُّهُمْ»^(٢)، فمن وقع له شيء من التطير في صدره، ولم يعو عن عيه بل مضى في سبيله متكلاً على ربه لا يؤم عيه، وعيه أن يقول كما أرشد رسول الله ﷺ عندما ذكرت عنه الطيرة، فقال: «أَحْسَهَا الْقَالَ، وَلَا تُرَدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مَا يَخْشَاهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَذْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(٣)

أما ما ورد في حديث عبد الله بن عمر وعيره أن رسول الله ﷺ قال: «لَا عَذْوَى

(١) مسر سريدي حديث رقم ١٦١٤

(٢) مسلم حديث رقم ٥٣٦

(٣) مس أبي دود حديث رقم ٣٩١٩

وَلَا طَبِيرَةَ، إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثَةٍ، فِي الْقَرْسِ وَالْمَرْأَةِ وَالْمَذَارِ^(١)، فليس هو على معنى ما كذب تعتقده الجاهلية من أن الطيرة تؤثر بذاتها، وإنما المعنى أن هذه الثلاث الدار والمرأة والفرس، أشد ما ينشأ من الناس به عادة وطعنا، لملازمتها لهم، ومن وقع به شيء منها، كأن كره الدار، لما سمعه عنها ممن سكنها قلبه من إصابتهم بالأذى، أو كره المرأة ولم يتقبلها لسبب من الأسباب، أو الفرس لأنه يصرع راكبه، وتشاءم بما ذكر وتطير، فإن الشرع أباح له أن يترك ما تطير منه على خلاف القاعدة في التطير، ولا يكرهه الشرع على المقام في بيت، أو مع امرأة يكرهها، فإن ذلك من الصرر اللين، لكن مع اعتقاد أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، وليس لتطير منها أثر في جلب نفع أو دفع ضرر^(٢)

المنافق المشروع أن يستبشر المرء ويستر عند رؤيته ما يحب، ويتوقع قدر الله تعالى على وفق ذلك، فقد كان النبي ﷺ يعجبه الغال الصالح والاسم الحسن، وكان يعجبه إذا حرج لحاحته أن سمع يا راشدا، يا نجيح^(٣)، وكان إذا بعث أحدا أو جاءه رسول سأل عن اسمه، فإذا أعجبه اسمه فرح به، فعندما أرسل المشركون يوم الحديبية في المرة الثانية سهيل بن عمرو، ليفاوض المسلمين، استشر النبي ﷺ وتفاء، وقد «لقد سهل لكم من أمركم»^(٤)، وذلك لأن الغال الحسن تشرح به النفس، ويستتر به القلب، فيحسن الظن بالله تعالى، ويتوقع قدره على ما تحبه النفس، قد الله تعالى في الحديث القدسي «أنا عند ظن عبدي بي»^(٥)

المدوى

كان أهل الجاهلية يعتقدون أن المريض إذا دخل على الأصحاء واختلط بهم، مرضهم فعلة وتأثيره، والشبهة الحاملة لهم على ذلك ذكرها قاندهم نبي ﷺ بقوله

(١) صحاري حديث رقم ٥٧٧٢

(٢) نظر حقهيم ٥ - ٦٣٠

(٣) نظر سمرندي حديث رقم ١٦١٦

(٤) صحاري حديث رقم ٢٧٣٤

(٥) صحاري حديث رقم ٧٤٠٥

«فَمَا بَالُ الْإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الطَّبَاءُ، فَيَجِيءُ الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَعْرِبُهَا كُلَّهَا»^(١)

فأطلق النبي ﷺ شهنهم بكلمة واحدة، وقال لهم «فَمَنْ أَغْدَى الْأَوَّلُ»، فهو كدست العدوى هي المؤثرة بنفسها فمن الذي أمرص الجمل الأول الذي لم يحسب بعيره؟ دون الأول مرض دون أن يعديه أحد، فلابد أن يكون المؤثر والممرض على الحقيقة قدرة أخرى غير العدوى، وهي قدرة الحائى ﷻ، الذي بيده الأمر كله ولا يُرد قصده.

أما قوله ﷺ بعد ذلك في الحديث. «لَا عَذْوَى، وَلَا طَيْرَةٌ، وَلَا هَامَةٌ، وَلَا صَفَرٌ، وَفَرٌّ مِنَ الْمَخْدُومِ كَمَا تَقُورُ مِنَ الْأَسَدِ»^(٢)، وقوله ﷺ «لَا يُورِكَنَّ مُنْرَضٌ عَلَى مُصْبَحٍ»^(٣)، فهذا من أمر العباد بأحد أسباب ما ينفعهم، وترك ما يكون سببا في ضررهم بحسب العادة الكونية، التي يوجد الله تعالى مسابها عند حدوثها.

ففى النبي ﷺ اعتقاد الجاهلية من أن للأسباب قدرة وتأثيرا نفسها، وأثبت للأسباب رتبا ظاهريا بمسابها على حسب الشئ التي مسها الله في الكون، من إيجاد المسبب عند وجود السبب، لتصح للناس أعمالهم ونصراتهم، فيؤخروا عيها ويعاقبوا.

وليس في الحجر الصفى وعزل المريض عن الصحيح، أو عزل من به مرض معد حسب العادة عن سائر المرضى، ليس فى هذا العزل مخالفة ولا مضادة لشرعة، إذا أحدث العدوى على أنها أسباب معتادة قد يحدث عندها المرض إذا أراد الله تعالى، بل هذا العزل مطلوب ومأمور به شرعا، لما فيه من العمل بالأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى للخلق، ورتب بمقتضاها العقاب والثواب والصالح والفساد، والله يفعل ما يشاء ويختار^(٤)

استطلاع الغيب بالكهانة والأبراج وتنزيل الخاتم

الغيب كل ما عاب علمه عن العيان، سواء فى ذلك ما يتعلق بالمستقبل، مثل

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٢٠

(٢) ذكره سعدى تلمذ بصحة الخبر فى كتاب الطب (باب الحدا)، ومسلم أحمد حديث رقم ٩٤٢٩

(٣) سعدى حديث رقم ٥٧٧١

(٤) انظر شرح النووي على مسلم ٢١٣/١٤

الإحبار بما سيحدثه الله من موت فلان، أو رواجه بفلاتة، أو طلاقه، أو سفره، أو عده، أو فقره، أو علاء الأسعار، أو وقوع فتس أو قتل، أو دوام منس أو انقطاعه، أو حدوث حذب أو حصص، إلى غير ذلك من أحوال الناس وأسرارهم لا يعلمه إلا الله. وكذلك ما تعلق بالماضي، مما وقع من أحوال الناس وأسرارهم التي ستروها عن غيرهم، كالإحبار عن السحر، أو موضع السحر، أو عن السرور، إلى غير ذلك.

والدليل على أن الغيب يشمل ما تعلق بالماضي كما يشمل المستقبل ما بني ١ أن الله سمى ما وقع من عدم اطلاع العج على موت بني الله سيمان ﴿عَبْدُ﴾ عيب، وهو أمر متعلق بالماضي، فقال تعالى ﴿فَلَمَّا قَسَيْبًا عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَفَعَهُ عَلَىٰ مُوْبِهِ إِلَّا دَبَّهُ الْأَرْضُ تَأْكُلُ يَسَافِرُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ لِقَارُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَبَّ مَا إِشْرُ فِي الْعَذَابِ لَمْ يَهَيِّ﴾ [سبا ١٤]، والآية تدل على أن العج أيضا مثل الإس، لا يعمون العيب، فلا يجوز سؤالهم عن أسرار الناس وأحوالهم، ولا يجوز الجرم بصدق ما أحرروا به، لأنهم يكذبون، وفيهم أشرار، وفيهم كهنة كما في الإس، لا يجوز تصديقهم، قال تعالى مخبرا عن قول العج ﴿وَمَا بِنَا الصَّيْحُونَ وَمَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ مَدَدَا﴾ [العج ١١]، وقال سبحانه ﴿وَأَنْ يَمَّا الْعَسْلُونَ وَمَا تَلْفِطُونَ قَسَّ أَسْمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الحج ١٤]

٢ قد تعالى عما أعطاه لعيسى عليه السلام من معرفة ما نستره الناس في بيوتهم ﴿وَأَبْنَيْكُمْ يَمَّا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْجِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران ٤٩]، فجعل الله تعالى إحبار عيسى عليه السلام، عما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، معجزة له من دلائل سوته عليه السلام، التي لا يطلع عليها إلا من أوحى الله إليه، فهو كاد ادعاء معرفة ما وقع بين الناس ممكنا لأحد الناس، ولا يعد من التعجب بالعيب، لما جعله الله آية لنبيه، ومعجزة دالة على صدقه.

أما حكم استطلاع العيب بالحساب وتزويل الحاتم وحط الرمل والظر في (الفحاح) والمجوم، فالذين يفعلون هذا هم الكهان الذين أضلهم الله، وأعواهم الشيطان، فاتبعوا سبيله، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إتيان الكهان، فقال «فلا تأتوا

الكهان»^(١)، فلا يجوز الذهاب إليهم، وإن كانوا يقرءون القرآن، فقد يقرأ القرآن من لا حير فيه. ومن أُنَاهم معتقدا صحة ما يخبرون به، فقد كفر بما أمر الله عليه محمد ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ

أما هم أنفسهم، فمن ادعى منهم مشاركة الله تعالى في علم عبده، بواسطة صرب حص، أو تنجيم، أو تيريل حاتم، أو غير ذلك، فقد كفر بالله وكذب قوله، قال تعالى ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل ٦٥]، وقال تعالى ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام ٥٩]، وقال تعالى ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنٌ فَلَا تُطَهَّرُ عَلَى غَيْبِهِ لَعْنٌ ۖ إِلَّا مَنْ تَرَضَّى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الحج ٢٦]، وقد ﷺ «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»^٢ ولا يعتبر أحد بما يخبرون به مما يوافق الواقع، فإن إخبارهم بشيء من المعينات، هي جمل تلقيا إليهم الشياطين، قليل منها يوافق الحق، فيمررون به ما يشاءون من الكذب يضللون به العباد

فلا حائر أن يخبر أحد غير الأنبياء صلوات الله عليهم، شيء من المعينات، على وجه الحق والصدق، إخبارا متواليا فيه تفصيل ووصوح، من غير أن يحسنه عنط وكذب، ولد فإن عادة الكهان أن يعطوا جملا مقتضة، وأخبارا مجمدة، محممة لوحوه محتمة، كما وقع لابن صياد اليهودي حين حث له النبي ﷺ شيئا من سورة الدخان في كُفِّهِ، وهو قوله تعالى ﴿قَرِيبٌ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان ١٠]، وكان ابن صياد يتكهن ويدعي النبوة، فقال ابن صياد هو الدح أي الدخان فقال له النبي ﷺ «أخا فلن تغدو قلدرك»^(٣)، يريد إنك لا تقدر على أكثر من ذلك، ولا يمكنك أن تأتي بالأشياء على تفاصيلها، كما يحجر الأسيء الموحى إليهم، وإنما تلقى إليه الكلمة تصادف العيب فإذا طلب منه أكثر منها، أصدف ما شاء من الكذب، فإن ابن صياد لم يقدر على أن يأتي بأكثر من كلمة الدخان ناقصة، فقال الدخ

(١) مسلم حديث رقم ٥٣٧

(٢) مسلم حديث رقم ٧١

(٣) مسند حديث رقم ١٣٥٥

ومثله أبيض ما وقع له رقل وكان كاهناً، وقد أصبح ذات يوم حيث النفس فسأله عن ذلك فقال: «لاني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر»^(١)، أي عيب، فقد أخبر بهذا الخبر المجمل الذي حيره وقص مصعبه، وحشي منه على منكه، ولم يقدر من حجة الكهانة على معرفة أريد من ذلك، كعنة النبي ﷺ وصفته وظهر أمره، وما ينتهي إليه شأنه ومتى يكون ذلك

وصعيف الإيمان إذا ألقى إليه العراف والكاهن الكلمة المبهمة المحممة، فسره على الوجه الذي يريده من الإحار بالعبث، ووقع في قلبه تصديقه في كل ما أخبره به بعد ذلك من الكذب والتخليط، وربما حووه من وقوع أمر له إن فعل كذا، أو لم يفعل كذا، وربما فرض عليه مالا، فدفعه حائفا أن يقع له المكروه، فيعتقد بذلك بعم العراف وضربه

فحذر من تصديق أمثال هؤلاء، واحتياط أمرهم، وليكن لدى المؤمن من اليقين والإيمان ما يرد به كيدهم، مقتديا برسول الله ﷺ في قوله لابن صياد: «أخا قلن تعدو قلدرك» وله كفيلا أن يكفيه باليقين والإيمان كل مكروه

وأما قول الله تعالى: ﴿فَكَفَّرَ نَظْرَهُ فِي النَّجْمِ﴾^(٢) فَقَالَ ابْنُ سَقِيمٍ: [المصادات ٨٩]، فليس هو من الكهانة في شيء، وإنما معناه أن إبراهيم عليه السلام نظر إلى السماء والنجوم، وفكر في عكوف قومه على عبادة الأوثان، فقال لهم ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، معتبرا عن الخروج معهم في يوم عيدهم، كما قال أهل التفسير، يُفْرَعُ في عيشتهم لكسير أصنامهم، مستعملا في ذلك معاريف الكلام، التي فيها صدوحة عن الكذب

فقد عسى هو سُقِمَ ما أصابه من العم، من عكوف قومه على عبادة الأوثان، وإعراضهم عن عبادة الله، وفهموا هم من السقم، المرض الجامع من الحروح معهم فعندوه، وهو معنى ما ورد في الحديث: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، اثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ ﷻ، قَوْلُهُ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ ﴿لَا لَكُمْ كِبْرُؤُهُ هَذِهِ﴾^(٣)، اثْنَتَيْنِ مِنْهُمَا فِي ذَاتِ اللَّهِ، إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فليس المراد حقيقة الكذب، وإنما هي المعاريف يُتَقَى بها الكذب، ويوصل منها إلى العرص

(١) البخاري حديث رقم ٧

(٢) البخاري حديث رقم ٢٢٥٨

وأما قول معاوية بن الحكم السلمي للمسيح عليه السلام «... وما رجال يخطون»، فقال له المسيحي عليه السلام «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك»^(١)، فقد اتفق العلماء على أن الحديث بعيد تحريم الخط، والمبني على لا إباحته، فإن معناه إذا عظم نقيب موافقة الخط لعيب، كما علمه ذلك المسيحي بخطوا، وهذا لعدم لا سبيل له إليه، فلا يكون الخط مباحا في حقا، لأنه معلق على أمر متعذر الحصول

(لو) تفتح عمل الشيطان

الرضا بالقضاء من أركان الإيمان، والمسلم قبل وقوع القضاء مطالب بأمرين

١ الاستعانة بالله والتوكل عليه، والالتجاء في كل أمر إليه

٢ لأحد لأسباب محرم وذلك بالجد والحرص على ما يفعله في أمر دينه ودينه، فلا يعجز ولا يتعذر بالتقدير، ولا يفرض في ما يقدر عليه من عمل، بل تكون همه عالية وعزمته قوية، وإرادته صلبة، في تحقيق ما يفع به نفسه ويضع الناس، وسهص بأمر المسلمين. قال عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، اخِرْصْ عَلَى مَا يَفْعَلُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ» أما بعد وقوع القضاء، فالواجب هو الرضا بالقضاء، والتسليم لما قدره الباري عليه السلام، والإعراض عن الماصي وعدم ذم من نفع، أو وقع من ضرر، قال تعالى ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [التعبيد ٢٣]، وقال عليه السلام «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(٢) فيكف المسلم نفسه عن التكبر فيما فاتته وفي أسنانه، ويقطع عنها وسوس الشيطان، فإن استرسال الفكر فيه يؤدي إلى التسخط ورد القضاء، ولا يزيد القلب إلا هما وحربا، لأنه يفتح على النفس باب اللوم والندم والأسف، وتصح به (لو) عمل الشيطان، لو فعلت كذا لكان كذا، فيسد بذلك التأثير إلى فعله وقدرته وعمله وعلمه وحيرته، ويسبى قدرة ربه كما كان حال قارون، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِزِّي﴾ [القصص ٧٨]، وكما كان حال المصافقين يوم أحد ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران ١٥٤]، فظنوا أن فعلهم بالحروب أو عدمه بمعهم

(١) مسلم حديث رقم ٥٣٧

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٦٤

من الموت، فرد الله تعالى عليهم. ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُؤْتِكُمْ لَمَرًا لَّبَيْنَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ
لَقُلُّوا إِلَىٰ مَكَلِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

المسلم بعد وقوع القصاص، عليه أن يادر إلى الرضا والسبب، لكن بقية قبل
لسانه، ويكون قوله باللسان قدر الله وما شاء فعل تعبيراً عما أصلاً به فيه من
الإيمان والوص، ولا يقول لو كان كذا لكان كذا، فإن لو تصح عمل الشيطان،
والسحط على القصاص

واستعمال (لو) ليس دائماً مذموماً، وإنما يكون مذموماً إذا كان في سياق
الاعتراض على القدر كما تقدم، أما إذا كان الغرض الإرشاد وبيان الحكم لما يقع في
المستقبل، فلا خلاف في حواره، فقد طلق به النبي ﷺ قال «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي
مَا اسْتَنْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْ لَا أَنْ مَعِيَ الْهَدْيَ لَأَخْلَلْتُ»^(١)، وقال ﷺ «لَوْ كُنْتُ
رَاحِجًا أَحَدًا بِغَيْرِ بَيْتَةٍ لَرَحِمْتُ فَلَانَهُ»^(٢)

لا يقال هلك الناس

من الجهل بالله الناتج عن ضعف الإيمان الحكم على الناس جميعاً بالهلاك، وهو
من الحكم على الله تعالى بوقا ط الناس من رحمته، والناس لا يهلكون جميعاً إلى
أن تقوم الساعة، ولا تزال طائفة من الأمة على الحق كما جاء في الصحيح^(٣) وفي
الصحيح من حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ
النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»^(٤)، روي بضم الكاف (أهلكهم) ومعناه أن القدر أحق بالهلاك،
وهو أشدهم هلاكاً إن قال ذلك محقراً لهم ومعجاً بنفسه ومذكياً لها

ويروى (أهلكهم) بالفتح، ومعناه أن الذي قال ذلك هو الذي أهلكهم، ولم يهلكهم
الله تعالى، وهو متأثر على الله تعالى، ومقط للناس من رحمة الله ﷻ، وموقع
لهم في الهلاك

(١) معدي حديث رقم ١٦٥١

(٢) سنن مسجده حديث رقم ٢٥٥٩

(٣) مسلم حديث رقم ١٥٦

(٤) مسلم حديث رقم ٢٦٢٣

قد القرطبي في المفهم «ولا يدخل فيه من قال ذلك على جهة الشفقة على أهل عصره، وأبهم دلالة إلى من تقدمهم من أسلافهم كالأهاليين، فإنها عادة حارية في أهل الفصل والعزم، يعظمون أسلافهم ويلومون بالتقصير والتعريض من بعدهم في باب التدكير والموعظة، ليقنّدي اللاحق بالسابق كما قال الحسن عليه السلام لقد أدركت أقواماً لو أدركتموهم لقلتم. مرضي، ولو أدركوكم لقالوا. هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب»^(١)

وهذا الحديث فيه رد اعتقاد الخوارج وأهل التكفير الذين يقولون بهلاك الناس جميعاً، فلا يصلون معهم الجماعات، ولا يعتدّون لهم بعمل ويرون الحروح عليهم وقداهم، فإن القائلين ذلك هم الذين أهلكوا الناس ظلماً وتحكماً على الله تعالى، وليس الله هو الذي أهلكهم، لأن الله تعالى حكم بأنه لا تزال طائفة من الأمة على الحق لا يضرهم من خالفهم، وهؤلاء يكذبون ذلك ويحكمون بهلاك الأمة^(٢)

تعليق الدعاء على المشيئة

المسلم مأمور في جميع ما يريد فعله أن يتراءى من حوله وقوته، وأن يعقنه على مشيئة ربه، كما قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا شَاءُوا إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَدَا﴾ [الكهف ٢٣]، ويستثنى من ذلك أمور الإيمان والدعاء، فلا يقل أحد أنا مؤمن إن شاء الله، ولا يقل اللهم اعمر لي إن شئت، فحق الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال **لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيُغْرَمَ الْمَأَلَّةُ فَإِنَّهُ لَا مُكْرَمَةَ لَهُ**^(٣)، قال ابن عبد البر «لا يجوز لأحد أن يقول اللهم أعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، لأنه كلام مستحيل لا وجه له، لأنه لا يفعل إلا ما شاء»^(٤)

وسبب النهي عدم الجرم بالدعاء وتعليقه على المشيئة أن التعيين يتضمن فور الرعة في المطلوب، وعدم المسالاة بما إذا حصل أو لم يحصل، فكان الداعي مستمع عن ربه لم يتحقق من حاله الافتقار والذل والاضطرار، وهذا حال من قسا قلبه وضعف

(١) المفهم ٦/٦٠٨

(٢) انظر المفهم ٦/٦٠٩

(٣) البحاري حديث رقم ٦٣٣٩

(٤) فتح الباري ١٢/٤٢٧

إيمانه، وقل أكثرته بدينه وحاحته إلى رحمة ربه وإذا كان الله ﷻ لا يسجيبت دعاء من قسب عادل لاه كما ورد عن النبي ﷺ، فكيف بمن قل أكثراته بما عد ربه؟^(١) قد ﷻ «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُؤْتُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لِاهٍ»^(٢)

طاعة الشيطان بتفizi ما يوسوس به

أحد الشيطان على نفسه العهد أن يصل العباد ويعتصم كما أحر عنه القرآن ﴿فَجَعَلْنَا لَأَعْيُوسَهُمْ أَعْمَى ۖ﴾ [٨٣]، ﴿فَقَالَ يَسَّىٰ أَعْيُوسَىٰ لَأَقْدَنَّ لَمْ يَرْطَكَ السَّعْيُ ۖ﴾ ثُمَّ لَا يَرِيهِمْ يَوْمَ يَدْعُ أَهْلَهُمْ وَيَوْمَ يَدْعُ أَهْلَهُمْ وَغَرَّ أَبْنِيَهُمْ وَغَرَّ شَتَائِبُهُمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف ١٦، ١٧]

ولشيطان في الإغواء لإصعاف إيمان المؤمن أو الذهاب به طريق طريقين المعصية، والإغراء عليها، وتحسيسها إلى النفس، وتسهيل آثارها عليها، بعدم المصداقة بها، حتى تصير هيئة بتقلها القلب ولا يبرح منها كأن يزين له الزنا ووسائته من الطر، لما فيه من المتعة المؤقتة التي يعقها ندم عاجل. أو يزين له العيش في السبع، أو أحد الرشوة، لما فيه من تهيؤ الحصول على المال سهلا سريعا أو يزين له الكذب والورود والميعة والعيبة لما يوهمه في ذلك من المصلحة أو المصيبة، إلى غير ذلك من أنواع الحرام التي يريها الشيطان، فإن استجاب له اكتفى منه بذلك، واطمأن إلى أنه حقق منه ما يريد

وإن لم يجد الشيطان استجابة من العبد من هذا الطريق، بأن وجده قوي الإيمان، عالما بمكره وكيد، حريصا على دينه، لا يفرط فيه ولا يتهاون به، ولا يقصد إليه، أتاه من الطريق لأحر طريق الوسوسة والتشكيك في دينه، فيهمج عليه بالأفكار الردية الحبيثة في معتقده، أو يشككه في عبادته، بحيث إذا فعل منها شيئا قال له لم تفعله؟ ليحزنه ويغمه، فإن كان العبد على فقه وبصيرة ولم يعأ به، واستعان عليه بربه، رجع الشيطان حاسئا مدحورا، وإن لم يكن كذلك اشتدت وطأة الوسوسة عليه حتى يمل ويأس من إصلاح نفسه ومن عمله، وبذلك يكون قد استجاب للشيطان ونال منه ما أراد

(١) اطر المعجم ٢٩/٧

(٢) الترمذي حديث رقم ٣٤٧٩

أنواع الوسواس

الوسواس قد يكون في العقيدة، بالشك في الإيمان به، أو بإلقاء الخواطر والافكار الرديئة بسببها إلى الله ﷻ أو إلى رسله، وملائكته، وقد يكون في العبادات بالتعمس فيها، وفعل ما لم يطلب الشارع فعله من العباد ولا كفهم به، كتكرار العمل في الوضوء، أو الغسل مرات ومرات، بحيث كلما غسل الوسواس بعيد، ويقول: إنه لم يغسل مع أنه معمس في الماء، أو بتكرار الطق بالتكبير، أو الية عند دخول الصلاة، أو تكرار السلام عند الخروج منها، ويعالج ذلك حتى يصبح بالمعط أحياناً إذا اشتد عليه الأمر، ما طفاه كالحيوان، وذلك من نسيب إبليس عليه

الوسوسة في العقيدة

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان»^(١)

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: تلك من خواص الإيمان»^(٢)، وفي الصحيح: «لَا يَرَاهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَ، حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ»^(٣). وفي رواية: «إذا وجدت شيئاً من ذلك، فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»^(٤)

وفي حديث ابن عباس: «أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالشَّيْءِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ حُمَمَةً أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُفْزِزْ مِنْكُمْ إِلَّا عَلَى الْوَسْوَسةِ»^(٥)

دللت هذه الأحاديث على أن الوسوسة في العقيدة، وورود الخواطر الرديئة عن

(١) مسلم حديث رقم ١٣٢

(٢) حفيد بن

(٣) مسلم حديث رقم ١٣٤

(٤) مسلم ١١٩/١

(٥) مشكل الآثار ٣٢٦/٢

القلب مع كراهته لها، وشعوره بالهم والغم منها، لا تدل على ضعف الإيمان، بل إن الخوف منها والحزن والقلق بسببها هو صريح الإيمان، كما أخبر النبي ﷺ، ولو كان الوسوسة من ضعف الإيمان لما وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ، وهم خيار الأمة، فقد كان أحدهم يقول عما يقع في قلبه: لأن يكون أحدنا حُمة -أي فحما- أحب إليه من أن يتكلم به، وقال ﷺ للذي وجد في نفسه ما يتعاضم أن يتكلم به: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال فاك صريح الإيمان.

فالموسوس لا تضره الخواطر الرديئة التي ترد على قلبه كرها، ولا يجد لها مدفعا، ولا تفسد إيمانه، بل بمعاناته ومكابدته إياها يقوى إيمانه، ويعظم أجره، ولا يؤاخذ به الله -تعالى- عليها، لأنها ليست من فعل العبد ولا من كسبه أصلا، بل هي من فعل شيطان مريد جالس بجنبه، يتكلم بها عنه، ليغيظه ويحزنه، وهذا من رحمة الله -تعالى- بعباده ولطفه بهم، وتمايم عدله وحكمته، فإنه تجاوز لهذه الأمة عما حدثت به نفسها ما لم تفعل أو تتكلم، كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ.

ومن أنفع العلاج لخواطر النفس ووسواس الشيطان في العقيدة أن يفرح بها العبد، ويعتبرها علامة على قوة إيمانه، فإنه بذلك يغيظ الشيطان، ويقطع طمعه فيه.

شكا رجل إلى أبي سليمان الداراني الوسواس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك فأبغض إلى وقت أحسست به فافرح، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك؛ لأنه ليس شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإن اغتممت به زادك، قال النووي: وهذا يؤيد ما قاله بعض الأئمة إنما الوسواس إما يتلى به من كمال إيمانه، فإنه اللص لا يقصد بيتا خراباً^(١).

وهذا كله في الخواطر والوسوسة الواردة غير المستقرة في القلب، أما شبه الإلحاد المستقرة في القلب، كشبه أهل البدع والزيغ، المعتقدين للخرافات، المحدثين في الدين ما ليس منه، بعبادات باطلة، أو معتقدات فاسدة، يرون أنهم يؤجرون عليها، أو المعتقدين لمذاهب فلسفية أو كلامية خاطئة تقوم على التشكيك في المعتقدات أو معتنقين مذاهب علمانية، أو شيوعية، أو أي مذهب فيه زيغ وانحراف، أو كفر وإلحاد، فهم مؤاخذون بما استقر في قلوبهم، فإن كان على اقتناع فالأمر واضح في

(١) الأذكار ص ١١٨.

مؤاخذتهم بما اعتنقوه، وإن كان شبهة، فعليهم أن يدفعوها بالنظر والاستدلال والاطلاع على حجج أهل الإسلام، وإلا كانوا من الضالين.

الوسوسة في العبادات:

وللوسوسة في العبادات صور في غاية العجب، قال الشعراني: وقد رأيت من يقفز في الهواء إذا نوى الصلاة، ثم يقبض يديه على صدره كأنه يخطف شيئا كان هاربا منه، ثم يقول: أستغفر الله، ثم يقول: الطلاق يلزمني ثلاثا لا أزيد على نية واحدة ثم يزيد، وكان ذلك في صلاة الجمعة، فما زال كذلك حتى قانت الجمعة^(١).

وذكر ابن الجوزي عن أبي الوفاء بن عقيل أن رجلا لقيه، فقال له: إني أغسل العضو وأقول: ما غسلته، وأكبر وأقول: ما كبرت، وأنغمس في الماء مرارا كثيرة، وأشك هل صح لي غسل أم لا، فما ترى؟ فقال ابن عقيل: دع الصلاة، فإنها ما تجب عليك، فقالوا له: كيف تقول ذلك؟ فقال لهم: قال النبي ﷺ: رفع القلم عن المجنون حتى يعقل، ومن يكبر ويقول ما كبرت فليس يعاقل.

الوقاية من الوسوسة:

من أراد أن يجنبه الله -تعالى- الوسواس قبل وقوعه، فليأخذ بأسباب الوقاية منه، والوقاية منه تكون بالتفقه في الدين، وتعلم العلم الشرعي، ومصاحبة أهل العلم والفقهاء العاملين، فإن ذلك أجود ما يتوقى به وسواس الشيطان، وفي الأثر: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد -أي جاهل-.

ومن أسباب الوقاية منه أيضا الحرص على أكل الحلال، وتطيب المطعم والمشرب، فإن ذلك ينور القلب، فلا يجعل الله للشيطان عليه سبيلا، هذا مع المحافظة على ذكر الله -تعالى-، وما كان يقوله رسول الله ﷺ ونقل عنه من الأذكار، وأدعية اليوم والليلة، وتلاوة القرآن، كل ذلك يجعل منه المسلم وردا لنفسه كل يوم، مع التدبر وحضور القلب، سواء في التلاوة أو في ذكر الله -تعالى-، والأدعية الماثورة، فإن حضور القلب، واستحضار معاني الذكر التي فيها تعظيم الله -تعالى- يتحقق معه النفع، ويتحقق مع حفظ الله -تعالى- الذي رتب عليه، ووعد به قائله، وهو حفظ الرب، الفعال لما يريد، الذي لا يقدر على اختراقه جان ولا مريد.

(١) انظر لطائف الحث ٥٥٥، وتبليس إبليس ص ١٣٤.

علاج الوسواس بعد وقوعه :

أما بعد الابتلاء بالوسواس وحصوله، فعلاجه يكون على الوجه الآتي :

١- الإعراض عنه، فإنه ليس لعلاج الوسواس بعد وقوعه كالإعراض عنه، وعدم المبالاة به، وترك الالتفات إليه، وإلى ذلك نبه النبي ﷺ بقوله في الحديث : «... فليستمد بالله وَلَيْتَهُ»^(١). خرج مالك في الموطأ عن سليمان بن يسار أنه سئل عن البلل يجده الإنسان -أي من أثر الوسوسة- فقال : «أَنْضَحَ مَا تَحْتَ ثَوْبِكَ بِالْمَاءِ وَاللَّهُ عَنْهُ»^(٢)، والمعنى في ذلك أن الموسوس إذا نضح بالماء فإنه إن أحس بللاً فدر أنه من أثر النضح بالماء، وسد الباب على الشيطان بالوسوسة.

ولا يقلق الموسوس ويضعف إذا رأى في بادئ الأمر مع الإعراض عن الوسوسة زيادة فيها، فإنه شائع في الموسوسين. يأتي الموسوس ويسأل، فيبين له أن الوسوسة لا تضر المؤمن، وهي ابتلاء يعظم له به أجره، وخوفه منه دليل على قوة إيمانه، والله ﷻ لا يعذب عباده بما لا قدرة لهم على دفعه، فإن الحاكم من البشر لا يؤاخذ بذلك إن كان معه شيء من العدل، فما بالك بعدل الله ورحمته وحكمته وعلمه؟. وتقول له : إن حجر الزاوية في التخلص من الوسوسة هو الإعراض عنها وعدم المبالاة بها، فيجد راحة لمثل هذا القول ينشرح به صدره، ثم لا يلبث أياماً قليلة حتى يعود للسؤال نفسه، وهو في حالة أسوأ من حاله الأول، ويقول : إنه لم ينفع معه الإعراض وأن الوسواس اشتد عليه أكثر من ذي قبل، ويعتقد أنه لم يبق له من الإيمان شعرة، وهو في يأس من حاله.

وقوع مثل ذلك متوقع من كل موسوس، فإن ذلك من تمام مكر عدو الله وكيدته، وهي علامة على أن الخناس أذن بالرحيل، فإن كل عدو إذا ما حاربه بما لا يطيق من سلاح، يقاوم أول الأمر كأشرس ما يكون، ثم تخمد قوته ويذهب ريجه.

٢- على المؤمن إذا ما ابتلى بشيء من الوسواس أن تكون ثقته بالله -تعالى- كبيرة، واعتصامه به لا يتزعزع، واعتماده وتوكله عليه في دفع الخواطر، يقينا

(١) البخاري حديث رقم ٣٢٧٦.

(٢) الموطأ حديث رقم ٩٠.

لا ارتياح فيه، فإن الموسوس إذا قويت نفسه على دفع الشيطان، وقال له: أنا أدرى بنفسي منك، انقطع طمعه فيه، ويثب منه، وليعلم العبد أن الشيطان ضعيف لا قدرة له، ولا حول ولا طول، فإنه لضعفه وتخاذله سماه الله -تعالى- الخناس، والخناس: الذي عادته الاختفاء، والتأخر بعد الظهور، مرة بعد مرة، وقد أخبر الباري أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

٣- الاستعاذة من الشيطان والاستعانة عليه بذكر الله والاستغفار، وتلاوة القرآن، وأفضل الذكر بعد القرآن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، قال -تعالى-: ﴿وَلَمَّا يَرْزُقُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ قَاسِدٌ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال ﷺ في جواب السائل عن الوسوسة: «... فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ»^(١)، وفي رواية: «فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ»^(٢)، وفي رواية: «إذا وجدت شيئاً من ذلك، قل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»^(٣). ومن صيغ الاستعاذة الواردة في السنة «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»^(٤). والاستعاذة معناها: الاستعانة بالله وحده والالتجاء إليه والتوكل عليه، وهي أنفع لدفع الشيطان من سببه ولعنه، فإنه يتصاغر مع الاستعاذة، ويتعاطم عند السب، حتى يقول: بقوتي صرعت. ففي الحديث إن دابة عشرت بالنبي ﷺ، فقال رجل: تعس الشيطان، فقال: «لَا تَقُلْ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ النَّبِيِّ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ»^(٥) وفي رواية: «حَتَّى يَكُونَ أَضَعَّرَ مِنْ ذُّبَابٍ»^(٦).

تم ما قصدت إليه والحمد لله أولاً وآخراً،
وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

(١) البخاري حديث رقم ٣٢٧٦.

(٢) مسلم حديث رقم ١٣٤.

(٣) مسلم ١/١١٩.

(٤) سنن الترمذي حديث رقم ٢٤٢.

(٥) أبو داود حديث رقم ٤٩٨٢.

(٦) مستد أحمد حديث رقم ٢٠٠٦٨.